

مدامع العشاق

زكي مبارك

obeyikan.com

الإهداء

إلى تلك النفس التي لا يعنيهـا من أمري شيء، والتي أخلفت ما أخلفت
من الوعود، ونسيت ما نسيت من العهود، والتي شغلت بنعمة المال، والجمال،
عما أقاسي من محنة وعذاب، والتي ما أحسبني أطمع في أن تسكن إلي، أو
تعطف علي، إلى تلك النفس الظلوم: أهدي هذا السّفر الحزين!

ولست آمل والحمد لله والحب، أن تتوجه بالقبول، فإن هذا أمل عزيز
المنال، وكل ما أصبو إليه: أن تنفحني من أجله بظلم جديد.

فبعض الظالمين وإن تناهى شهى الظلم مغفور الذنوب

زكي مبارك

obeyikan.com



مقدمة الطبعة الأولى

١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وفي أنفسكم أفلا تبصرون}؟!

آية كريمة، تذهب فيها النفس مذاهب شتى، ولكنني أريدها لمعنى خاص؛ هو الحكم على الأقوال والأفعال.

وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول، أو يعمل، فنحكم عليه بالبر أو الفجور، فتارة نخطئ، وتارة تصيب. وأكثر ما نكون شططا إذا حكمنا على القول، أو الفعل، من غير أن نحيط خبرا بظروف القائل، أو الفاعل. وهي وحدها محور الخير، والشر، والخطأ، والصواب. فليست كل كلمة يكفر قائلها كما يقول الفقهاء بمكفرة، ما لم تشهد القرائن على أن قائلها معاند جحود، وليست القصائد الخمرية شهادة على قائلها بالإثم ولا قصائد التشبيب رميا لصاحبها بالفسوق، ولكن في الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير!

ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال، واجتهدنا في معرفة ظروف الفاعل قبل تأمل ما فعل من منكر أو خيث فقد ترفع التهمة عن كثير ممن حكم عليهم بالكفر والمجانة، لكلمة ظاهرها الكفر أو فعل ظاهره المجون.

وليس في ذلك خروج على أصول الدين، فقد قال -عليه السلام-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» وليس لمتعنت أن يرد علينا بأن هذا خاص بأعمال الخير، لا الشر. فإنه كما يجوز أن يفسد الخير حين يراد به شر، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير، وتبقى التبعة على من يقصرون في إرشاد الناس إلى نتائج أعمالهم، وما لها من الضر، والنفع، لتتماثل النيات والأعمال.

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله، من غير أن تلم إلمامة بالأسباب القريبة والبعيدة، لما يعمل وما يقول، وقد تكون نيته سيئة فيحبط عمله، فإن من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب.

إن علماء الغرب لا يحكمون على خلق المؤلف إلا بعد أن يتبينوا العصر الذي عاش فيه، والبيئة التي أحذقت به، فنال منها ونالت منه، لاحتمال أن تسود كتابته فكرة كانت في عصره حسنة، وهي في عصرنا سيئة، فنحكم عليه بما هو منه براء.

٢

ولنرجع إلى الآية التي صدرنا بها هذا المقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فإني لا أكتم القراء أنني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لأنكرتها عليه. مع أنني أعرف أنني كتبتها من قبل، وأنا نقي القلب، خالص الضمير. ولقد تبدو تلك الكلمة، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجمال، وهي سذاجة طريفة، تمثل عهداً من عهود الصبا، خيل إليّ فيه أن الحسن يجب أن يكون ملكاً لجميع العيون، تستمتع به آمنة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور، ولا يحجبها عنه ضنين.

وليس في مقدوري الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة، لأنني حرمت من تلك السذاجة، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر، يلؤم من بعدها الكريم، وحاشاي! وسأفرض الآن أنني في العهد الأول من عهود الشباب، وأن الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين؛ أطهارا بررة، لا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتقولون الأقاويل، ولأذكر طرفا من ذلك الخطاب:

«يا أرباب الجمال!

ما لكم تضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لثما، ويأكله التراب أكلا لما؟

كم صائن عن قُبلة خده سلطت الأرض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده وكان يشكو الضعف من عقده

أما والله إن أرواحنا لفي حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الحدود، والمراد من الجفون، والمساويك من الثغور، والأمشاط من الشعور، والغلائل من الأعطاف، والزينة من الأطراف .. فلم تحرمونا في حبنا لكم، وإشفاقا عليكم مما تكرمون به الجمال ليلا ونهارا، على أنه لا يعرف ما حف به من حسن، وأحرق به من جمال؟!

يا أهل الملاحة!

إن الله ما خلقكم كالأزهار، في القفار، تزهر، ثم تذبل، ولا يتمتع أحد بشمها، ولشمها، وإنما خلقكم روحا لكل حي، ونعيما لكل موجود، فاجعلوا لنا منكم حظا، ولا أقل من النظر، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهد ببخلكم، وتموت بصدكم، وما الله بغافل عما تعملون!!

يا أعلام الحسن!

إن كنتم فطرتم على العزة، وجبلتم على النخوة، فهبونا بعض القرب منكم، والأنس بكم، ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة، وخضوع وعبودية، وقد عذرناكم لعزكم، فارحمونا لذلنا، وعشقناكم لحسنكم، فاعشقونا لحبنا، فكفى بالحب جمالا وبالعشق زينة، وإن الحب المملول، لخير من الحبيب المملول، فإن أبيتم إلا الصد والقطيعة، والجفاء والإعراض، فإننا نبشركم بأن الحسن حال تحول، ودولة تدول، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين!

أوردية الخدين من ترف الصبا ويا ابنة ذي الأقدام بالفرس الورد
صلي واغنمي شكرا فما وردة الربى تدوم على حال ولا وردة الخد

٣

ولقد يعجب قارئ هذا الخطاب حين يرى كاتباً يعتقد أن الجمال ملك العيون النواظر، وأن البخل به إثم وعقوق، ولكنه لو تروى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط، وأن صاحبها لا يسلم من الإسراف، ورحم الله ذلك العهد الذي كنت أعيش فيه بأمل غير محدود!!

ليالي لا تنجو بنبلي خريدة وإن عز حاميتها وجم عديدها
إذا ما رمتني ذات دل رميتها بعين لها منها مقيد يقيدها

على أنني لا أمنع أحداً من أن يسيء الظن بما كتبت منذ سنين، فإن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية، لا ييخل بوضع نفسه على المشرحة، ليسهل عليه وعلى غيره التحليل، ومثله في ذلك مثل الطبيب المخلص لعلمه، لا ييخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس، فهل يعقل هؤلاء الذين

يطيعون أهواءهم، وشهواتهم، فينسبون أنفسهم، ويسلقون إخوانهم باللسنة حداد؟

إن قليلا من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزلل والعتار، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون.

٤

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل أسرف الكاتب حين هم بنشر مدامع العشاق في جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة، موجهة إلى إحدى العذارى.

«قضي الأمر، وأصبحت حيًّا كميت، وموجودا كمعدوم! فما ضرني لو أذعت هذا الحب، وما أبقي هواك مني ما أسمع به ملاما أو أرى وجه عذول؟ على أن قلبي يحدثني بأن الإشادة بما بيننا من هوى قد تزيد حقد الحاقدين، وما إلى ردعهم سبيل! وأنت المعنية بهذا الإشفاق، أما أنا فما كنت لأرهب قوما لا سلاح لهم غير القيل والقال.

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بشين لقوني
إذا ما رأوني طالعا من ثنية يقولون: من هذا! وقد عرفوني

وبعد فإنه لم يبق ما أسكن إليه في هذا الوجود غير حديث الحب، وبلايا المحبين، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في أعذب ما جرى على ألسنتهم: وهو النسيب، وأن أبدأ ذلك بما انتهوا إليه، وهو الحديث عن الدموع، وما لها من سبب قريب أو بعيد، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المفسوح،

عدت فصاحت الشعراء، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى، وبينت مهوى عيونهم، ومصرع قلوبهم، بين الخدود الفواتن، والعيون الفواتك، ولن أخرج من ذكر ما كان من الوقائع بين الخصر النحيل، والردف الثقيل، وعلي وحدي إثم الفتنة التي ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة في صدور الشباب والكهول، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هذا الحديث.

نصحتك علما بالهوى، والذي أرى مخالفتي، فاختر لنفسك ما يملو

0

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يوجه إلى فتاة، فضلا عما فيه من المجازفة، في حمل إثم الآثمين وفتك الفاتكين، ولقد آذنتني آثامي، فكيف أحمل آصار الناس!

ولم يمر ذلك الخطاب بدون أن تضح له إحدى الجرائد الأسبوعية، وبدون أن ينالني أحد الكتاب بلسان حديد، فكتبت في الرد عليهم هذه الكلمة القاسية:

«في مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطسة والكبرياء والكاتب الجاد في نظرهم هو الرجل السليط، الذي يخيل إليه كما كتب: أنه قسيس في كنيسة حافلة، أو خطيب في مسجد جامع، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعد المنكرات؟! فأما الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن، وبدائع الجمال، فهو في رأيهم كاتب ماجن خليع!!

ولا أدري بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه الصور الجميلة، التي طارت بألباب الشعراء؟ وصيرتهم في كل واد يهيمون؟ أتراهم يقولون أنها من خلق الله، أم من خلق الشيطان؟ فإذا كانت من خلق الله، فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع؟ وإن كانت من خلق الشيطان، فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان، لأنه من عمل الشيطان الرجيم؟

أمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب!

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا في وجوههم، وعموا عن صنع الله الذي أتقن كل شيء، ماذا يريدون؟ إنهم يريدون أن أجاريهم في عمايتهم، وأن أسايرهم في جهالتهم، فلا أكتب في غير ما يروقههم من ذم الدنيا، والتبرم بالوجود!! ولكنني عرفت ما لم يعرفوا من «أفنان الجمال» في هذه الدنيا البديعة التي حملت الغزالي على أن يصرح بأن ليس بالإمكان أبدع مما كان، فعدت خليقا بحمد الحسن، والتقدیس لهن كلما أمعنوا هم في الجحود!

يقولون إن مدامع العشاق التي أنشرها في جريدة الصباح مما يفسد الشباب، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال، وما له من الأثر في تهذيب النفوس، وتثقيف العقول ويوعدون بالويل والثبور، إذا أنا مضيت في هذا البحث الشائق الطريف! فهل حسب هؤلاء السفهاء أني أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون!

فلا تلقوا نصيحتكم إلينا
لنا ما قد كسبنا أو علينا
لما أعطى لنا أذننا وعينا
كأن لكم على العشاق دينا

أبيننا أن نطيعكم أيينا
ركبنا في الهوى خطرا فإما
ولو لم يرض ربك ما أردنا
فما تسألكم عن كل صب

إلى هنا وقف القارئ، على ألوان من الخواطر، مرت بخاطر شاب يهم بالتمرد على ما ألف الناس، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضي للرياء، فأنا بصريح القول: موكل بالحسن أتبعه، ومغرم بالتغريد على أفنان الجمال. وإني لأقول:

أشجاك ما خلف الستار وإنما خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا أني بكل حسانهم مفتون
وأقول:

فيا رب إمارمت لي الخير منعمًا ففي قرب من أهوى وبعد أخي اللوم
وإن كان لي فيما قضيت مساءة فحزن على النائن جيرتي القدم
وإن شئت لي يوما جوارك فلا أكن شهيد الجوى لا نضوهم ولا سقم
وطول حسابي في المعاد على الهوى فطول أحاديث الصباية من همي

وما كان أغناني عن الفزع إلى حكم الأخلاق، لأرجع الخير والشر إلى النيات، لا إلى الأعمال، فقد آن لنا أن نعرف أن من الحق، بل من الواجب، أن ندرس الجمال، وأن نتغنى به، وأن نصفه بالشر البليغ، والشعر الجميل، وأن نكتب عمن كلفوا بالحسن: من العشاق، والشعراء.

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال: (إن الله يعجب من شاب لا صبوة له) وأنا لا أريد أن يعجب الله مني! وسينكر المتعنتون هذا الحديث، وأنا قبلهم لا أجزم بصحته، ولكنني أثق بأنه يقرر حقيقة واقعة، فما كان الله ليخلق الجمال لنعمى عنه، أو لنرمي عشاقه بالإثم والفجور، وهؤلاء المتزمتون الأغبياء لا

يملون من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة، لهم الويل! وهل الإنسان إلا لباب الطبيعة، وسرها المكنون؟!

وماذا أصنع بالأشجار، والأزهار، والشمار، والأنهار، والكواكب، والنجوم، والسهول، والحزون، والجبال، والوديان، والطيور الصواوح، والظباء السوانح؟؟

ماذا أصنع بكل أولئك، إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول، وأسجله الحديث، وأساقه صهباء هذا الوجود؟!

وهذا الإنسان؟ أليس لي الحق في اختياره، قبل اصطفائه، وكيف أختاره إن لم أحكم الذوق، في تمييز جسمه وروحه، وعقله وشعوره، وحسه ووجدانه؟

وما قيمة الليل إن لم تظلني في الحب ظلماًؤه؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزني إلى ضم القدود، وما حسن الأزهار إن لم تشقني إلى لثم الخدود؟ وكيف أميل إلى الظباء، لو لم تشبه بعيونها وأجيادها، ما للحسان من أعناق وعيون؟ وكيف أصبو إلى غنة الغزال، لولا ذكرى تلك النبرات العذاب، التي يسمونها السحر الحلال؟

وإنك لتعلم أيها القمر، كيف كنت أصدف عنك، وأنا أطالع ذلك الوجه، الذي نعمت معي بثغره المفلج، وأنفه الأقرنى، وطرفه الأحور، وجبينه الواضح، وإنك لتعلم أيها القمر، كيف هجرتك حين غاب، وتعلم أني لا أنظر إليك إلا حين السرار، لأرى كيف يفعل الشحوب بك، وكيف تنال منك الليالي! وإنها لشماتة طفيفة، أحزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه وعلى عودتك لشبابك، في حين أودع كل يوم جزءاً من شبابي، وواحسرتاه على ما أودع من أجزاء الشباب!!

لجسم أقام وقلب ظعن
وما زودوني غير الشجن
كصوب الغمام إذا ما هتن
بعيد القرار فقيد السكن
قليل السرور كثير الحزن
لقد شاب حظي وشاب الزمن
سهام الردى أو خيوط الكفن
لكالحلم أقلع عنه الوسن

لأصبحت نهب الأسى والحزن
فيا ويجهم يزعمون الرحيل
دموع تحدر فوق الحدود
وقلب يقلب بين الضلوع
وأصبحت والرأس مرعى المشيب
لعمري لئن شبت قبل الأوان
كأن الشعور عراها البياض
وإن الشباب إذا ما انقضى

٧

أما بعد فقد أخرجنا للناس كتاب «الأخلاق عند الغزالي» فرمونا من أجله
بالكفر، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق؟ وسيرموننا من أجله بالفجور،
وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب «آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية»
وكتاب «أفنان الجمال» ثم نجنح بعد ذلك إلى المتاب!

وقد زعمت ليلى بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكى مبارك

سنترس في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب، وعن الحسن وتنوعت مذاهبهم في وصف ما يشقى به المحب، وما ينعم به الحبيب!

ويمكن رجع كلامهم في النسيب إلى أصليين اثنين:

الأول - وصف ما يلاقي المحبون من عنت الحب. ويدخل في ذلك كل ما يهيج الوجد، ويثير الدمع، كحديث الفراق، والعتاب، والذكرى، والحنين.

الثاني - وصف ما يرى الشعراء في أحبابهم من روعة الحسن ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس؛ والعين، من جمال الأبدان والأرواح، كوصف العيون، والحدود، والثغور، والنحور، والصدور، وكالحديث عن العطف، والرفق، والوفاء والعفاف.

وقد رأيت أن أفصل مذاهب النسيب في وصف ما يشقى به المحبون في كتابه أسميه «مدامع العشاق» وأن أشرح مذاهبهم في الكلام عن الحسن في كتاب أسميه «أفنان الجمال».

وكان الواجب أن نبداً بطبع «أفنان الجمال» لأنه أوفى وأمتع، ولأن أفنان الجمال، وجدت قبل مدامع العشاق.

ولكن دولة الحسن لا عدل فيها ولا رحمة، فلتتابعها في الظلم، ولنقدم الفروع على الأصول!!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء، وموجبات المدامع ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد أن كانت بيضاء، وايضاؤها بعد أن كانت حمراء!!

وللدموع أسباب عامة، وأسباب خاصة. فأما الأسباب العامة فهي الحرق الدخيلة، والجوى الدفين، وما إلى ذلك من البث والحزن، واللوعة والحسرة، فمن هذا قول العباس بن الأحنف:

ظلمت عيناك عيني أنها بادلتها بالرقاد الأرقا
سلط الشوق على الدمع فما هب داعي الشوق إلا اندفقا
وما كان له أن ينسب إلى عينيها الظلم، لا بتلائه بالسهاد. وخير منه قول صريع الغواني:

أسهرتموني أنام الله أعينكم لسنا نبالي إذا ما نمت من سهر
ولو قال:

رحمت عيناك عيني أنها بادلتها بالرقاد الأرقا
لكان أقرب إلى الصدق وعرفان الجميل، فحسب المحب ما أهده عينه حبيبه من ضنى الجسم، وسهد الجفون. وقال البحرى:

قد أرتك الدموع يوم تولت ظعن الحي ما وراء الدموع^(١)

(١) الظعن والظعائن: جمع ظعينة، وهي المرأة في الهودج.

عبرات ملء الجفون مرثها حرق للفؤاد ملء الضلوع^(١)
فرقة لم تدع لعيني محب منظرًا بالعقيق غير الربوع

ولا أدري ما الذي أراده البحرني بما وراء الدموع! أهو الدم الأحمر الذي
تجود به الشئون عندما تفيض المدامع، أم هي الحرق الدخيلة التي ينبئ عنها
الدمع، ويفصح عن مكنونها البكاء! وقال الشريف الرضي:

يقولون ما أبقيت للعين عبرة فقلت جوى لو تعلمون ألم
أسمع جفني بالدموع وأغتدي ضنينًا بها؟ إني إذا للتئيم
ولو بخلت عيني إذا لعبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

ولعل هذا خير ما قيل في الاعتذار عن البكاء، بذكر موجب، والداعي إليه،
وإنه لشعر بديع. أما الأسباب الخاصة فهي كثيرة. فمن العشاق من يبكي
لتلمس الأخبار، كما قال ابن هرم:

وأستخبر الأخبار من نحو أرضها وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي
فإن ذكرت فاضت من العين عبرة على لحيتي نثر الجمان من العقد

وإني ليروقني قوله (أسأل عنها الركب عهدهم عهدي) فإنه يدل على
حيرة ووله، إذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئًا، استرواحًا بالسؤال
عنها، وكذلك يفعل المشوق! ولا يبعد أن يستنكر الغواني فيض الدموع على
اللحية في هذا الشعر، لأن الأمر كما قال أبو تمام:

أجلى الرجال من النساء مواقعًا من كان أشبههم بهن خدودًا

وقاتل الله الشيب، ولا عفا عن جنايته على الشباب!

(١) يقال مري الراعي الناقة: إذا مسح ضرعها لتدر اللبن. ويريد الشاعر أن يقول أن اللوعة
مرت الدمع، أي حملته على أن يفيض.

ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم، أو مطالعة الرسوم. كما قال ابن الدمينية:

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة وحر على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين يا مي كلما بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وما كان الحب زفرة ولا عبرة، كما قال ابن الدمينية - ولكنه شيء به الروح
تكلف - وما أحسن قول ابن أسباط القيرواني:

قال الخلي الهوى محال فقلت لو ذقتَه عرفته
فقال هل غير شغل قلب إن أنت لم ترضه صرفته
وهل سوى زفرة ودمع إن لم ترد جريه كففته
فقلت من بعد كل وصف لم تعرف الحب إذ وصفته

ومنهم من يبكي عند الوقوف بالرياض، إذ تذكره رشاقة أغصانها، وحمرة
أزهارها، بالقدود الرشيقة، والحدود الوردية، كما قال ابن المعتز:

وقفت بالروض أبكي فقد مشبهه وقد بكت بدموعي أعين الزهر
لو لم تعرها الجفون الدمع تسفحه لرحمتي لاستعارته من المطر

وهذا النوع من الإسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتزل فيما أعلم! وإنما
كانت تسعد الحماةم ويبكي الرفيق^(١).

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم. كما قال بعض الأعراب:

لعمرك ما ميعاد عينيك والبكا بدراء إلا أن تهب جنوب
أعاشر في (داراء) من لا أحبه وبالرمل مهجور إلي حبيب^(٢)

(١) الإسعاد هو المشاركة في البكاء.

(٢) داراء اسم موضع، وكذلك الرمل.

إذا هب علوي الرياح وجدتني كأنني لعلوي الرياح نسيب^(١)

ومنهم من يبكي لبكاء الحمايم، وهو كثير في كلامهم. ولعل من أبدعه وأروعه قول الشبلي يصف شجو حمامة هاجت شجوه:

رب ورقاء هتوف في الضحى	ذات شجو صدحت في فنن ^(٢)
ذكرت إلفا وعيشا سالفًا	فبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها	وبكاهها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمني
غير أنني بالجوى أعرفها	وهي أيضا بالجوى تعرفني
أتراها بالبكا مولعة	أم سقاها البين ما جر عني

وهذه الأبيات من أحسن الشعر تقسيما، وأبرعه تصويرا، ولقد افتتح بها الشيخ علي الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء، ظنا منهم أنها له ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الأحياء على حساب الأموات، ممن حيث لا يشعر الناس!!

ومما ابتدعه المتأخرون في موجب البكاء، ما جعله بعضهم عقابا للعين، جزاء بما أهدت نظراتها للقلب من شجى، وللجسم من نحول، فقال:

لأعذب العين غير مفكر	فيما جرت بالدمع أو سالت دما
ولأهجرن من الرقاد لذيله	حتى يعود على الجفون محرما
هي أوقعني في حبائل فتنة	لو لم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمي فلاسفحن دموعها	وهي التي بدأت فكانت أظلم

(١) علوي نسبة شاذة إلى عالية نجد.

(٢) الورقاء هي الحمامة، والشجو الحزن، والفنن الغصن ويجمع على أفنان.

وهو مذهب غريب، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن، وفهم الجمال! وإلا فأبي عاشق يذكر جناية النظر عليه، ولا يدعو لعينه بطول البقاء. والله در القائل:

قالت أترقد إذ غبنا؟ فقلت لها نعم، وأشفق من دمعي على بصري
ما حق طرف هداني نحو حسنكم أني أعذبه بالنوح والسهير
ومنهم من جعل الدمع غسلا للعين مما زنت بالنظر، فقال:

وقائلة ما بال عيناك مذ رأت محاسن هذا الطبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه فحق لها من فيض مدمعها غسل
وقال الآخر:

إن سانة فتانة بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عيني بها فبالدموع تغتسل
وهو خيال فقهاء، لا خيال شعراء!!

وقد نظر الأرجاني إلى قول أبي تمام:

بسطت إليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا^(١)
كادت لعرفان النوى ألفاظها من رقة الشكوى تكون دموعا
فولد منه معنى لطيفا، إذ جعل دموعه عند الفراق، وقد تحدرت كالآلئ بقية ما نفثه المودعون في آذانه من حديث هو الدر النفيس. وذلك قوله:

لم يكنني إلا حديث فراقهم لما أسر به إلي مودعي
هو ذلك الدر الذي أودعته في مسمعي ألقيته من مدمعي

(١) الأسروع ويجمع على أساريع دود أبيض أحمر الرأس يشبه به العرب الأنامل الرقيقة.

أما السبب في احمرار الدموع فلم أجد فيه أبلغ من قول صردر:

حتام أرعى وردة لا تجتني في الخلد أو تفاحه لا تلثم
أيُذاد عن تلك المحاسن ناظري ويريد مني أن يسوغها الفم
في كل يوم العيون وقائع إنسانها الطمّاح فيها يكلم
لوم تكن جرحى غداة لقائهم ما كان يجري من مآفئها الدم
لم أدر أن الحب حومة مأزق تصلى ولا أن اللوا حظ أسلم

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد:

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنساني من الفرق
أني أصد دموعا لج سائقها مطروفة العين بالمرضى من الحدق

ويرى القارئ أن أصحاب هذه الأخيصة الشعرية، يرون أن احمرار الدموع إنما هو أثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين المعشوق. فيا لها من حرب ضروس تطأ فيها أقدام الجنس اللطيف أعناق الجنس النشيط. وإنا بهذه الهزيمة لفرحون!!

وكان عجبيا أن تبيض الدموع بعد احمرارها!! وقد رأينا كيف أولوا احمرار الدموع. ولنذكر أن أصدقهم سبط بن التعاويذي حين يقول:

أتبعثهم يوم استقل فريقهم نظر المشوق وأنه المفجوع
لم تبك يوم فراقهم عيني دما إلا وقد نzf البكاء دموعي

والآن نريد أن نعرف كيف يتأولون ابيضاض الدموع بعد أن صيرها الحزن حمراء. فمن الشعراء من يرى الدمع الأبيض ماء ورد الحدود التي قطفها بعينه عند الرحيل، كما قال بعض الظرفاء:

كانت دموعي حمرا يوم بينهم فمذ نأوا قصرتها بعدهم حرقى
قطفت باللحظ وردا من حدودهم فاستقطر البين ماء الورد من حدقي

ومنهم من جعله شيئا للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله:

قالـت عهدـتـك تبـكـي دما أطول التـنـائـي
فلـم تعـوضـت عـنـا بعـد الـدمـاء بـمـاء
فقلـت ما ذاك منـي لـسلوة وعـزـاء
لـكن دـمـوعـي شـابـت لـطـول عـمـر بـكـائـي
وأشجى منه قول الآخر:

وقائلة ما بال دمـعـك أبيضاً فقلت لها يا عز هذا الذي بقي
ألم تعلمي أن البكا طال عمره فشابت دموعي مثلها شاب مفرقي
وعما قليل لا دموعي ولا دمي ترين ولكن لوعتي وتحرقني
وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزناً، وأغزره دمعاً، وهل تجد أدعى للشجو
والبث من قوله:

فقلت لها يا عز هذا الذي بقي!!

ويذكرني هذا بقول الشريف الرضي في إتيان الدموع على العيون، والغليل
على الضلوع:

مـا بعـدكم تـلك العـيـون بـكاؤـها وغـال بـكم تـلك الأضـالـع غـولـها
فـمـن ناظـر لم يـبق إلـا دـمـوعـه وـمـن مـهـجـة لم يـبق إلـا غـلـيلـها
دعـوا لي قـلبـا بـالـغـرام أذـيـبه عـلـيـكم وعـيـنـا في الطـلـول أجـيـلـها

ويذكر الشعراء أن الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق من الهواء.
ولهم في ذلك فنون من القول، وشجون من الحديث، وأجمل ما رأيت في
ذلك قول خالد الكاتب في رفق عذاله به، وإسعاده له:

بـكى عـاذلي مـن رـحمة فرحـمـته وكم مـسـعدلي في الـهوى ومـعـين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

عذر أرباب الدموع

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه
إن القليل مبللا بدموعه مثل القليل مضرجا بدمائه

نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم، وما يحتجون به لدى عذالهم.
وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدمع، وداعي البكاء. والشعراء فيه رجلان
رجل غلبه الحب، وقهرته الصبابة: فباح بمكنون سره، ومكتوم حبه، ورجل
تخوف الرقباء، وتهيب العذال، فأخذ يخلق العلل، وينتحل الأسباب، دفعاً
لكيد الواشين، ودرءاً لعذل اللائمين ... فمن الأول قول البحري:

سارت مقدمة الدموع وخلفت حرقا توقد في الحشا ما ترحل
إن الفراق كما علمت فخلني ومدامعا تسع الفراق وتفضل
إلا يكن صبر جميل فالهوى نشوان يجمل فيه ما لا يجمل

وحسن البيت الأول في خلود اللوعة، وبقاء الغليل! وهو خير من قول ذي
الرمة:

لعل انحذار الدمع يعقب راحة من الوجد أن يشفي شجي البلابل
والبيت الأخير أروع من قول أبي تمام في نفس المعنى:

والصبر أجمل غير أن تلدا في الحب أخرى أن يكون جميلا
وقال البحري في الاعتذار عن البكاء:

لا تلمني على البكاء فإني نضو شجو ما لمت فيه البكاء
عذلا يترك الحنين أنينا في هوى يترك الدموع دماء

كيف أغدو من الصبابة خلوا بعدما راحت الديار خلاء

ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب:

عش فحبيك سريعاً قتلي والضنى إن لم تصلني وأصلي
ظفر الحب بقلب دنف فيك والسقم يحسم ناحل
فهما بين اكتئاب وضنى صيراني كالقضب الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة فبكائي لبكاء العاذل

وهذا معنى جميل، لا ينقص غير القرب من الحقيقة: فقد يندر أن يبكي
اللائمون رفقا بالمحب الحزين!

ومما انتحل فيه الشعراء للبكاء أسبابا غير أسبابه قول كثير:

إذا زرفت عيناى أعتل بالقذى وعزة لو يدري الطبيب قذاهما

وهو نوع من الكتمان ينفزع إليه الشعراء عند اليأس من أحبابهم:

يأس يحسن لي التستر فاعلمي لو كنت أطمع فيك لم أتستر

ومن طريف هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه، وقد استحيا من

صديقه:

كم من صديق لي أسأ رقة البكاء من الحياء
فإذا تأمل لا مني فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهب لأرتدي فطرفت عيني بالرداء

الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط. ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب:

فإن تمنعوا ليلي وحسن حديثها فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا
فهلا منعتم إذ منعتم حديثها خيالا يوافيني على النأي هاديا

وهي سذاجة طريفة تذكرنا بقول جحدر وهو في السجن:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها للنهار كما علاني

وما الذي يضير أعداء المحب من أن يرى القمر كما تراه، ويعلوها النهار كما علاه، ما داموا قد أبعده عنها، وحرموه منها. وقد تنبه بعض الأعراب إلى تفاهة هذه القناعة فقال:

بربك هل ضمنت إليك ليلي قبيل الصبح أو قبلت فاهيا
وهل رفت عليك فروع ليلي رفيف الأقحوانة في شذاها

على أنه لا ينبغي أن لا ينسينا جمال هذا الخيال ما في شعر جحدر وأمثاله من روعة الصدق، وجلال الوفاء. وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح البكاء أشهى من الحديث المعسول، حين يغدو المحب ولا أمل له في غير الوجد المشبوب، والدمع المسكوب، والصبر المغلوب!

من أجل هذا تخالف أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفي ونرجوه أن
يصفح عن إعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء بدمعه الدائم، وحزنه
المقيم:

فإن يحبوها أو يحل دون وصلها مقالـة واشٍ أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن يُذهبوا ما قد أجن ضميري
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ومن كُرب تعتادني وزفير
ومن حرق للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غير قصير
سأبكي على نفسي بعين قريحة بكاء حزين في الوثاق أسير
وكنا جميعا قبل أن تظهرى النوى بأنعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبة لظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكننا الدنيا متاع غرور

وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الإنسانية أجمل تصوير، وتمثيلها أدق
تمثيل. ألم تر إلى الشاعر وقد أوجز في قناعته بالبكاء، ثم انطلق يشكو إلى الله
لوعته، وحرقته، ولياليه الطوال!! ألم تر إليه وقد كان يحسب الدمع نعمة
سابغة يكبت بخلودها الأعداء، فعاد يرى الدمع آية الذل والمسكنة، وآخر ما
يفزع إليه الأذلاء المساكين!!

الفرع إلى الدموع

قال أبو بكر بن عياش: نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي شجي البلابل
فخلوت فبكيت فسلوت!! ولست أدري كيف تذهب بالوجد زفرة، أو
تودي به عبرة، وهو كما قيل:

ظن الهوى لبسة تبلى فيخلعها فكان في الروح مثل الروح في البدن
وكنت أسمي هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع، وفقا لما يجنح إليه
الشعراء، ولكنني رأيت أن أسميه «فرعا إلى الدموع» حين تبينت أن الدمع لا
يطفى اللوعة، وأنه نار حامية، لا برد وسلام!!
وهل تجد أدعى للبث، وأجلب للحزن، من قول كثير، وقد ترحلت
حبيته:

كفي حزنا للعين أن رد طرفها لعزة غير آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى إذا لغليلي
توليت محزونا وقلت لصاحبي أقاتلتي ليلى بغير قتيل
وما اختار البكاء لأنه أشفى للغيل كما قال. ولكنه اختاره ليفر من الصبر
الذي رآه مُرَّ المذاق!! وقد حسب بعض الشعراء أن التفضيل بين الصبر
والبكاء مما ينال، وفي ذلك يقول:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر

وهو ضلال مبين: فإن البكاء لا ينتظر دعوة المحزون، ولكنه ينقض عليه انقضا الصاعقة، فإذا هو صريع! وأمثال هذا الشاعر لا يتحدثون عن حزنهم المقيم. ولكنهم يمنون على أحبابهم بهذا الدمع المجلوب.

ومن الشعراء من تنبه إلى أن السلامة من الجوى أمض من الجوى، وهؤلاء سيكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم «ومن أساء الحب الضلال» ومن مختار الشعر في هذا البكاء قول المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
ولو زلتم ثم لم أبكمكم بكيت على حبي الزائل
وأوجع منه قول البحري:

وأود أني ما قضيت لبانتني منكم ولا أني شفيت غليلي
وأعد برئي من هواك جناية والبرء أعظم غاية المخبول

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه في السلوة، ولا في البكاء.. وهل السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر، ويقصف العمر؟ أرأيت آدم وقد خرج من الجنة؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع، هي سر ما يعتادنا من أنين قد لا نعرف له سببا قريبا؟ وهل البكاء إلا أثر من آثار الوجد يخشع لرهبته غلاظ الأكباد، ويرق له قساة القلوب؟

تلك حسرة، البحري أفصح عنها بقوله:

وأود أني ما قضيت لبانتني منكم ولا أني شفيت غليلي

فما الذي جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول:

قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا أو معينا أو عاذرا أو عذولا
وخلاف الجميل قولك للذاكر عهد الأجيال صبرا جميلا

على ماء الدموع يحمد نارا من جوى الحب أو يبل غليلا
وبكاء الديار مما يرد الشوق ذكرا والحب نضوا ضئلا
لم يكن يومنا طويلا بنعما ن ولكن كان البكاء طويلا

إن فهم ذلك يحتاج إلى تأمل النفس البشرية: فهي ليست موحدة المشاعر والميول. ولو جاز أن نجد نفسا خالدة الألم لفقد شقيقتها في عالم النفوس، لجاز أيضا أن تكون في لوعتها الخالدة ذات تصارييف في الشكوى والأنين! وليس طلب السلوة إلا صرخة الوجد يعجز عن كبحها المتيّم العاني: ومن الذي يحرم على شقي أن يلتمس إلى السعادة السبيل؟ ومتى كان المحبون سعداء حتى يكون طلب الخلاص من بلواهم كفرا بنعمة الحب التي ابتلى الله بها أولئك الشهداء؟! وقد يحسن أن ننشد القارئ قول البحثري نفسه:

قد كان مني الوجد غب تذكر أن كان منك الصد غب تناسي
تجري دموعي حيث دمعتك جامد ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

ألا تراه جعل الوجد أثرا للتذكر الذي حسب البكاء يفضي إليه فيريجه من الشوق في قوله:

وبكاء الديار مما يرد الشوق «ذكرا» والحب نضوا ضئلا

فهو يجعل الذكر دواء تارة، ويجعله داء تارة أخرى! ولسنا نتخذ من ذلك دليلا يرضاه المنطق عن خلود الصبابة، والعالم كله لن يرزق الخلود، ولكننا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيّم المحزون، فما يدري أيشفيه الدمع، أم يزيد لوعته اضطراما.

على أنه لا عيب على الشاعر في أن «تتناقض» خواطره، لأن الشعر كالمرآة والنفس دنيا فانية، تتراءى صورها المختلفة؛ في لوحة الشعر الجميل.

الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق. فمن ذلك قول ابن الرومي:

لو كنت يوم الفراق حاضرا وهن يطفين غلة الوجد
لم تر إلا دموع باكية تقطر من مقلّة على خد
كأن تلك الدموع قطرندي يقطر من نرجس على ورد

وقد يؤخذ على هذه الأبيات ما فيها من الغزل في غير حينه: وهو قول أبي نواس في جنان:

يا قمرا أبصرت في مآتم يندب شجوا بين أتراب
بيكي فيذري الدر من نرجس ويلطم السورد بعناب

والأدباء يرون هذا من وثبات الخيال، ونراها أخيلة عادية ليس لها جمال خاص، فقد يجد الشاعر في الجميلة الباكية ما ينسيه وصف طرفها الساحر وخدها الأسيل!! وقد أجاد ابن الرومي أو كاد في قوله:

تلاقينا لقاء لا فراق كلانا منه ذو قلب مروع
فما افترت شفاه عن ثغور بل افترت جفون عن دموع

ومما جمع بين براعة التصوير، ومتانة التعبير، قول المتنبي:

لما تقطعت الحمول تقطعت نفسي أسى وكأنهن طلوح
وجلا الوداع من الحبيب محاسنا حسن العزاء وقد جلبن قبيح
فيه مسلمة، وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح
يجد الحمام ولو كوجدني لانبرى شجر الأراك مع الحمام ينوح

وقال مهيار في الاعتذار عما للمودع من الزفرات والعبرات:

دعوني فلي إن زمت العيس وقفة أعلم فيها الصخر كيف يلين
وخلوا دموعي أن يقال نعم بكى وزفرة صدري أو يقال حزين
فلولا غليل الشوق أو دمة النوى لما خلقت لي أضلع وجفون

وهي مدافعة حسنة تذكرنا بقول صردر:

إذا لم أفز منكم بوعد فنظرة إليكم فما نفعي بسمعي وناظري
وقال السري الرفاء في ذلك مظاهر الوداع: من اللوعة، والحنين، وتحديد
الخد بالدمع، مع ذهاب العزاء:

وقفنا النوى على الكره منا موقفا ضم شائقا ومشوقا
حال ورد الحدود فأضحى النرجس الغضض بالدموع غريقا
لوعة أفرطت فعادت حريقا وحنين أربى فعاد شهيقا
وخليق بلوعة الحب صب لم يكن بالعزاء فيه خليقا

ومن شجي الشعر في ذلك قول الشريف الرضي:

ولما تواقفنا ذهلت ولم يحن لطير قلوب العاشقين وقوع
عشية لي من رقة الحي زاجر عن الدمع إلا أن تشذ دموع
وقد أمرت عيناك عيني بالبكا فقل لي أي الأمرين أطيع

ولهذا الشعر مزية خاصة: وهي ترتيب المعاني ترتيبا لولا حيرة المودع لكان
غاية في الوضوح. ولا يفوتنا أن نذكر هنا قول ابن زريق:

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه

ومن الشعراء من يفرح بالوداع، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها العين
إلا عند الرحيل. فمن ذلك قول البحري:

إن البين نعمة لا تؤدى ويداً في تماض بيضاء
حجبوها حتى بدت لفراق كأن داءً لعاشق ودواء
أضحك البين يوم ذاك وأبكى كل ذي صبوة وسر وساء
فجعلنا الوداع فيه سلاماً وجعلنا الفراق فيه لقاء

وفي هذا المعنى يقول بعض الظرفاء:

لم أنس إذ ودعته والتقى ذا البدن الناعم والناحل
كأنما جسمي على جسمه غصنان ذا غرض وذا ذابل
يارب ما أطيب ضمي له إلي لولا أنه راحل!

وقد ألم الشريف بهذا المعنى في هذه الأبيات:

أفي كل يوم لفتة ثم عبرة على رسم دار أو مطي موقف
وركب على الأكوار يثني رقابهم لداعي الصبا عهد قديم ومألف
فمن واجد قد ألزم القلب كفه ومن طرب يعلو اليفاع ويشرف
ومستعبر قد أتبع الدمع زفرة تكاد لها عوج الضلوع تثقف
قضى ما قضى من أنه الشوق وانثنى بدار الجوى والقلب يهفو ويرجف
ولم تغن حتى زایل البعد بيننا وحتى رمانا الأزلم المتغطف (١)
كأن الليالي كن ألين حلفة بالأ يري فيهن شمل مؤلف
أيا وقفة التوديع هل فيك راجع إشارته ذاك البنان المطرف
وهل مطعمي ذاك الغزال بلفتة وإن ثور الركب العجال وأوجفوا (٢)

(١) لم نغن: لم نقم. والأزلم المتغطف هو الدهر.

(٢) أرجفوا: أسرعوا.

وهذه الأبيات وصف سابغ للمرور بمنازل الأحباب، ولكن فيها تصويرا
لانتهاج الحسن عند الوداع، وإمتاع العين باللفتة وإشارة البنان، وليست هذه
المتعة بالشيء القليل!

* * *

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع، واليوم نذكر من شعرهم في الدمع بعد الفراق. فمن ذلك قول دعبل في راحلين ما يدري أيلقاهم وهو حي، أم ينتظرهم في عالم البقاء:

ألم يأن للسفر الذين تحملوا إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق غبرة نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالي صرفهن كما ترى لكل أناس جدبة وريبع

ويذكر صاحب «مواسم الأدب» إن المأمون كان يعجب بهذه الأبيات، وكذلك كان المؤلفون «يسجلون» إعجاب الملوك بما يقول الشعراء، كأن الشعر «نقود» لا يتداولها الناس إلا إن حملت شارات الملوك!! على أن من العدل أن نذكر بهذه المناسبة أن إقبال المأمون على الشعر الجيد، وتشجيعه للشعراء المجيدين، كان مما رفع الأدب ونهض بالأدباء. وهناك ظاهرة أخرى لإعجاب المأمون بهذه القطعة الوجدانية: هي إقبال كرائم النفوس على مناهل الوفاء، وإن أسبغت عليها نعمة العلم والجاه!! ولنا أن نقول: إن في عجز العلم والملك عن قتل الحب في صدور الملك والعلماء لدليلا على أن نعم الوجود تتلاشى أمام هذه النعمة الساحرة القاهرة: نعمة الجمال!! وفي الفزع من الموت قبل اللقاء، يقول الطغرائي:

إني لأذكركم وقد بلغ الظما مني فأشرق بالزلال البارد
وأقول لیت أحبتي عايتهم قبل الممات ولو بيوم واحد

وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر باك حزين كقوله:

الدمع مذ بعد الخليط قريب
إن لم تكن كبدي غداة وداعكم
دأء طلبت له الأساة فلم يكن
أما أقمت فإن دمعني غالب
والشوق يدعو والزفير يجيب
ذابت فأعلم أنها ستذوب
إلا التعلل بالدموع طيب
لعواذلي وتجلدي مغلوب

ومن الشعراء من ينفد دمعته، فيوصي بالبكاء عنه، كما قال الشريف:

أيها الرائح المغذ تحمل
أقر عني السلام أهل المصلى
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد
وإذا ما سئلت عني فقل
ضاع قلبي فأنشده لي بين جمع
وابك عني فطالما كنت من
حاجة للمتيمم المشتاق
فبلاغ السلام بعض التلاقي
أن قلبي إليه بالأشواق
نضوه هو ما أظنه اليوم باق
ومني عند بعض تلك الحداق
قبل أعير الدموع للعشاق

وتذكرنا هذه الأبيات بقول عبد الرحمن الداخل:

أيها الراكب الميمم أرضي
إن جسمي كما علمت بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
قد قضى الله بيننا بافتراق
أقر من بعضي السلام لبعضي
وفؤادي ومالكيه بأرض
وطوى البين عن جفوني غمضي
فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومن الشعراء من يبكي في القرب والبعد، كما قال بعض الظرفاء:

وما في الأرض أشقى من محب
تراه باكيًا في كل حال
فبيكي إن نأوا شوقًا إليهم
فتسخن عينه عند التنائي
وإن وجد الهوى حلو المذاق
مخافة فرقة أو لاشتياق
وبيكي إن دنوا خوف الفراق
وتسخن عينه عند التلاقي

وليس لنا إلا أن نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الأخطل لعبد الملك بن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر: وأولها مر، وآخرها سكر؟ فقال صدقت يا أمير المؤمنين! ولكن بين السكر والمرارة لحظة دونها ملكك الطويل العريض!

وبين دموع التلاق، ودموع الفراق، لحظة دونها حياة الأبرار في جنات النعيم!! ومن الشعراء من يتوجع على عهده قبل الفراق. كقول الشريف:

هل عهدنا بعد التفرق راجع أو غصننا بعد التسلب مورك
شوق أقام وأنت غير مقيمة والشوق بالكلف المعني أعلق
ما كنت أحظى في الدنو فكيف بي واليوم نحن مغرب ومشوق
وفي البيت الأخير حسرة تذيب لفائف القلوب.

وقد أجاد الأرجاني في وصف اليأس بعد الفراق، حين قال:

رحلوا: أمام الركب نشر عبيرهم ووراءهم نفس المشوق الصادي
فكأن هذا من وراء ركابهم حاد لها وكأن ذلك هادي
لله موقف ساعة يوم النوى بمنى وأقمار الحدوج بواد
لما تبعت وللمشيع غاية أظعانهم وقد امتلكن قيادي
أتبعتهم عيني وقلبي واقفا فوق الثنية والمطي غواد
كيف السبيل إلى التلاقي بعدما ضرب الغيور عليه بالأسداد
والحي قد ركزوا الرماح بمنزل فيه الطباء ربائب الأساد
وعد المنى بهم فقلت لصاحبي كم دون ذلك من عدى وعواد
عهدي بهم وهم بوجرة جبيرة سقيت عهدهم بصوب عهد
فالיום من نفس النسيم إذا سرى نبغي شفاء علائل الأكباد

ومن العشاق من يقف بالديار فيبكي لما صنعت بها أيدي الفراق حين
نفرت عنها الأطباء، كسبط ابن أسابذي حين يقول:

يا موقفاً بالبان لم تثمر لنا	غير الصبابة والأسى شجراته
هل نفرت لا نفرت غزلانه	أو صوحت لا صوحت باناته
عهدي به يلوي الديون قضاته	وتصيد ألباب الرجال مهاته
فالיום لا جيرانه جيرانه	قدما ولا فتياته فتياته
يا حادي الأظعان في آثاركم	قلب تقطعه جوى حسراته
ولقد يرى ثبت الحصاة فما له	أمست تذوب على البعاد حصاته (١)

* * *

(١) الحصاة: القلب.

شكوى الصباية

نظرت ما قال الشعراء في الشكوى فإذا هم مختلفون: فمنهم من يشكو إلى من يعلم السر والنجوى، ومن يقدر على تصريف الخواطر، وتقليب القلوب.

ألا نلداود الحديد بقدرة عليك على تيسير قلبك قادر

وهؤلاء أصدق الناس حبا وأحسنهم إيمانا. وسيدهم أبو صخر الهزلي حين يقول:

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم

فإنه جعل الهوى قدرا، وجعل الأمر في تيسير قلب من يهوى وتذليله للذي خلق الحب، وأودع الذل فيه. ولم أجد في هذا المعنى أوجع من قول قيس ابن زريح:

إلى الله أشكو فقد بُنى كما شكا إلى الله بعد الوالدين يتم
يتيم جفاه الأقربون فدمعه غزير وعهد الوالدين قديم

وإذا كان محالا أن يجد المرء بعد أبويه من يعوله، ويحذب عليه، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديرا أن يفوز به لو عاش أبواه، فكذلك لا يجد قيس من بين الناس من تبره برُّ بُنى. وهذا وجه الحسن في هذين البيتين، اللذين يفيضان نارا وحرقة. وقال ابن المعتز:

إلى الله أشكو الشوق لا إن لقيتها يقل ولا إن بنت يخلقه الدهر
مقيم على الأحشاء قد قطعت به فساعته يوم وليته دهر

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه، وخلود وجده.
وإنما يشكو المحب قسوة الهجر، ومرارة الصدود: وقال معين الدين الخطيب
في الشكوى من لوعته وحسن محبوبه:

أشكو إلى الله من نارين واحدة في وجتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامين سقم قد أحل دمي من الجفون وسقم حل في جسدي

وهذا شعر منتقد. فإنه إذا صح أن يشكو المحب إلى الله سقمه ووجده،
أملأ في الراحة من بلاء الحب، فما الذي يريده بشكوى السقم في جفن محبوبه
والنار في خديه؟ وقد أجاد أو قارب في قوله:

ومن نمومين دمعي حين أذكره يذيع سري وواش منه للرصد
ومن ضعيفين صبري حين يهجرني ووده ويراه الناس طوع يدي

فإنه لا بأس من شكوى الواشي والود الضعيف!

ومن المحبين من يشكو إلى المعاهد والرسوم. وهو نوع من الوله، وصنف
من الصبابة. تقربه عين المحب. وتطيب به نفس المشوق. كقول ابن المعتز:

أيا سدره الوادي على المشرع العذب سقاك حيا حي الثرى ميت الجذب
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكي الهوى إليك وإن طال الطريق على صحبي
أصانع أطراف الدموع ومقلتي موقرة بالدمع غربا على غرب
وهل هي إلا حاجة قضيت لنا ولوم تحملناه في طاعة الحب
تبدلت شيئا بالشباب فإن تطر شياطين لذاقي يقعن على قرب

ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق. وهو أصل هذا الباب. ومنه هذا
البيت السائر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ويعجبني في هذا المعنى قول البهاء زهير:

أين من يرحمني أشكوله إنما الشكوى إلى من يرحم
أنا من قلبي ومنها آيس لم يكن من مقلتيها يسلم
أيها السائل عن وجدي بها إنه أعظم مما تزعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى أنت يا رب بحالي أعلم
طال ما ألقاه من نار الجوى وحديثي لك يا من يفهم
عشق الناس ومثلي لم يكن فاعلموا أني فيهم علم
سطرت قبلي أحاديث الهوى وبمسك من حديثي تختم

وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق، وخفة الروح. ولعلك لا تجد
أظرف من قوله:

أين من يرحمني أشكوله إنما الشكوى إلى من يرحم
فإنه خير ما قيل في معناه... ومن المغرمين من يشكو إلى حبيبه وهو أوجب
لرحمته، وأدعى إلى إنصافه. ومنه قول الطغرائي:

لعمرك ما يرجى شفائي والهوى له بين جسمي والعظام ديب
أجلك أن أشكو إليك وأنطوي على كمدي أن الهى لعجيب
وآمل برءا من هوى خامر الحشا وكيف بداء لا يراه طبيب
نصيبك من قلبي كما قد عهدته وما لي بحمد الله منك نصيب
وما أدعي إلا اكتفاءً بنظرة إليك ودعوى العاشقين ضروب
وما بحث بالسر الذي كان بيننا ولكنها لحظ المحب مريب

وقوله «نصيبك من قلبي كما قد عهدته» مأخوذ من قول ابن الأحنف:

إليك أشكوب ما حل بي من صد هذا التائه المعجب
صب بعصيانى ولو قال لي لا تشرب البارء لم أشرب

إن قال لم يفعل وإن سئل لم يبذل وإن عوتب لم يعتب

وقوله «وما أدعى إلا اكتفاء بنظرة» مأخوذ من قول الشريف:

عشقت وما بي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب

ومما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه - في الشكوى إلى المحبوب - قول بعض الأعراب:

شكوت فقلت كل هذا تبرما
فلم كتمت الحب قلت لشد ما
وأذنوا فتقصيني فأبعد طالبا
فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها
بجبي أراح الله قلبك من جبي
صبرت وما هذا بفعل شجي القلب
رضاها فتعتد التباعد من ذنبي
وتجزع من بعدي وتنفر من قربي
أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

وهذا شعر الطبع والسليقة، والموفقون إلى مثله قليل.

وقد أجاد في هذا المعنى من شعراء العصر حافظ بك إبراهيم حين قال:

كم تحت أذيال الظلام متيم
ما أنت في دنيائك أول عاشق
أهرمتني يا ليل في شرخ الصبا
لا أنت تقصر لي ولا أنا مقصر
لله موقفنا وقد ناجيتها
قلت من الشاكي تسائل سربها
فأجنبها وعجبين كيف تجاهلت
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له
أسلمت نفسي للهوى وأظنها
وأيت يحدوني الرجاء ومن أتى
دامي الفؤاد وليله لا يعلم
راميه لا يحنو ولا يترحم
كم فيك ساعات تشيب وتهرم
أتعبتني وتعبت، هل من يحكم
بعظيم ما يخفي الفؤاد ويكتم
عني ومن هذا الذي يتظلم
هو ذلك المتوجع المتألم
لولا عيونك حجة لا تفحم
مما يحشمها الهوى لا تسلم
متحرما بفنائكم لا يحرم

تلك العيون وما جناه المعصم
 يبقى عليه ولا الصباة ترحم
 متمللا من هول ما يتجشم
 وجلا يؤخر رجله ويقدم
 جزعا ويقدم بعد ذاك ويحجم
 للقتل فوق فراشه يتقدم
 وانساب فيه بكل ركن أرقم
 وإد قد اطلعت عليه جهنم
 من ناظريك وما كتمتك أعظم
 حتام تنجد في الغرام وتتهم
 وأطال فيك وفي هواك اللوم
 في هجرها وجنت علي وأجرموا
 أني تلفت تندمت وتندموا
 مني تشيع راحلا لو تعلم

أشكو لذات الخال ما صنعت بنا
 لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى
 لو تنظرين إليه في جوف الدجى
 يمشي إلى كنف الفراش محاذرا
 يرمي الفراش بناظريه وينثني
 فكأنه واليأس ينسف نفسه
 رشقت به في كل جنب مدية
 فكأنه في هولاه وسعيره
 هذا وحقك بعض ما كابدته
 قالت أهذا أنت ويحك فأتد
 إنا سمعنا عنك ما قد رابنا
 أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت
 حتى إذا يؤس الطبيب وجاءها
 وأنت تعود مريضها لا بل أتت

وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة، تمثل العاشق، وقد طال عليه الليل،
 وهجر جفنيه المنام. وهي غاية في حسن القصص، وسحر البيان.

ولنذكر الشكوى إلى ساقى الراح في قول ابن المعتز:

قد دعوناك وإن لم تسمع
 وبشرب الراح من راحته
 جذب الزق إليه واتكا
 وساقاني أربعاً في أربع
 أنكرت بعدك ضوء القمر
 عشيت عيناى من طول البكا

أيها الساقى إليك المشتكى
 ونديم هممت في غرته
 كلما استيقظ من سكرته
 وساقاني أربعاً في أربع
 ما لعيني عشيت بالنظر
 وإذا ما شئت فاسمع خبري

وبكى بعـضي عـلى بعـضي معـي
 غصن بانٍ مالٍ من حيث التوى مات من يهواه من فرط الجوى
 خفق الأحشاء موهون القوى كلما فكر في البين بكى
 ويحسه ييكـي لـم يـقـمـع!
 ليس لي صبر ولا لي جلد يا لقومي عذلو واجتهدوا
 أنكروا شكواي مما أجد مثل حالي حقه أن يشتكا
 كم يد اليـأس وذل الطمـع
 كبد حرى ودمع يكف أصرف الدمع فلا ينصرف
 أيها المعرض عما أصف قد نما جبي بقلبي وزكا
 لا تقـل في الحـب أني مـدعي

وفي هذه الموشحة شكوى أليمة. تهتم بمثلها النفس الشجية، من حين إلى حين؟

وتعجبني شكوى ابن الرومي في قوله:

ظبي يصيد ولا يصاد محاذر نبل الهوى وحبائل الإيناس
 غرُّ شמוש إن أحس بريية أعجب بجامع غرة وشماس
 يسبي القلوب بمقلة مكحولة بفتور غنج لا فتور نعاس
 يا للرجال ألا معين لأيد صب الفؤاد على ضعيف قاس^(١)
 أضيمني خنث الشائل لونضا عنه غلالته حساه الحاسي؟
 ومن العجائب أن تحل ظلامه بفتى أناس من فتاة أناس

(١) أيد: قوي. من الأند بسكون الياء وهو القوة.

ومن المعذبين من يبث شكواه من دهره وإخوانه إلى صديق أقصته في بره
الليالي. ومن شعراء العصر من قارب الإجادة في هذا المعنى، كصاحب البدائع
حين يقول^(١):

أنت الذي علمتني	يا سيدي بر الصديق
وتركتني في فتية	ما فيهم بر رفيق
لم ألق بعدك منهم	إلا الجفاء أو العقوق
حتى كأي لم أبت	منهم على عهد وثيق
وكلأنهم لم يصرروا	في خلتي الحر الصدوق
فنسوا هواي ولم يفق	من ودهم قلبي المشوق
ونسوا طريف حديثنا	عند الصبوح أو الغبوق
ليت الهوى ما قادني	يوماً إلى ذاك الطريق
أو ليتني لم أنخدع	جهلاً بهاتي كالبروق
بل ليتني بعد الذي	عانيت من صبحي أفيق

* * *

مولاي لو أبصرني	لفزعت من دمعي الطليق
وشجأك جسمي ناحلا	وكانه الطيف الطروق
أشكو إليك وإنما	يشكو المضمي إلى الشفيق
فأرحم فديتك مهجة	أودى بها الحزن العميق
حزن يقطع في الحشا	فكانه غدر الصديق

* * *

يا ويح قلبي لم يزل	يهفوبه الروح الخفوق
--------------------	---------------------

(١) أرسلت هذه القصيدة الصديق العزيز محمد محمود حسين.

وتقوده الـذكرى إلى
أيام نـمـرح في الصبا
أيام نـسـقي في الهوى
تلك الليالي لم تدع
كـلا ولا خلـت لنا
عهد الهوى الغض الرقيق
في ذلك العيش الأنيق
والود كأسا من رحيق
من بعدها حسنا يروق
إلا الـزفير أو الـشهيق

* * *

عند منازل الأحباب

كان أبو نواس يكره الشعر في بكاء الرسوم والأطلال، وأدباء هذا العصر يعدون هذه النزعة توديعاً للقديم وترحيباً بالجديد، وهذا حق إذا لوحظ أن الشعراء كانوا يبدءون قصائدهم ببكاء الديار، وإن لم يكونوا بنار الفراق من المحرقين! ولكن من العبث في تحليل العواطف أن نجعل ما يجده المحبون عند المرور بديار أحبابهم المبعدين، ومن الغبن للآداب العربية أن تغفل ما قيل في منازل الأحباب من الشعر الباكي الحزين؟ وها نحن أولاء نبسط القول عن هذه الوقفة الأليمة، وقفة المحب على ديار خلت غرفها من الظباء الغرائر، وعفت سررها من النساء الحرائر، بعد أن كان ساكنوها أمل الآمل، وأمنية المتمني!! فمن ذلك قول بعض الأعراب وقد وقف (بالحزن) بفتح الحاء - وكان ملعب شبابه، وامتدى هواه، وصورة أيامه الخوالي:

ومستنجد (بالحزن) دمعاً كأنه
إذا ديمة منه استقلت تهللت
ملاً مقلتيه الدمع حتى كأنه
وينظر من بين الدموع بمقلة
وفي هذا المعنى يقول ابن الملوح:

نظرت كأني من وراء زجاجة
فعيناي طورا تغرقان من البكا
إلى الدار من ماء الصبابة أنظر
فأعشى وطورا يحسران فأبصر

ومما يغري القلب بالحزن، والعين بالدمع، قول البحري:

وقفنا فحينئذ لأهلك باللوى
ربوع ديار دارسات المعالم

ذكرنا الهوى العذري فيها فأنسيت عزاهها مشوقات القلوب الهوائم
 خلعنا بها عذر الدموع فأقبلت تلوم وتلحي كل لاح ولائم
 لقد حكم البين المشتت بالبللى عليك وصرف الدهر أجور حاكم
 لعل الليالي يكتسبن بشاشة فيجمعن من شمل الهوى المتقادم

ونود لو تأمل القارئ ما في هذه الأبيات من الترتيب والتنسيق: فقد وقف الشاعر بالديار، ثم حياها وهو يتنقل بروحه بين الشقاء الحاضر والنعيم الماضي، ثم اشتعل الحزن في قلبه اشتعالا، فنسي جمال الصبر وحسن العزاء، فاندفع يبكي وينتحب، ثم أغرب في البكاء والنحيب، حتى خشع عاذلوه، وخضع لائمه!! ثم توجع للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالي!! ثم تمنى لو ضحك الزمن بعد العبوس، فاجتمع الشمل بعد الفراق!! وقال أبو فراس:

علي لربع العامرية وقفلة ليملي علي الشوق والدمع كاتب
 فلا وأبي العشاق ما أنا عاشق إذا هي لم تلعب بصبري الملاعب
 ومن مذهبي حب الديار وأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب

ولا يفهم أحد كيف يكون حب الديار وأهلها مذهبا لأبي فراس، مع أن أبياته هذه ليست شيئا في جانب ما قيل في منازل الأحباب، ويكفي أن نذكر قول نبهان العبسي في البئر الذي كانت تشرب منه حبيبته سليمي:

سأسري إلى الماء الذي شربت به سليمي وإن مل السري كل واحد
 وألصق أحشائي ببرد ترابه وإن كان مخلوطا بسم الأسود

ويذكرني هذا بقول بعض الأعراب في (الوشل) وهو ماء كان يطالع عنه وجوه الكواعب:

أقرأ على الوسائل السلام وقل له كل المشارب مذهب جرت دميم
سقيًا لطلبك بالعشي وبالضحى ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق ما في قلاتك ما حييت لئيم^(١)

وللشريف الرضي في بكاء الديار بدائع، فمن ذلك قوله:

تزافر صبحي يوم ذي الأثل زفرة تذوب قلوب من لظاها وأضلع
منازل لم تسلم عليهن مقلّة ولا جف بعد البين فيهن مدمع
فدمع على بالي الديار مفرق وقلب على أهل الديار موزع
ألا ليت شعري كل دار مشته ألا موطن يدنو بشمل ويجمع

ومن جيد شعره في هذا المعنى قوله من كلمة ثانية:

وقفت على تلك الديار ووحشها دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف قليلا ولجا بعد في الهملان

وهذا آخر ما يقال في رسوم الديار، فحسب إطلاها من البلى، ورسومها من العفاء، أن تنكرها العينان، ولا يعرفها القلب إلا قليلا!! والأدباء ينكرون أن يتردد القلب في معرفة دار كانت بالأمس جنة ونعيمًا، ويعجبون بقول طريح ابن إسماعيل الثقفي:

تستخير الدمن القفار ولم تكن لترد أخبارا على مستخير
فظلللت تحكم بين قلب عارف مغني أحبته وطرف منكر

ومن الشعراء من يرى الديار الخالية، وكأنها بأهلها مأهولة، كأبي نواس حين يقول:

لمن دمنٌ تزداد طيب نسيم على طول ما أقوت وحسن رسوم

(١) القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون في الصخرة.

تجافى البلى عنهن حتى كأنها
وكقول الأخطل:

لأسماء محتل بناظرة البشر
يكاد من العرفان يضحك رسمه
وكقول ابن أحر العقيلي:

تراها على طول القواء جديدة
وعهد المغاني بالحلل قديم
والمعروف في هذا المعنى أن الديار تجد مثل ما يجد المقيم المحزون، كقول
محمد بن وهب:

طلان طال عليهما الأمد
لبسا البلى فكأنما وجدا
وكقول مالك ابن أسماء الفزاري:

بيناهم سكن لجارهم
فظللت ذا ولـه يعاتبني
بكت الديار لفقد ساكنها
ذكروا الفراق فأصبحوا سفرا
من لا يرى مثلي له أمرا
أفعد قلبي أبتغي الصبرا

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي:

ولما وقفنا بالديار وعندنا
شكونا إليها ما لقينا من الضنى
وقد درست إلا أماره ذاكر
خليلي قد عم الأسى وتقاسمت
فلا دار إلا دمنة ورسومها
لعمر الليالي ما حمت قديمها
مدامع نسديها لكم ونثيرها
فعرنا كيف السقام دثورها
تلوح له بعد التهادي سطورها
فنون البلى عشاق ليلي ودورها
ولا نفس إلا لوعة وزفيرها
فيوحشني ذهابها ومروورها

وقالوا عطاء الدهر يبلى جديده ومن لي بدنيا لا يزول سرورها

ونود لو تأمل القارئ إبداع ابن سنان في هذين البيتين:

خليلي قد عم الأسى وتقاسمت فنون البلى عشاق ليلي ودورها
فلا دار إلا دمنمة ورسومها ولا نفس إلا لوعة وزفيرها

وحسب العاشق من موجب الأسى، وداعي الحزن، أن يرى منازل أحبابه
هامدات، باليات!

تعفوا المنازل إن نأوا عنها وتغبر البلاد
والحبي أولى بالبللى شوقا إذا بلى الجهاد

وهل تأملت كيف شكا إلى الديار ما لقي من الضنى، وكيف عرف ما به
من السقم لما تبين دثورها، وتعرف عفاءها! ويا ليت شعري هل شكت إليه ما
تجد إليه من بعد سكانها، وبين ملاكها؟ أما والهوى إنها لتشكو في صمتها
الرهيب: إذ كانت تحزن بغير قلب، وتبكي بغير دمع!!

كفى حزنا للهائم الصب أن يرى منازل من يهوى معطلة فقرا

ومما يقرب من فلسفة الشعر، وفقه الأدب، في بكاء الرسوم الهوامد،
والأطلال الدوارس، مع الإفصاح عن الأسى والبث، والشجى والحزن، قول
ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سكانها ما لقي المحب بعدهم من الضنى
والنحول:

وقفت أداري الوجد خوف مدامع تبيح من السر الممنع ما أحمي
أغالب بالشك اليقين صباة وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم

وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس، ومغالبة الوجد: فقد عرف الديار
بقلبهن لما ضمننت منه الضلوع لأهلها النازحين، وأنكرها بطرفه، لما لقيت من

الدثور والعفاء، فهو يريد أن يعتصم بالشك، لينجو من قسوة اليقين، ولكنه غلب على أمره فقال:

فلما أبى إلا البكاء لي الأسى بكيته فما أبقيت للرسم من رسم
كأنني بأجزاء النقيبة مسلم إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جرم

يرحمه الله! فهل رأى ثائراً أظلم من الوجد، وحاكماً أجور من الصبابة! ثم أخذ يقارن بين بليته وبلية الديار، فقال:

لقد وجدت وجدي الديار بأهلها ولو لم تجد وجدي لما سقمت سقمي
عليهن وسم للفراق وإنما علي له ما ليس للنار من وسم

وهذا من الإبداع في وصف الديار الخالية، وهل تجد المنزل بعد أهله إلا باكية حزينا، أوليست وحشة المنزل الخالي ذلة بادية يطالع بها الرائح والغادي، عساه يعرف شيئا عن سكانه الراحلين، وملاكه الغائبين، إن السكان للمنازل كالأرواح للأجسام، فإذا ارتحلوا آن حمامها، وحان دثورها، وحل دمارها! وقد رأى الشاعر بعد ذلك أن البين جائر في قسم الضنى بينه وبين المنزل الخالي، فقال:

وكم قسم البين الضنى بين منزل وبينني ولكن الهوى جائر القسم
منازل أدارس شجاني نحوها فهلا شجاها ناكل القلب والحسم

وهذه استغاثة بالطلل البالي، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين!

وكان ابن الخياط من أغزر الناس دمعا عند مغاني الأحباب، فمن ذلك قوله:

يا عمرو ما وقعة في رسم منزلة أثار شوقك فيها محو آثار
أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به وما اعترافك إلا دمعك الجاري

لو كنت ناسي عهد من تقادمه نسيت فيها لباناتي وأوطاري
أيام يفتك فيها غير مرتقب ظبي الكناس بليث الغابة الضاري
لا أرسل اللحظ إلا كان موقعه على شמוש منيرات وأقمار
ما أطيب العيش لو أني وفدت به على زمان ودهر غير غدار

وهذا شعر يخالط النفس، ويلابس الفؤاد، ومثله في اللوعة قوله من كلمة

ثانية:

أجذك ما تنفك بالغور ناشدا فؤادا بنجد؟ يا لقلبك من نجد!
وإني لتصميني سهام ادكاركم وإن كان رامي الشوق مني على بعد
تمادى غرام ليس يجري إلى مدى وفرط سقام لا يقيم على حد
وما أنس لا أنس الحمى وأهله تضل ومن حق الأهله أن تهدي
زمانا إخال الجهل فيه من النهى وحبا أعد الغي فيه من الرشد
غنين وما نولن تيلا سوى الجوى وبين وما زودن زادا سوى الوجد
خليلي ما أحلى الحياة لو أنها لطاعمها لم تخلط الصاب بالشهد
لقد حالت الأيام عن حال عهدها ومن لي بأيام تدوم على العهد

ومن بديع الشعر في بكاء الديار قوله من كلمة طويلة:

وبالجزع حي كلما عن ذكرهم أمات الهوى مني فؤادي وأحياء
تمنيتهم بالرقمتين ودارهم بوادي الغضا يا بعد ما أتمناه
سقى الوابل الربعي حائل ربهم وراوحه ما شاء روح وغاداه
وجر عليه ذيله كل خاطر إذا مشى في عاطل الترب حلاه
وما كنت لولا أن دمعي من دم لأحمل منّا للسحاب بسقياه

ومن المعاني المولدة في الدمع عند الرسوم قول الأرجاني:

وقفت بأطلال الديار مسلما وعهدي وملء الوادين قباب

فأبرق عذالي ملاما وارعدوا وأمطرت أجفاني فتم سحاب
به غنيت أرض الحمى عن مصبح يقول سقى دار الرباب رباب
وهو خيال يبدو كأنه طريف، ولكنه من الأخيلة الجوفاء! وفي هذا المعنى
يقول ابن التعاويذي:

سقى دار الحبيب وإن تناءت ولا برحت تسحب للغوادي
فجفني والغمام لها غدير وعنفني على العبرات صحي
وقالوا استبق للأحباب دمعا معاذ الحب أن ألقى همولا
وعار أن تزم ليوم بين وعلث مثل أجفاني هطول
وطورا للصبا فيها ذبول وقلبي والنسيم بها عليل
عشية قوض الحي الحلول فقد شرقت بأدمعك الطلول
وقد سارت بمن أهوى الجمود وجاهم ولي صبر جميل

ومن الشعراء من يجعل الحنين إلى الوطن كناية عن الحنين إلى ليالي الشباب
التي قضاهها بمرأى من كواكبه السواطع، ونجومه اللوامع. وقد نوه بذلك
صاحب زهر الآداب فذكر أن ابن الرومي جاء إلى علي بن عبد الكريم النصيبي
وأنشده هذه القطعة البديعة:

ولي وطن آليت أن لا أبيعـه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعا بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاهها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم عهد الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفتـه النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

ثم قال: انصفني وقل الحق. أيها أحسن؟ قل في الوطن أم قول الأعرابي:
أحب بلاد الله ما بين منعج إلي وسلمي لا يصوب سحابها

بلاد بها نيطت علي تئامي وأول أرض مس جسمي تراها
فقال له: بل قولك أحسن، لأنه ذكر الوطن ومحبه. وأنت ذكرت العلة
التي أوجبت ذلك !! وقد يشعر القارئ بالحاجة إلى معرفة المخاطب في قول
ابن الرومي:

عمرت به شرح الشباب منعماً بصحبة قوم أصبحوا في ظلالها
و خلاصة الحديث أن القطعة التي نقلناها من شعر ابن الرومي عن الوطن
هي جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل
من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها، فمما فيها من
التحريض قوله:

وإني وإن أضحي مدلاً بهاله لآمل أن أضحي مدلاً بهالكا
فإن لم تصبني من يمينك نعمة فلا تخطئنه نقمة من شمالكا
فكم لقي العافون بدءاً وعودة نوالك والعادون غمر نكالكا

وقال ابن الرومي من كلمة أخرى يتشوق إلى بغداد:

بلد صحبت به الشبية والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيتـه وعليه أغصان الشباب تـيد
والأدباء يرون أن مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن، ولا بكاء على
اللهو، ولكنه بكاء على الشباب، ويذكرون قول ابن الرومي من كلمة ثانية:

لا تلح من يبكي شبيبته إلا إذا الما يبكها بدم
عيب الشبية غول سكرتها ومدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها إلا أوان الشيب والهـرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الأرض بالظلم



ولرب شيء لا يسر به وجدانه إلا مع العدم
والذين يؤولون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرون أنه تبع في وصف
الوطن بشار بن برد حين يقول:

متى تعرف الدار التي بان أهلها بسعدى فإن العهد منك قريب
تذكرك الأهواء إذ أنت يافع لديها فمغناها إليك حبيب
ولعلنا لا نبالغ إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاء لما انقطع
بعده من دواعي الطيش، وموجبات الجنون، فبعض العقل رزء، وبعض الوقار
بلاء، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

ولقد سافر العباس بن الأحنف مع هارون الرشيد إلى خراسان فاستدعاه
ليلة لينشده شيئاً من الشعر، فأنشده هذه الأبيات:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط سكان دجلة من سكان جيحانا
فقال له: لقد اشتقت يا عباس! فأجابه، نعم يا أمير المؤمنين! فأذن له
بالرجوع... وقال ابن ميادة مخاطب الوليد بن يزيد:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بحرة ليلي حيث ربني أهلي
بلاد بها نيطت علي تمائي وقطعن عني حين أدركني عقلي
فإن كنت عن تلك المواطن مانعي فاقتري علي الرزق واجمع بها شملي

وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان! وما أدري أكان شوق
ابن ميادة إلى بلاده رفقا بالأهل والعشيرة، أم كان برا بمن فيها من فانات
الحدود، وساحرات العيون، وقاسيات القلوب؟ لا يعلم ذلك إلا الذي يقول:

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحب إلى قلبي وعيني من أهلي

وقال مالك ابن الرب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل:

سقى الله اليمامة من بلاد نوافجها كأراح الغواني^(١)
وجو أزاهر للريح فيه نسيم لا يروع الترب واني
به سقت الشباب إلى مشيب يقبح عندنا حسن الزمان

وقال بعض الأعراب في توديع نجد، وما لقي بها من نضارة العيش،

وطيب الحياة:

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فلما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ورياروضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحيّ نجداً وأنت على زمانك غير زار^(٢)
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

وهذا حنين يذل له عصيُّ الدمع. ويشبهه قول ابن المعتز في دار كانت

ملعب صباه:

لا مثل منزلة الدويرة منزل يا دار جادك وابل وسقاك
بؤس الدهر غيرتك صروفه لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحل للعنين بعدك منظر ذم المنازل كلهن سواك
أي المعاهد منك أنذب طيبه ممسك بالآصال أم مغداك
أم برد ظلك ذي الغصون وذو الجنى أم أرضك الميثاء أم ريك

(١) النوافج بالجيم نافجة وهي الريح تبدأ بشدة.

(٢) غير زار: غير عاتب.

وكانما سعطت مجامر عنبر وأوفت فار المسك فوق ثراك
 وكانما حصباء أرضك جوهر وكان ماء الورد دمع نذاك
 وكانما أيدي الربيع ضحية نشرت ثياب الوشى فوق رباك
 وكان درعا مفرغا من فضة ماء الغدير جرت عليه صباك

ومما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف. وقد كان الشعراء يتخذون الأديار موطنًا لعبث الصبا ولعب الشباب، ولكثير منهم حنين موجه إلى سكانها من ظرفاء الرهبان، وربما عدنا إلى بسط ذلك في غير هذا الحديث ونكتفي الآن بنفثات العشاق في التغني بمنازل الشراب. فمن ذلك قول محمد بن عاصم المصري في دير القصير، وقد كان ملعبًا للشعراء المصريين.

إن دير القصير هاج أذكاري لهو أيامنا الحسان القصار
 وزمانا مضى حميدا سريعا وشبابا مثل الرداء المعار
 ولو أن الديار تشكو اشتياقا لشكت جفوتي وبعد مزار
 ولكادت تسير نحوي لما قد كنت فيها سيرت من أشعاري
 وكأنني إذ زرت به بعد هجر لم يكن من منازل ودياري
 إذ صعدني على الجياد إليه وانحداري في المعتقات الجواري
 بصقور إلى الدماء صواد وكلاب على الوحوش ضواري
 منزلا لست محصيا ما لقلبي ولنفسي فيه من الأوطار
 كم شربنا على التصاوير فيه بصغار محبوبة وكبار
 صورة في مصور فيه ظلت فتنة للقلوب والأبصار
 أطربتنا بغير شدة فأغنت عن سماع العيدان والمزمار
 لا وحسن العينين والشفة اللمياء منها وحدها الجلنار
 لا تخلفت عن مرادي دهرا هي منه ولو نأى بي مزار

وفي دير القصير هذا يقول كشاجم:

سلام على دير القصير وسفحه
منازل كانت لي بهن مآرب
إذا جئتها كان الجياد مراكبي
فجنات حلوان إلى السنخلات
وكن مواخيري ومنتزهاتي
ومنصر في في السفن منحدرات

ومن الأديار التي خلدها الشعراء «دير قُنا» بالقرب من بغداد، وقد أبدع في وصفه المؤرخون، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب الشباب، ولم يبق غير ذكره في قول ابن جمهور:

يا منزل اللهو بدير قُنا
سقى لأيامك لما كنا
أيام لا أنعم عيشاً منا
إذا فني دن بزلنا دنا
ومسعد في كل ما أردنا
أحسن خلق الله إذا تحنا
بالله يا قسيس يا باقنا^(١)
متى رأيت فتنتي تجنى
أسأت إذا أحسنت فينا الظننا!
قلبي إلى تلك الربي قد حنا
نمتاز منك لذة وحسنا
إذا انتشينا وصحونا عدنا
حتى يظن أننا جننا
يحكي لنا الغصن الرطيب اللدنا
وجس زير عوده وغنا
متى رأيت الرشاً الأغنا
آه إذا ما ماس أو ثنى
أسأت إذا أحسنت فينا الظننا!

ومن الشعراء من تهيج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر آخر كان ملعب هواه، كما قال السري الرفاء يمدح الموصل ويذم العراق:

لح الله العراق وساكنيه
وجداد الموصل المبيض غيث
كما انهلت مدامع مستهام
ففي أيامه حسن التصابي
فما للحرّ بينهم قرار
يجود وللبروق به انسفار
تلهب منه في الأحشاء نار
وفي أفيائه خلع العذار

(١) قد يكون أصل الكلمة يا أبا قنا ثم حذفت الهمزة تخفيفاً والمراد به ساكن دير قنا.

ليالي كان لي في كل يوم
فعن ذكر القيامة بي صدور
ولي خدنان همهما المعالي
وساق تضحك الدنيا إليه
يطوف بها وقد حملت حبابا
كأن الشرب ينتهبون نارا
رأى الدهر اجتماع الشمل منا
فبدده وللدهر الخيار

إلى هنا وقف القارئ على نماذج في بكاء الديار الخالية، والحنين إلى الوطن
النائي، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب، فلنذكر شكوى العشاق من المنزل
القريب المأهول، حين يصبح أهله كالكوكب قريبة الضوء، بعيدة المنال!
وحين يصبح تمنع الحبيب أقسى من النوى، وأمر من الفراق. وأبدع الشعر في
ذلك قول راشد بن إسحاق الكوفي:

ومستوحش لم يمس في دار غربة
طواه الهوى واستشعر الوصل غيره
سلام على الدار التي لا أزورها
وإن حجبت عن ناظري ستورها
هوى تضحك للذات عند حضوره
تنسى به الأعطاف حتى كأنه
ألم تر صمتي حين يجري حديثه
رضيت بسعي الدهر بيني وبينه
أحاذر إن واصلته أن ينالني
ولكنه ممن يحب غريب
فشطت نواه والمزار قريب
وإن حلها شخص إلى حبيب
هوى تحسن الدنيا به وتطيب
ويسخن طرف اللهو حين يغيب
إذا اهتز من تحت الثياب قضيب
وقد كنت أدعى باسمه فأجيب
وإن لم يكن للعين فيه نصيب
وإياه سهم الفراق مصيب

أرى دون من أهوى عيوناً ترينني
أداري جليسي بالتجلد في الهوى
وأخبر عنه بالذي لا أحبه
مخافة أن تغري بنا ألسن العدا
كأن مجال الطرف في كل ناظر
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى
وكم قد أذل الحب من متمنع
وإن خضوع النفس في طلب الهوى
ولا شك أني عندهن مريب
ولي حين أخلو زفرة ونحيب
فيضحك سني والفؤاد كئيب
فيطمع فينا كاشح فيعيب
على حركات العاشقين رقيب
ويصبين عقل المرء وهو لبيب
فأضحى وثوب العز منه سليب
لأمر إذا فكرت فيه عجيب

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراة القيسي أنه كان في مجلس العتبي مع عبد الصمد بن المعذل، وأنهم تذكروا ما أبدع المولدون من الشعر الرقيق فقال عبد الصمد أنا في ذلك أشعر الناس؟ فقال أبو شراة أشعر منك الذي يقول:

ومستوحش لم يمس في دار غربة ولكنّه ممن يحب غريب

إلى آخر القصيدة. وإن عبد الصمد حين سمعها لم ينطق بحرف! وعندي أن صاحب هذه القصيدة لم يوفق في وصف مشاعره وصفا منظما يصح أن يكون «صورة شعرية» بل نراه جمع بين أشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل: ألا تراه يذكر في أول القصيدة أنه قريب، ولكنه في قربه غريب، لأن إنسانا غيره يتمتع بذلك الحبيب؟ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر أنه يحاذر الوصل طائعا لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق؟ وهذا بالطبع شطط في تصوير النفس المعذبة، لأن الذي يتصور أن محبوبه قد يطوق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه يترك مواصلته انتقاء لعيون الوشاة!

ينقص هذه القصيدة إذا ما أسمىه «الصورة الشعرية» ولا يمنع هذا أن تكون في جملتها جميلة لما تحويه من الأبيات المختارة. ولئن صح أن العتبي صادق على أن صاحبها أشعر الناس فإننا نشك في أذواق الأدباء الأقدمين ونرتاب في حاستهم الفنية. وأحب أن يفهم بعض الناس معنى «الحاسة الفنية» فإن كثيرا من أدعياء الأدب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون، فضلا عن أن يفقهوا ما تناثر على بساط الدهر من ثمرات العقول!

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يسمع أو يرى أو يلمس أو يشم أو يذاق! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك، إذ لم يرزقوا الإدراك! ومحال أن يجدوا طعما لقول الشاعر:

أسمع في قلبي ديب المنى وألمس الشبهة في خاطري

لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر. وأين تكون القلوب! من أجل هذا أشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار الكتاب والشعراء، وأن لا يعتمد في اختياره على الأذواق العامة لعلماء البيان، فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا أنهم على شيء، وأن الأدب لحياتهم مدين!!

وقد يمر العاشق بيت من يهوى ثم لا يملك التحية، لأن الوشاة له بالمرصاد. فمن ذلك قول السري الرفاء:

مررنا بالعقيق فكم عقيق	ترقرق في محارنا فذا
ومن مغنى جعلنا الشوق فيه	سؤالا والدموع له جوابا
وفي الكلل التي غابت شמוש	إذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت هن أعباء التصابي	ولم أحمل من السلوان عابا
ولو بعدت قبابك قاب قوس	من الواشين حييت القبابا

إلى هنا عرف القارئ ألوان العواطف عند منازل الأحباب، فقد رأى
نفثات المحبين عند الديار الخالية، وشهد بكاءهم على الوطن النائي، وحنينهم
إلى موطن اللهو والشراب، ثم رأى زفراتهم عند المنزل يدنو وهو بعيد، لنفور
ما فيه من الظباء! ويجمع شتيت هذه المعاني قول بعض الأعراب:

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذئ عهد

وربما عدنا إلى تفصيل هذه النوازع القلبية، حين نتحدث عن آراء الشعراء
في أفنان الجمال.

* * *

وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان: فهو يخشى أن تفضحه الدموع! وأشهر الشعراء في إخفاء الحب العباس بن الأحنف، وسنسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان. ونكتفي الآن بشعره عن قهره بالدموع: وقد رأيت يتوجع حيناً من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع، فيقول:

هبوني أغض إذا ما بدت وأملك طرفي فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع نطقن فبحن بما أضمر
أمني تخاف انتشار الحديث وحظي في صونه أوفر
ولو لم يكن في بقيا عليك نظرت لنفسي كما تنظر

ويغضب حيناً على دمع عينيه فيقول:

لا جزى الله دمع عيني خيراً وجزى الله كل خير لساني
نم دمعني فليس يكتم شيئاً ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعنوان

ويبالغ في هذا المعنى حتى ليرمي قلبه بالعداوة، فيقول:

قلبي إلى ما ضرني داعي يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

ومن الشعراء من ييأس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع، كما يقول البحتري:

علاقة حب كنت أكتم بثها إلى أن أذاعتها الدموع الهوامع

إذا العين راحت وهي عين على الجوى فليس بسر ما تسر الأضالع

وقد أفصح الأرجاني عن غاية ذلك: وهي نصر الوشاة، بقوله:

ولي نفس إذ ما امتد شوقا أطار القلب من حرق شظايا

ودمع ينصر الواشين ظلما ويظهر من سرائري الخبايا

وأكرم من هؤلاء جميعا الشريف الرضي حين يقول:

أيسمح جفني بالدموع وأغتدي ضنينا بها إني إذا للثميم

ولو بخلت عيني إذا لعبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

وقد نظر أبو نواس إلى قول بشار بن بُرد:

يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار

ثم حاكاه بهذه الأبيات في نميمة الدمع:

قد تسترت بالسكون وبالإطـ اراق جهدي فتمت العيان

تركتني الدموع نصب المشير من وأحدوثة بكل مكان

ما أرى خالين للسر إلا قلت ما يخلوان إلا بشاني

وهي صورة شعرية، تمثل العاشق المروع أصدق تمثيل.

ومن المحبين من تنم عليه دموعه الغزار، وأنفاسه الحرار، كالبحتري حين

يقول:

إن الخطوب طوينني ونشرني عبث الوليد بجانب القرطاس

ما شبت من طول السنين وإنما طول الملامة فيك شيب راسي

نمت على ما في ضميري أدمعي وتتابع الصعداء من أنفاسي

ومن رائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مهيار:

طرحت بجمع نظرة ساء ركبها وتبعث شرا للعيون المطارح
 فإن سترت تلك الثلاث على منى هوائي فيوم النفر لا شك فاضح
 بكيث ولام العاذلات فلم تغض على رقية العذل الدموع السوافح
 وأحب أن يتأمل القارئ قوله «نظرت بجمع نظرة ساء كسبها» ليعرف
 كيف يسوء كسب العيون، حين تجني على القلوب!

* * *

سلطان الحب

سألنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي عن الحب: اختياري هو أم اضطراري وهل المحب مضطر أم مختار؟ وقد اختلف الناس من قبل في هذه المسألة، وأوضحها ابن أبي حجلة في كتاب «ديوان الصبابة» وأنا ناقل هنا نبذة من ذلك الكتاب الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف القرن الثامن الهجري، لأنه يمثل لنا رأي علماء ذلك العصر في مثل هذه الشئون. قال ابن أبي حجلة في سداجة غريبة ما نصه:

«هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره. وأسفر كالصباح أمره. إذ للناس فيه كلام من الطرفين، وتبخر من الصفين. فقائل بأنه اضطراري. وقائل بأنه اختياري. ولكن من القولين وجه مليح. وقدر رجيح. ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع. ونتكلم في طوله وعرضه بالباع والذراع (!!) فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمرو النوناني في كتابه تحفة الظراف: العشاق معذرون على كل حال. مغفور لهم في جميع الأقوال والأفعال. إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار. بل اعتراهم على جبر واضطرار. والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور. لا في المقضي عليه والمقدور. وقد جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- : إن الحامل كانت ترى يوسف -عليه السلام- فتضع حملها. فكيف تراها وضعت؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار؟ لا. بل باضطرار، وفقد اقتدار. وهذا مما لا يشك فيه ذو لب. ولا يختلج خلافه في قلب».

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال: لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية. ونقل عن أبي محمد بن حزم

أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين إني رأيت امرأة فعشقتها. فقال عمر: ذلك مما لا يملك. قال «وما أحسن قول بعض بني عذرة وقد قال له بعض العرب: ما لأحدكم يموت عشقا في هوى امرأة يألّفها؟ إنما ذلك ضعف نفس، ورقة، وخور، تجذونه فيكم يا بني عذرة. فقال: أما والله لو رأيتم الحواجب الزج، فوق النواظر الدعج، تحتها المباسم الفلج، لاتخذتموها اللات والعزى!».

ثم قال بعد كلام طويل «إن العشق يختلف باختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية، وغلظ الكبد، وقساوة القلب، ونفور الطباع، وغير ذلك. فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ومنهم من إذا رأى المليح سقط من قامته، ولم يعرف نعله من عمامته» - العاقبة عندكم يا شيخ محمد! - ثم قال «فهذا وأمثاله عشقه اضطراري، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس».

والذي أراه أن المحب مضطر غير مختار، وما ذكرت هذه التفاصيل إلا ترويحاً للنفس. أما الشعر في سلطان الحب فكثير. فمن الشعراء من يجعله سحراً كالطغرائي حين يقول:

إن لم يكن سحراً هواك فإنه	والسحر قُداً من أديم واحد
ما زلت أزهد في مودة راغب	حتى ابتليت برغبة في زاهد
ولربما نال المراد مرفقه	لم يسع فيه وخاب سعي الجاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به	حيل الطبيب وطال يأس العائد

ومنهم من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد كقول مهيار:

وعنّني سعد على فرط ما أرى	فقلت أتعنيف ولم تك مسعدي
---------------------------	--------------------------

وما ذاك إلا أن عجلت بنظرة قتلت بها نفسي ولم أعمد
ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كالقضاء المحتوم لا مرد له كقول
المتنبي:

أيـدري الربع أي دم أراقـا وأي قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبدا قلوب تلاقى في جـسوم ما تلاقى
فليت هوى الأـحبة كان عدلا فحمل كل قلب ما أطاقا
ومنهم من يجعله قضاءً من الله. كقول عمرو بن ربيعة الرقاشي:

تضيق جفون العين عن عبراتها تفسفحها بعد التجلد والصبر
وغصة صدر أظهرتها فرفهت حـزاة حرّ في الجوانح والصدر
ألا ليقـل من شاء ما شاء إنما يلام الفتى فيما استطاع من الأمر
قضى الله حب المالكية فاصطبر عليه فقد تجري الأمور على قدر
ويدخل في هذا الباب خلود الحب. فمن الشعراء من يجعل سببه خلود
المحاسن في الحبيب، كقول ابن الرومي:

هل المـلـالة إلا منقضى وطر من متعة يطبّي من غيرها وطر
وفيك أحسن ما تسمو النفوس له فأين يرغب عنك السمع والبصر
وكما قال ابن عـنـين:

خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا
واسألوها في زورة من خيال إن تكن لم تجد من الهجر بدا
ظبية تحجل الغزالة وجهها وبهاء وتفضح الغصن قدا
وكما قال أبو الأسود الدؤلي:

أبى القلب إلا أم عمرو وجهها عجوزا ومن يحب عجوزا يفند

كبرد اليماني قد تقادم عهده ورقعته ما شئت في العين واليد

وهو رأي منتقد: فكل زهر إلى ذبول، وكل جمر إلى خمود، وكل حسن إلى فناء، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفاني والجمال الزائل.

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه، كقول صردر:

ولقد عرضت على السلو جوانحي الـ
كيف السلو وليس يسلك مسمعي
سحري فلم يرهن دار مقام
إلا حنين أو بكاء حمام

وكما قال ابن الزيات:

لم يزدني العذل إلا ولعا
ذهبت بالقلب عين نظرت
كل يوم لي منها آفة
ضربي أكثر مما نفعا
ليتها كانت وإياه معا
تركتني للهوى متبعا

وكما قال ابن التعاويذي:

يلوم عليك خال من غرامي
سلو مثل عطفك لا يرجى
فكيف أطيع عذالي وعندي
رويدك أين سمعي واللام
وصبر مثل وصلك لا يرام
هموم قد سهرت لها وناموا

وهذا أيضا منتقد، فإن أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب إذا نفدت

دواعيه!

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب تغلغل الوجد في الأحشاء. كما قال

الأبيوردي:

أرى كل حب غير حبك زائلا
إذا استخبر الواشون عما أسره
أيزهل قلب أنت سر ضميره
وكل فؤاد غير قلبي ساليا
حمدت سُلوي أو ذمت التصابيا
فلا كان يوما عنك يا علو ساليا

وكما قال الغزي:

يا خليلي لو ملكت فؤادي جاز أن يملك الصواب عناني
ظالمي من أراد إنصاف نفسي من هواها وأمري من نهاني
قد تورطت في تعسف شوقي حيث لا يعرف السلو مكاني

وكما قال الطغرائي:

خليلي هل من مسعد أو معالج فؤادا به داء من الحب ناكس
وهل ترجوان البرء مما أكنه فلاني وبيت الله منه لا يس
هوى لا يدلل القرب منه ولا النوى ولا هو من طول التقادم دارس
سرى حيث لا يدري الضمير مكانه ولا تهتدي يوما إليه الهوا جس
إذا قلت هذا يوم أسلو تراجعت عقابيل من أسقامه ووساوس

وأرجو أن لا يغفل القارئ عما في هذا الشعر من فنون الجمال.

هناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتاة للطبع، ونزولا عند حكم الخليفة، وهو أجمل المذاهب. ومنه قول التعاويذي:

من بات ذا قلب سليم هم من جوى فأنا السليم^(١)
مالي إذا رمت السلو تلوم القلب المليم^(٢)
وإذا كتمت الحب با ح بسره دمع نموم
عيني وقلبي في الهوى عون علي فمن ألوم
وأظهر منه قول المتنبي:

إلام طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

(١) السليم هو المددوغ.

(٢) المليم: الجاني.

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
وهبت السلو لمن لا مني وبت من الشوق في شاغل

ولا أنكر أن من الشعراء من يرى غير ما ذهبت إليه في هذا الحديث.
ولكني أرى الحب الصادق حليف الخلود. وقد أوضحت هذه المسألة في كتاب
«حب ابن أبي ربيعة وشعره» فليرجع إليه من شاء.

* * *

غرام النساء بالنساء

سألني حضرة محمد شهاب عبد الناصر بديروط «عما قالت الغواني في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شيء من ذلك» بمناسبة ما حدث في برلين من غرام المسز كلين بالمسز ويب، وما جنت يدهما في سبيل هذا الحب الغريب!!

وأسف كثيرا أيها الأديب لاستحالة الجواب بالتفصيل في صحيفة سيارة: فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل الوقار! ويكفي أن ألفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب الأدب جاءت فيه هذه العبارة «هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال!» وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع!! وقد جاء في كلام رسول الله النهي عن «السحاق» كما جاء في القرآن النهي عن الزنا! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول! والمطلع على آداب الفرنسيين يجد في اعترافات النساء عجائب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الأعاجيب. والناس هم الناس في كل قطر وفي كل جيل، فلا تصدق ما تسمع من أن الإسراف في المجانة بدعة ابتدعتها نساء برلين! وعندي أن آفة المصلحين في الشرق هي جهلهم بدقائق الحياة الإنسانية، وإغفالهم الركن الأساسي للإصلاح، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء، وإقدام كثير منهم على الأمر بما لا يثمر به والنهي عما لا ينتهي عنه، ومن البلية أن يكون المصلحون منافقين!

ألم نصف الآداب الغربية بالإسراف في وصف النساء؟ لقد جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ولكنها في رأيي من الحسنات، إذ كان الواجب على كل

مصلح أن يقوي ما بين الرجل والمرأة من الميول الطبيعية، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة، وحب الرجال للغلمان!

اقرأوا هذا وتأملوه قبل أن تصدعوا رءوسنا بالدعوة إلى الفضيلة من حيث لا تعلمون!

وبعد ذلك ألفت نظر قراء «مدامع العشاق» إلى أن شعر النساء في الحب قليل: فقد كان العرب يستنكرون أن تعشق المرأة، وكان الرجل منهم يذوب خجلاً إذا قالت إحدى قريباته بيتاً واحداً في غلام جميل، وقد ثار طويس المغني لنفسه من عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته قارعة بنت ثابت في عبد الرحمن بن الحارث المخزومي:

يا خليلي نابني سهدي	لم تنم عيني ولم تكـد
فشرابي ما أسينغ وما	أشتكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على رجل	أنس تلتـذه كبـدي
مثل ضوء البدر طلعتـه	ليس بالزميلة النكد
نظرت عيني فلا نظرت	بعده عيني إلى أحد

وحديث عليّة بنت المهدي معروف، فقد حرم عليها أخوها هارون الرشيد أن تشبب بسلامها طل، فكان من نتيجة ذلك أن تشببت بجاريتها زينب وقالت فيها:

وجد الفـؤاد بزینبـا وجد الشـديد متعبـا

وهو شعر سخيف، ولكنه يدل على أن عشق المرأة كان مما تسيغه النفوس في ذلك العهد. وليس معنى ذلك أننا ننكر أن زينب هنا كناية عن طل، ولكن معناه أن تشبيب عليّة بزینب كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح، ولم نر في

الكتب الأدبية من أنكر على عليّة هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على نساء
الألمان! وهناك أبيات لفضل الشاعرة قالتها في «قبيحة» جارية المتوكل!

سلافة كالقمر الباهر في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف كبدر الدجى فوق قضيب أهيف ناضر^(١)

ولا مرية في أن العرب قتلوا عواطف المرأة، وحرموها من التشبيب، ولهم
في ذلك عذر مقبول، فإن الغيرة لم توجد، ولن توجد، في مثل النفوس العربية،
العرب بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك، أو شبه الشريك. ويأبون أن يسمعوا
حديث المرأة عن هواها المشبوب بل يغارون من تحدث الرجل عن هواه، حتى
ليقول شاعرهم:

لم ألق ذا شجن ييوح بحبه إلا حسبتك ذلك المحبوبا
حذرا عليك وإنني بك واثق أن لا ينال سواي منك نصيبا

وإذا عز على المرأة أن تقول شعرا في الرجل، فإنه يعز عليها من باب أولى
أن تقول شعرا في أختها المرأة، فضلا عن بعد ذلك من الحاجة الطبيعية، فإن
«هذه الشهوة» تعتبر فضولا في باب الشهوات!

والحق أننا حرمانا خيرا كثيرا حين حرمانا شعر النساء، انظر إلى قول فضل
في حبيب حرما طيب الرقاد:

إن من يملك رقي مالـك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العالم لم هـذا في حـسابي

وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية:

(١) الخشف بتثليث الخاء ولد الطبي.

كن لي شفيعا إليك إن خفف ذاك عليك
 واعفني من سؤالي سواك ما في يديكا
 يا من أعز وأهوى مالي أهون لديكا

إننا نشتهي أن نتكلم المرأة! إننا نحب أن نسمع حديثها العذب الجميل!
 ولكنهم يزعمون أن كلام المرأة فسق، وأن حديثها فجور، فيا ليت شعري متى
 يفقهون!

* * *

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التي تودي برشده حين تحرمه اليقظة من
الاستمتاع بالطيف، كالذي يقول:

وزارني طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعي الصباح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تكذبني نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

ومنهم من يذكر العلة في طروق الطيف، والسبب في زيارة الخيال، كقول
أبي تمام:

زار الخيال لها لا بل أزاركه فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم
ظبي تقنّصته لما نصبت له في آخر الليل أشراكا من الحلم
وقوله من كلمة ثانية:

استزارته فكرتي في المنام فأتانا في خفية واكتتام
يا لها ليلة تنزهت الأرواح فيها سرا من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب غير أننا في دعوة الأحلام
وكقول عبد الصمد بن المعذل:

وصل النوم بيننا بعد هجر فاجتمعنا ونحن مُفترقان
غير أن الأرواح خافت رقيبا فطوت سرّها عن الأبدان
منظرٌ كان لذة القلب إلا أنه منظرٌ بغير عيان

فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتيال فكره، ونصبه أشراكا من الحلم. والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعتدل هو النوم، مع إبداعه في طي الأرواح سرها عن الأبدان، خوفا من الرقباء!

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف: وهي أن الحبيب سطر نوره وعمّ، حتى شمل النائمين، وتجلّى لأعينهم، على بعدهم منه، ونأيهم عنه. وله في هذه الفكرة البديعة هاته الأبيات الحسان:

يا حبذا طيفك من قادم	يا أحسن العالم في العالم
طيف تجلّى نوره ساطعا	حتى رأته مقلّة النائم
يا غائبا يحكم في مهجتي	عليّ طالّت غيبة الحاكم
عار على حسنك أن يشتكي	حظي منه أنه ظالمي

والبحتري على شهرته بالخيال، لم يكن ممن يعنون بذكر السبب في قدومه، والعلة في طروقهن وإنما يحيد في وصف انعطافه، وانصرافه، كقوله:

سقى الغيث أجرا عاهدت بجوها	غزّلا تراعيه الجاذر أغيدا
إذا ما الكرى أهدى إليّ خياله	شفى قربه التبريح أو نقع الصدى
إذا انتزعته من يدي انتباهة	عددت حبيبا راح مني أو غدا
فلم أر مثلينا ولا مثل شأننا	نعذب أيقاظا وننعم هجدا

ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله:

ألمت بنا بعد الهدوء فساحت	بوصل متى نطلبه في الجدّ تمنع
وولت كأنّ البين يخلج شخصها	أو أن تولت من حشاي وأضلعي

وهو غاية في الإبانة عن اللهفة، والإفصاح عن الحسرة!

ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح، كقول بشار:

ولقد تعرض لي خيالك
فشربت غير مباشر حرجا
في القُرط والخلخال واللب
برضاب أشنب بارد عذب

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى:

بتنا يناولنا المدام بكفه
تجني الكواكب من قلائد جيده
من ليس يخطر أن نراه بباله
وتنال عين الشمس من خلخاله

وقد نص البحتري على ما ذكرناه من النعيم المباح بقوله:

وما نلتقي إلا على حلم هاجد
إذا ما تبادلنا النفائس خلتنا
يحل لنا جدواك وهي حرام
من الجد أيقاظا ونحن نيام

وَألم به في قوله:

بنفسي خيالا من أثيلة كلما
ترى مقلتي ما لا ترى من لقائه
تأوهت من وجدي تعرض يطمع
وتسمع أذني رجع ما ليس تسمع

* * *

خيال البحتري

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب أن نذكر كيف اشتهر البحتري بالخيال حتى قالوا (خيال البحتري) وضربوا به الأمثال. وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع إلى ترديده لزيارة الطيف في غير ضعف ولا فضول: فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضمن المحبوب، والقرب وقد شطت ديار الحبائب، حتى لبيعث الهوى من جديد، كقوله:

وقفنا فلا الأطلال ردت إجابة ولا العذل أجدى في المشوق المخاطب
تمادت عقابيل الهوى وتناولت لاجئة معتبٍ عليه وعاتب
إذا قلت قضيت الصبابة ردها خيال ملّم من حبيب مجانب
يجود وقد ضمن الألى شغفي بهم ويدنو وقد شطت ديار الحبائب

وتارة يذكر أن الطيف ألم به في الظلام فلم يجد مكانا يأوي إليه؛ لأن الكرى طردته الدموع، كقوله:

تلك البغيلة ما وصلي بمنصرف عنها ولا صدّها عني بمصدود
ألم بي طيفها وهنأ فأعوزه عندي وجود كر بالدمع مطرود

وأحب لو تأمل القارئ وصفه لحبيته بالبخل، وعفا الله عن هؤلاء البخلاء.

ومما امتاز به البحتري شكواه هجر الخيال. وقد أكثر من ذلك حين حرم من غلامه نسيم، ولغلامه هذا قصة عجيبة: فقد ذكروا أنه كان يبيعه، ثم تطير نفسه إليه فيشتريه، حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال! وقد أوضح شكواه هجر الخيال في هذه الأبيات الحسان:

أنسيم هل للدهر وعدٌ صادق فيما يؤمله المحبّ الوامق
مالي فقدتك في المنام ولم يزل عون المشوق إذا جفاه الشائق
أمنعت أنت من الزيارة رقية منهم فهل منع الخيال الطارق
اليوم جاز بي الهوى مقداره في أهله وعلمت أي عاشق

ثم ردد هذا المعنى في داليتة الجميلة، التي يقول فيها:

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد أظن نسيما قارف الهجر من بعدي
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه فيا عجباً للدهر فقداً على فقد
بنفسي حبيب نقلوه عن اسمه فبات غريباً في رجاء وفي سعد
فيا حائلاً عن ذلك الاسم لا تحل وإن جهد الأعداء عن ذلك العهد
أبا الفضل في تسع وتسعين نعجة غنى لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقد أخذ الجوى مأخذه مما أسر وما أبدي
وتخطو إليه صبوتي وصبابتي ولم يخطه بشي ولم يعده وجدي

ونحب أن لا يتعقبنا حضرة (البدوي المثلث) فيطالبنا بتحقيق بيع البحتري
لغلامه نسيم ليعرف أكان ذلك عن حاجة أم كان طمعا في المال، فقد تردد في
ذلك المؤرخون! أليس هو الذي لمح إلينا حين ذكرنا أن عليّة بنت المهدي
كنت عن طل بزيب، ولفت نظرنا إلى أنها كنت بزيب عن رشاً؟ رويدك
أيها الصديق، فليس في هذه المجاهل يقين، وحسبك أن تعلم أن ذلك سر من
أسرار القصور، وناهيك بقصر الرشيد!

وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث «شربوا نخب مصر! وشربوا نخب
فرنسا» كان له عند العرب بديل جميل، انظر قول عليّة في غلامها رشاً:

اشرب على وجه الغزال الأهيف الحلو الدلال
اشرب عليه وقل لله يا غل ألباب الرجال

وانظر قول إسحاق في غلامه زياد:

أدرها على بعد الحبيب فربما شربنا على بُعد الأوبة والفجع
فما بلغتنى الكأس إلا شربتها وإلا سقيت الأرض كأسا من الدمع
وقال ابن الفارض:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
فأي التعبيرين أجمل؟ أقول العرب: شربت على وجهه، وعلى بعده، وعلى
ذكره؟ أم قولنا شربت نخبه؟ أجيوا أيها المتكلفون!
ونعود فنذكر تشبث البحري بالطيف عند الصباح في قوله:

وليلة هومنا على العيس أرسلت بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثي بعطفي غزال بت وهنا أغازله
وكم من يد ليل عندي حميدة وللصبح من خطب تُذم غوائله
أتذكر أيها القارئ أن لسانك انعقد، وقد رأيت دمية من دمي الجمال، فلم
تزد على أن قلت: هذه فتاة حسناء؟ الأمر هنا كذلك، فاعذرنى إن لم أزد على أن
أقول: هذا شعر جميل!

ويظرف البحري كثيرا حين يجعل هجر الطيف نوعا من العتاب. انظر
قوله:

تناءت دار علوة بعد قرب فهل ركبٌ يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا فما يعتادنا إلا للماما
وربّت ليلة قد بت أسقى بعينها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا وأفنيناه ضما والتزاما

وقد تعجب لتشبيه الزائر النحيل بالطيف الطروق: انظر قوله:

وزورٍ أتاني طارقاً فحسبته
أقسم فيه الظن طورا مكذبا
أخاف وأرجو بطل ظني وصدقه
وقد ضمنا وشك التلاقي ولفا
فلم نر إلا مخبرا عن صباية
فأحسن بنا والدمع بالدمع واشج
ومن قبل قبل التشاكي وبعده
فلو فهم الناس التلاقي وحسنه

خيالا أتى من آخر الليل يطرق
به أنه حق وطورا أصدق
فله ظني حين أرجو وأفرق
عناق على أعناقنا ثم ضيق
بشكوى وإلا عبرة تترقرق
تمازجه والخد بالخد ملصق
نكاد بها من شدة الوجد نشرق
لحب من أجل التلاقي التفرق

وقد يأسى البحري ويشجى حين لا تبقي له الليالي غير الذكرى والخيال،
تأمل قوله:

حيبٌ نأى إلا تعرض ذكره
أمنع في هجرانه من صباية
ويأمرني بالصبر من ليس وجدّه
فإن أفقد العيش الذي فات باللولى

له أو ملم طائف من خياله
وقد كنت صبا مغرما في وصاله
كوجدي ولا أهلان حالي كحاله
فقدما فقدت الظل عند انتقاله

ولقد أذكر أني قرأت منذ سنين رواية (رافايل) وهي بدعة في الآداب
الفرنسوية. فأقسمت لأزورن إن استطعت قبر (لامارتين) واليوم أقسم إن
استطعت لأزورن قبر البحري!

أليس هو القائل في طيف الخيال:

أتري حبي لسعدي قاتلي
خطرت في النوم منها خطرة
أي زور لك لو قصدا سرى

وإذا ما أفرط الحب قتل
خطرة البدر بدا ثم اضمحل
وملم منك لو حقا فعل

يُتراءى والكُرى في مقلتي فإذا فارقهـا النوم بطل

ولتقي الدين السروجي قصيدة بديعة ختمها بيتين في الخيال، وقد زاره فما
حققه لفرط سروره به، ثم ولى عنه فما درى كيف يدركه، ولا عرف كيف
يلحقه. قال:

أنعم بوصلك لي فهذا وقته	يكفي من الهجران ما قد ذقته
أنفقت عمري في هواك وليتني	أعطى وُصولاً بالذي أنفقتَه
يا من شغلْتُ بحبه عن غيره	وسلوت كل الناس حين عشقته
كم جال في ميدان حبك فارسٌ	بالصدق فيك إلى رضاك سبقته
أنت الذي جمع المحاسن وجهه	لكن عليه تصبري فرقته
قال الوشاة قد ادعى بك نسبة	فسررتُ لما قلت قد صدقته
بالله إن سألوك عني قل لهم	عبدي وملك يدي وما أعتقته
أو قيل مشتاقٌ إليك فقل لهم	أدري بذا وأنا الذي شوقته
يا حسن طيف من خيالك زارني	من فرحتي بلباك ما حققتُه
فمضى وفي قلبي عليه حسرةٌ	لو كان يمكنني الرقاد لحقته

والشعراء يشكون غالباً ألا يمكث الطيف طويلاً. وقد شذ الطغرائي فذكر
أن محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده، وطول مكثه لديه. وذلك قوله:

بعثت إليّ تلومني في هجعةٍ	أهدت إليّ خيالها المذعورا
وتقول ما للطيف أبطأ بعدما	كنا اشترطنا أن يقيم يسيرا
فأجبتها بالعذر وهو مبين	لو كان ينصف لائمٌ معذورا
أطبقت أجفاني عليه وسمته	خوض الدموع فما استطاع عبورا

وهذا الخيال على طرافته منتقد. فإن الطيف لا يدخل العين، حتى يُضطر
إلى عبور الدمع، وهدى الله قوما يحسبون هذا الشعر من وثبات الخيال!

قالوا: وأول من طرد الطيف طرفة ابن العبد في قوله:

فقل لخيال العامرية ينقلب إليها فلاني واصل حبلاً من وصل
وتبعه جرير فقال:

طرفتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام
وهذا حدس وتخمين، فإنه ليس إلى توقيت النوازع القلبية من سبيل. ومن
طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هانئ الأندلسي:

ألا طرقتنا والنجوم ركوداً وفي الحَيِّ أيقاظٌ ونحن هُجود
وقد أعجل الفجر الملمع خطوها وفي أخريات الليل منه عمودُ
سرت عاطلاً غضبي من الدر وحده فلم يدر نحرَّ ما دهاه وجيد
فما برحت إلا ومن سلك أدمعي قلائد في لباتها وعقود
ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا وأنا بلينا والزمان جديد
ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله لزيارة الخيال.
انظر قول علي الإيادي:

أما أنه لولا الخيال المراجع وعاصٍ يُرى في النوم وهو مطاوع
لأشفق واستحيا من النوم واله يُرى بعد روعات النوى وهو هاجع
وأود لو تأمل القارئ قوله (وعاصٍ يرى في النوم وهو مطاوع) فطالما قدم
النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون!

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله:

وإني لأستغشي وما بي نعسة لعل خيالا منك يلقي خيالها
وأخرج من بين الجلوس لعلني أحدث عنك النفس في السر خالها
تقطع أنفاسي بذكرك أنفاسا يردن فما يرجعن إلا صواديا

وأوضح منه قول قيس بن ذريح:

وإني لأهوى النوم في غير نعسة لعل لقاء في المنام يكون
تخبرني الأحلام أي أراكم فيا ليت أحلام المنام يقين

والظاهر أن نعمة الطيف لا تسوي بين العشاق جميعا. فهي عند بعضهم
لوعة وغليل! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضي بها الضرورة حين
يقول:

وماذا يفيدك طيف الخيال والهجر حظك ممن تحب
غناء قليل ولكنني تمنيت به بقنوع المحب
ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال، كأن يزوره الطيف وهو سجين،
كقول جعفر بن علبة:

عجبت لمسراها وأني تخلصت إليّ وباب السجن دوني مُغلق
ألّمت فحيث ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهق
فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم لشيء ولا أني من الموت أفرق
ولا أن نفسي يزدهيها وعيدهم ولا أنني بالمشي في القيد أخرق
ولكن عرتني من هواك صباة كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق

وقد ترفق زياد بن حمل فعجب كيف زاره طيف حبيبته مع أنها ضعيفة
المشي مكسال. وذلك قوله من قصيدة طويلة:

زارت رويقة شعثا بعدما هجعوا لدي نواحل في أرساغها الخدم
وقمت للزور مرتاعا فأرقني فقلت أهـي سرت أم عادني حلم
وكان عهدي بها والمشـي يهـظـها من القريب ومنها النوم والسأم
وبالتكاليف تأتي بيت جارتها تمشي الهوينا وما تبدو لها قدم

سود ذوائبها بيض ترائبها دُرم مرافقها في خلقها عمم
 رويق إني وما حج الحجيج له وما أهل بجني نخلة الحرم
 لم ينسني ذكركم مُذ لم ألاقكم عيش سلوت به عنكم ولا قدم
 ولم تشاركك عندي بعد غايه لا والذي أصبحت عندي له ذمم

ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعد الشقة كقول ابن
 عنين.

سامحت كتبك في القطيعة عالما إن الصحيفة أعوزت من حامل
 وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل
 وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف:

لقد بخلت حتى بطيف خيالها عليّ وقالت رحمةً لنحييي
 أخاف على طيفي إذا جاء طارقا وسادك أن يلقاه طيف رقييي

* * *

طرف أدبية

وقد يكون من المستلح أن نذكر جملة من الطرف تتناسب مع طيف الخيال. فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء إلى الحسن بن سهل:

رأيت في النوم أني راكب فرسا ولي وصيفٌ وفي كفي دنائيرُ
فقال قوم لهم فهمٌ ومعرفةٌ رأيت خيرا وللأحلام تعبیر
رؤياك فسر غدا عند الأمير نجد في الحلم درا وفي النوم التبشير

فوقع في أسفل الكتاب «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»!! ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده:

أغفيت عند الصبح نوم مسهدٍ في ساعة ما كنت قبل أنامها
فأريت أنك رعتني بوليدة رعبوبة حسنٌ عليّ قيامها
وبيدرةٍ حُملت إلي وبغلة دهماء مشرقة يصل لجامها
فدعوت ربي أن يشيك جنّة عوضا يصيبك بردها وسلامها

فقال له: أبشر في كل شيء إلا البغلة فإني لا أملك إلا شهباء! فقال: امرأتي طالق إن كنت رأيته إلا شهباء غير أني غلطت!

ونقل عن أبي العبر أنه كان عنده حمار فمات فراه في النوم ينشد شعرا يقول فيه إنه مات عاشقا، فسأله المتوكل ما الذي كان من شأنه؟ فقال: كان يا أمير المؤمنين أعقل من القضاة، ليس له هفوة ولا زلة! فاعتلّ على حين غفلة، فمات، فأريته في النوم فقلت له: ألم أنقّ لك الشعر وأبرد لك الماء، فما سبب موتك؟ فقال أتذكر إذ وقفت علي باب الصيدلاني؟ قلت نعم، قال مرت إذ ذاك أتان فافتنت بها ومت! فقلت وهل قلت شيئا في ذلك، فقال نعم وأنشد:

هـام قلبي بأتان عند باب الصيدلاني
 تيمتني يوم رُحنا بثناها الحسان
 وبخدد ذي دلالٍ مثل خد الشيقران
 فبهامت ولو عشد ست إذا طال هواني

فقال له يا أبا معاذ. وما الشيقران؟ فقال أنا مشغول بما أنا فيه! وهذا كلام تعرفه الحمير! فإذا رأيتم حماراً، أو من كان أولاً حماراً، فاسألوه! فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، جزاء بما أبدع في هذا الخيال.

* * *

اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء، وليس فيهم من لم يُرزأ باليأس والقنوط.

وقد تأملت ما قال الشعراء في اليأس، فرأيت منهم من يترك لأجله العتبا كقول ابن الأحنف:

سكوتي بلاءً لا أطيع احتماله وقلبي ألوفٌ للهوى غير نازع
وأقسم ما تركي عتابك عن قلبي ولكن لعلمي أنه غير نافع
وأني إذا لم أُلزم الصبر طائعا فلا بد منه مكرها غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعتي فلا خير في ود يكون بشافع

وقد عزى نفسه ابن الأحنف حين يؤس بقوله:

لعمري لقد جلبت نظرتي إليك عليّ بلاء طويلا
فيا ويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق إليه السبيلا
هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

وإني لأتمنى أن يرحمني الله من عذابي، بترديد هذا البيت الجميل:

فيا ويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق إليه السبيلا

ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع. كما قال صردر:

لا أمدح اليأس ولكنّه أروح للنفس من المطمع
يأليت أني قبل وقْدِ الهوى أذنت للعذل على مسمعي

أين بدورٌ من بني دارم تبخل أن تُسفر في مطلق
لا في سرار الشهر تبدو لنا ولا ليالي العشر والأربع
أودعتهم قلبي وما خلّتهم يستحسنون الغدر بالمودع
لو زارني طيفهم ما درى من الضنى أي في مضجعي

ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه، يأسه وقنوطه. ولم أجد في هذا المعنى
أبدع من قول الطغرائي:

من مُبلغ الحي شطت دارهم ورضوا بالجار جارا وما أرضى بهم عوضا
قد طاب عنكم فؤادٌ طاب قبلكم عن الرضاع تقضي والشباب مضى
إن الزمان الذي كانت بشاشته للقلب والعين ملهى بان فانقرضا
فإن نسيت فيأس لم يدع طمعا وإن ذكرت فعرقٌ ساكنٌ نبضا
حكمت في مهجتي من ليس ينصفني ولست أبلغ من تحكيمه غرضا
سيان عندي وأمرى صار في يده قضى عليّ بجورٍ أم إليّ قضى

وليس بعد اليأس إلا الرجاء، وإن عجب لذلك بعض الناس. فمن
المحبين من يلهج بالأمل ترويحاً لنفسه، وترفيهاً لقلبه، كالذي يقول:

أعلّل بالمنى قلبي لعلي أروّح بالأمني الهيم عني
وأعلم أن وصلك لا يرجى ولكن لا أقل من التمني

ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعد الحزين كما قال ياقوت:

لله أيامٌ تقضت بكم ما كان أحلاها وأهناها
مرت فلم يبق لنا بعدها شيءٌ سوى أن نتمناها

ويكاد الأمل يصرخ في قول مسلم بن الوليد:

أدهرا تولى هل نعيمك مقبلٌ وهل راجعٌ من عيشنا ما نؤمل

أدهرا تولى هل لنا منك عودةً لعلك يُعدي آخرًا منك أول

وأوجع الشعر في هذا المعنى قول ابن زريق:

لأصبرن لدهر لا يمتعني به ولا بي في حال يمتعه
علما بأن اصطباري معقب فرجا فأضيق الأمر لو فكرت أوسع
علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يوما وتجمعه

ولو سُئلت عن رأيي في اليأس والرجاء، لقدمت لسائلي هذه الدعوة المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة «يا ربي! إنني ما جحدت نعمتك يوم رزقتني بهم ولا جهلت حكمتك يوم أقصيتهم عني، وهأنذا أنتظر فضلك وطولك، في ردهم إليّ، وعطفهم عليّ. فلولا الثقة برحمتك، والإيمان بإحسانك، لذهبت النفس عليهم حسرات. وقطع القلب في آثارهم قطعا».

* * *

العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل، بادي الخضوع، نزولا عند حكم الهوى،
وإيماننا بعودة الحبيب، كقول القائل:

يا غاية القصد وأقصى المنى وخير مرعى مقلّة الناظر
إن كان لي ذنبٌ ولا ذنب لي فما له غيرك من غافرٍ
أعوذ بالود الذي بيننا إن يفسد الأول بالآخر

وحسبك من موجب العطف، ودواعي الرحمة، أن يتوسل المحب بسالف
حبه، وماضي عهده، وأن يجعل الأمر في غفر ذنبه لحبيبه.

وقال ابن التعاويذي:

يا ابنة القوم كيف ضاعت عهودي بينكم والوفاء في العرب دينُ
كيف أسلمت فيك قلبي إلى الأشجان لولا أن الغرام جنون
أتريني على النوى مضمرا عند لك سلوا إني إذا لئنون
أنا من قد علمت عهدي على النأي وثيق وحبلى ودي متين

ولا يكون العتاب بابا للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة، كقول ابن
زيدون:

يا قمرا أطلعه المغرب قد ضاق في حبك المذهب
ألزمتني الذنب الذي جئته إليّ فاصفح أيها المذنب

وكقول الآخر:

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتىكم فنعتذر

فأما قول البحري:

قد كان مني الوجد غب تذكر إذ كان منك الصد غب تناسي
تجري دموعي حيث دمعتك جامدٌ ويرق قلبي حيث قلبك قاسي
فهو بالتأنيب أشبه منه بالعتاب، وخير منه قول البحري نفسه في كلمة
ثانية:

إني وإن لم أبـح بوجـدي أسـر فيـك الـذي أسـر
يا ظالمـالي بغير جـرم إليك من ظلمك المفر
أنت نعيمـي وأنت بؤسـي وقد يسوء الـذي يسـر
وقوله من كلمة أخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعاً:

أيا قمر الـتمام أعنت ظلمـا عليّ تطاول الـليل الـتمام
أما وفتور لحظك يوم أبقي تقلبه فتورا في عظامي
لقد كلفتني كلفاً أعنى به وشغلتنني عما أمامي
أعـيذك أن يُـراق دم حـرامٌ بذاك الدّل في شهر حرام
ويعجز القلم عن وصف ما لهذا الشعر من روعة الجمال، وأتمنى لو تأمل
القارئ قليلاً هذا البيت الجميل:

يا ظالمـالي بغير جـرم إليك من ظلمك المفر
فإنه خير من قول ابن زيدون:

ألزمتني الذنب الذي جئته إلي فاصفح أيها المذنبُ
وهل رأى القارئ، أروح للنفس، وأمتع للقلب، من هذا القسم:

أما وفتور لحظك يوم أبقي تقلبه فتورا في عظامي

وهل رأى حيرة للحب أشقى من حيرة الذي يقول:

لقد كلفتنني كلفاً أعنى به وشغلتنني عما أأامي

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية، يعلمون ما نعلم من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا أنهم يحنون على أنفسهم، وعلى قرائهم إذ يحرمونهم من التطلع إلى جنة الأدب، وقطوفها الدانية! ولو عرضت على كتاب العامية هذا البيت:

إني وإن لم أبـح بوجـدي أسـر فيـك الـذي أسـر

ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبك من المسرفين، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى إلى اللغة المبتذلة المهلهلة عجزاً عن الكتابة باللغة التي رحبت بثمرات العقول في جميع الأمم الإسلامية، وكانت لغة العالم زمننا غير قليل.

ولا يحسب واحد من هؤلاء أن الحسن في الأدب لا حد له ولا تعريف، بل هناك حقائق أدبية يركز عليها الجمال. في الشعر البديع والنثر الجميل، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه إن العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول في كثير من المواطن إيذاناً بالتفخيم والتهويل، كلفظة «ما» في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) للدلالة على أن ما عانوه من طغيان الماء يفوق الوصف، ويعجز عنه التمثيل، ومنها قول البحري:

برَّح بي حبـك المعـني وغرَّني منـك ما يغـر

إذ كانت دواعي الحب، وأسباب العشق، مما يقصر عن إدراكه المحب المفتون، والعاشق المأسور!

ومن ذلك لفظة «الذي» في هذا البيت المختار:

إني وإن لم أبح بوجدي أسر فيك الذي أسر
إيذا أنا بأن ما يجنه من اللوعة، وما يكنه من الشوق، أجل من أن يحيط به
الوصف، أو يناله البيان!

ومن العشاق من يضيف إلى ذلة العتاب، ذلة الإقرار بالذنب كقول
الشريف:

أيا شاكيا مني بذنب جنيته فديتك من شاكٍ إليّ حبيب
لئن راب مني ما يريب فإنني على عدواء الداء غير مريب
وإني لأرعى منك والود بيننا هوى قلما يرعى بظهر مغيب
فهب لي ذنبا واحدا كنت قلته فما زلة من حازم بعجيب
فيا حسن حال الود ما دمت مذنبا أتوب وما دامت تعد ذنوبي

والبيت الأخير يذكرنا بقول بشار:

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعدّ معاييه
ومن بديع الشعر في وصف العتاب، وما فيه من ذلة العاشق، وعزة
المعشوق قول الشريف:

ومقبل كفي وددت لو أنه أوماً إلى شفّتي بالتقبيل
جاذبته طرف العتاب وبيننا كبر المملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنها عُقد الجمل بقُرطقي محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول
من لي به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل
وقوله:

ومقبل كفي وددت لو أنه أوماً إلى شفّتي بالتقبيل

يذكرنا بقول الصاحب بن عباد:

أهوى لتقبيل يدي فقلت لا بل شفّتي!

وحيرة أمثال الشريف الرضي والصاحب بن عباد في أمثال هذه المواقف حيرة رهيبة، فكلا الرجلين عالم جليل، ولكن الحب كالموت لا يعصم منه البرج المشيد، والحصن المنيع، وقد يتقرب بعض الناس إلى مثل الشريف الرضي بتقبيل يمناه، فيود هذا لو قبل شفّتيه، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالعظمة، وقضى عليه بتقديس الجمال! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانه: حين يذهب بوقار العلم، وجلال الجاه، وغرور المال، ثم يسوي بين الأقدار، ريثما ينسى العالم علمه، والوجيه جاهه، والغني ماله، حتى إذا أنست تلك النفوس العاتية إلى هذه المساواة، عاد فميز أهل الحسن، ورفع أرباب الجمال، وصير المحبين أذلة، بالرغم من أنف العلم والجاه والمال! ويقول العرب: الهوى إله معبود، وإنهم لصادقون. غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الإله ليس برحمن ولا رحيم، ولكنه قهار جبار! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث ما يستحقه من البيان، ولبيّنت للقارئ رأي الفلاسفة في مملكة الجمال، ولكن الدين في كثير من القلوب كالكرى في عين الخائف المذعور: يودي به مر الطيف وهبوب النسيم! والذين يختلفون في النظرة البريئة أحرام هي أم حلال، لا يعقلون كيف يكون الهوى إلها، وكيف يكون له ملائكة مقربون، من الشعور، والعيون، والحدود، والثغور، والنحور والصدور، وهم إن عقلوا هذه الألوهية فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتاب الحب أنبياء مرسلون، بل كل محب عندهم ماجن خليع، قاتلهم الله أني يؤفكون!

ونعود فنبين أن الشريف أجاد تصوير العتاب بقوله:

جاذبته طرف العتاب وبيننا كبر الملول وذلة المملول

والمراد بكبر الملول عزة المعشوق، الذي تحدّثه عن هجره وصدّه، فكأنّها تُسمعه هجر القول ولغو الحديث، فيتبرّم ويتململ، ويود لو أرحته من حديث الحب: إذ كان الحسن يسد أذن الجميل، فلا يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب، وما أبدع الغزل في قوله:

جدلان ينتقض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول

ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم يذكر الشريف الرضي إلا ذكر له هذا البيت، وله فيه تأويل عجيب! ولعل أبرع ما قيل في التطلع إلى الاستمتاع بالجمال، قوله في هذا البيت المختار:

من لي به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل

ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف الرضي على جاهه كان يشكو بعد الدار، وقلة المال:

فدع ذكر سُعدى إن فيك تقيّة ألا إنما يبغي المهامن يصيدها

وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس، وعذل للقلب، على الكلف بحبيب ليس للحب عنده جزاء، فمن ذلك قول بعض الأعراب:

أجبا على حب وأنت بخيلة وقد زعموا أن لا يحب بخيل

بلى والذي حج الملبّون بيته ويشفي الهوى بالنيل وهو قليل

وإن بنا لو تعلمين لغلة إليك كما بالحائثات غليل

وقد يعكس هذا المعنى، فيحب العاشق ظلم معشوقه، ويجب من أجل ذلك أعداءه الظالمين، كقول أبي الشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيدة جبالذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا ما من يهون عليك ممن أكرم

ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر ما لقي في سبيل الحب من البلايا،
كقول ابن الدمينه:

وأنت التي كلفتني دلج السرى وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التي قطعت قلبي حزازه وفرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التي أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضا داني الصدود كظيم

وقد أجابته محبوبته أمامة فذكرت ما لقيت في سبيل حبه من سفاهة الوشاة،
وشماته اللاثمين، حين تقول:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضا أرمى وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلوم

وقد ضعف ابن الدمينه عن مجاراتها في قسوة العتاب، فبعث إليها الأبيات
الآتية، يسألها الصفح والغفران:

وإذا عتبت عليّ بتّ كأنني بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد أردت الصبر عنك فعاقني علّق بقلبي من هواك قديم
يبقى على حدث الزمان وريبه وعلى جفائك إنه لكريم

ومن المحبين من تعجزه الحيلة، فيذكر أحبابه بأن الحياة قصيرة، لا تتسع
للصد، ولا تحتمل المهجر، كقول الطغرائي:

ويا رُفقة مرت بجزءاء مالك تؤم الحمى أنضاًؤها المطايا
نشدتكم بالله ألا نشدتُم بها شُعبة أضللتها من فؤاديا
وقلتم لحَيّ نازلين بقربها أقاموا بها واستبدلوا بجواريا
رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالي إن في الدهر كافيا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتما معا كفى بالملمات فرقة وتناثيا

وقد كاد سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله في النهي عن العتاب:

أقل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل تارة ويميلُ
لم أبك من زمن ذمت صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألفت مدةً ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الإخاء جماعة إن حصلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقتُ لتبكين بحسرةٍ وليكثرن عليّ منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامقٍ حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين من لا يشاكره لدي خليل
وليذهبن بهاء كل مروءةٍ وليفقدن جاهها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا باقٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرةٌ فعلام يكثُر عتبنا ويطول

على أن الرفق الذي ألم بالطغرائي فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف الليالي، لم يمنعه من أن يصرخ شاكياً في نفس القصيدة. فيرمي أحبابه بالخيانة والنسيان، وذلك قوله:

وإن ديوني باقيات كما هيا أفى الحق أنى قد قضيت ديونكم
وآمن خوّانا وأذكر ناسيا فوا أسفي، حتام أرعي مضيّعا
ويجفونني حتى عذرت الأعاديا ومازال أحبائي يسيئون عشري

والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام:

أحبابه لم تفعلون بقلبه ما ليس يفعله به أعداؤه

وقد بسط الأرجاني هذا المعنى فقال:

أحبابنا كم تجرحون بهجركم فؤادا يبيت الليل بالهم مكمدا
إذا رمتكم قتلي وأنتم أحبة فما الذي أحشى إذا كنتم عدا
سأضمر في الأحشاء منكم تحرقا وأظهر للواشين عنكم تجلدا
وأمنع عيني اليوم إن تكثر البكا لتسلم لي حتى أراكم بها غدا

ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير أحبابهم بقصر الحياة
أو صخر الهذلي في هذه الأبيات الموجهة:

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم
قد كان صرماً في الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصّرم
ولما بقيت ليقين جوى بين الجوانح مضرعٌ جسّمي
فتعلمي أن قد كلفت بكم ثم افعلي ما شئت عن علم

وما ذكرت هذه المعاني المحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذي لا أراه إلا زفرة
تتصعد، أو عبارة تتدفق:

وأرى الأيام لا تدني الذي أرتجي منك وتدني أجلي!!

ومن الشعر الممتع في وصف الحيرة، يرمي بها المحب العميد، قول
الشريف يعاتب حبيباً أغراه بالحب، ثم أصلاه الصدود:

ألم الجوى من قلبي المصدوع
وجزيت فرط نزاعه بنزوع
فضح التطبع شيمة المطبوع
فنجوت بعد تعرض لوقوع
أسفا على ذاك اللوى الممنوع
قيظ وهذا في رياض ربيع
غصص الملام ومؤلّم التفرع
حتى أضاء بثغرة ودموعي
وأنامي في سني المقروع
لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لعجبتما من عزه وخضوعي
شر الهوى ما نلت به بشفي
أنى أبيت بليلة الملسوع
لو أن قلبك كان بين ضلوعي

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتقى
أسأت بالمشتاق حين ملكته
هيهات لا تتكلفن لي الهوى
كم قد نصبت لك الحبايل طامعا
وتركتني ظمآن أشرب غلتي
قلبي وطرفي منك هذا في حمى
كم ليلة جرّعتهُ في طولها
أبكي ويبسم والدجى ما بيننا
تفلي أنامله التراب تعللا
قمر إذا استخجلته بعتابه
لو حيث يستمع السرار وقفتما
أبغى هواه بشافع من غيره
أهون عليك إذا امتلأت من الكرى
قد كنت أجزيك الصدود بمثله

وقد ارتبت في بيتين وردا في خلال هذه القصيدة، وبينهما وبين موضوعها
بون شاسع، وهما قوله:

ما كان إلا قبلة التسليم أر دفعها الفراق بضمة التوديع
كمدي قديم في هواك وإنما تاريخ وصلك كان مذ أسبوع

فإن هذا الوصل الحديث خليق بمحو ذلك العتب القديم، والتنافر بين
هذين البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على الأقل من مقابلتهما بهذا البيت
الجميل:

أهون عليك إذا امتلأت من الكرى أنى أبيت بليلة الملسوع

فإنه يدل على أن الحبيب غير بعيد، وأنه في قربه نافر شرود، مما يذكرنا بقوله من كلمة ثانية:

أبيتُ والليل مبثوثٌ حبائلهُ والوجد يقنص مني كل مجلودٍ
شوقاً إليك وإشفاقاً عليك ولي دمعان ما بين محلول وم عقود
ليس الغريب الذي تنأى الديار به إن القريب قريب غير مودود

وإنما أردنا هذه الملاحظة ليتنبه القارئ إلى أن في الدواوين أشياء كثيرة نسبت زوراً إلى الشعراء، وربما عدنا إلى تحقيق ذلك في مبحث خاص. والأدباء يعجبون بعينية الشريف هذه في العتاب، وقل منهم من لا يحفظ هذا البيت المختار:

لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي
والعز والخضوع في هذا البيت يذكرنا بالعز والذل في قول عمارة اليميني في المجون:

ونافر الأعطاف عاملتهُ باللطف حتى سكن النافرُ
ولم أزل أمسحُ أعطافه ورأيه في قصتي حائر
حتى غدا من خجل مطرقا وكل إعراض له آخر
عجبت من ذي ومن عزه في موقف عاذله عاذر
في ليلة ساهرها نائمٌ فما له سمعٌ ولا ناظر
مددت فيها الفخ لما خلا الجو إلى أن وقع الطائر
فبت من فرط اغتباطي به أظن أني غائبٌ حاضر

وابن التعاويذي يجيد الشعر في العتاب، وهو صاحب هذه الأبيات المختارة:

خذ في أفانين الصدود فإن لي
أظنني أضمرت بعدك سلوة
قد كنت تنصفي المودة راكبا
فاليوم أقنع أن يمرّ بمضجعي
قلبا على العلات لا يتقلبُ
هيهات عطفك من سلوي أقرب
في الحب من أخطاره ما أركب
في النوم طيف خيالك المتأوّب

وهو أيضا صاحب هذه القطعة التي تمثل الوجد الدفين:

يا نازحاً ليس يدنو
يا واجداً وديوني
أمرت عيني ففاضت
أرقدهنيئاً فإني
وعاتباً ليس يرضى
في حبه ليس تقضي
ومضجعي فأفضا
ما ذقت بعدك غمضا

ومن الظلم للعواطف أن لا تفصل مذهب العباس بن الأحنف في العتاب،
فإن شعره آية الآيات في الشكوى من الهجر، والتوجع من الصدود، وهو مع
هذا يعد أيام الهجر أحسن أيامه، ويقول:

وأحسن أيام الهوى يومك الذي
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا
تروّع بالهجران فيه وبالعتب
فأين حلاوات الرسائل والكتب

ولكن هذا أمل بعيد، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب، وصحف
الهوى، وكذلك رزئ ابن الأحنف بمن ينبذ كتبه، ويمزق رسائله، وفي هذا
المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية:

وصالك مظلّم فيه التباسٌ
وقد حُملت من حبيك ما لو
أفريقي من عتابك في أناس
يظن الناس بي وبهم وأنتم
وعندك لو أردت له شهابٌ
تقسم بين أهل الأرض شابوا
شهدت الحظ من قلبي وغابوا
لكم صفو المودة واللباب
ظلمت وقلت ليس له جواب
وكنت إذا كتبت إليك أشكو

فَعِشْتَ أَقْوَتَ نَفْسِي بِالْأَمَانِي أَقُولُ لِكُلِّ جَامِحَةٍ إِيَابُ
وَصَرْتُ إِذَا انْتَهَى مِنِّي كِتَابُ إِلَيْكَ لَتَعْطِفِي نُبْذَ الْكِتَابِ
وَإِنْ الْوُدَّ لَيْسَ يَكَادِي بِقِي إِذَا كَثُرَ التَّجَنِّي وَالْعِتَابُ
خَفَضْتُ لِمَنْ يُلَوِّذُ بِكُمْ جَنَاحِي وَتَلْقَوْنِي كَأَنَّكُمْ غَضَابُ

وقد أكثر ابن الأحنف من التوجع لحرمانه من كتب من يهوى، وهو صاحب هذا البيت الحزين:

وَيَقْنَعْنِي مِمَّنْ أَحَبَّ كِتَابَهُ وَيَمْنَعْنِيهِ، إِنَّهُ لَبَخِيلٌ!
وكثيرا ما يميل ابن الأحنف إلى الصفح الجميل، إذ يرى العتاب لا يعطف
القلوب، إن لم تضم الحنان. وقد أفصح عن ذلك في هذه الأبيات:

أَنْكَرَ النَّاسَ سَاطِعَ الْمَسْكَ مِنْ دَجْ سَلَّةٌ قَدْ أَوْسَعَ الْمَشَارِعَ طَيِّبَا
فَهُمُو يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَمَا يَدْرُو نَ أَنْ قَدْ حَلَلْتَ مِنْهُ قَرِيبَا
قَاسَمِينِي هَذَا الْبَلَاءُ وَإِلَّا فَاجْعَلِي لِي مِنَ التَّعْزِي نَصِيبَا
إِنْ بَعْضَ الْعِتَابِ يَدْعُو إِلَى الْعَتَا بَ وَيُؤْذِي بِهِ الْمَحَبَّ الْحَبِيبَا
وَإِذَا مَا الْقُلُوبُ لَمْ تَضْمُرْ الْعَطَا فَ فَلَنْ يَعْطِفَ الْعِتَابُ الْقُلُوبَا

وما أجمل العزة في قوله:

خَفَضْتُ لِمَنْ يُلَوِّذُ بِكُمْ جَنَاحِي وَتَلْقَوْنِي كَأَنَّكُمْ غَضَابُ
وقوله:

خَفَضْتُ طَرْفِي لِأَدْنَى مَنْ يُلَوِّذُ بِكُمْ حَتَّى احْتَقَرْتُ وَمَا مِثْلِي بِمُحْتَقَرٍ
وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ يَلْقَ مِثْلَ هَذِهِ الذَّلَّةِ فِي سَبِيلِ الصَّبَابَةِ؟ وَمَتَى عَرَفَ الْهَوَى قِيَمَةَ
الْعِزَّةِ فِي نَفُوسِ الْأَعْزَاءِ، فَعَصَمَهَا عَنْ مَدَارَةِ قَوْمٍ يَحِيطُونَ بِالْجَمَالِ، إِحَاطَةً
الْأَشْوَاكَ بِالْوُرُودِ؟

وقد نرى ابن الأحنف يائسا من نفع العتاب، فنقرأ له هذه الأبيات في التبرم بالسكوت:

سكوتي بلاءٌ لا أطيع احتمالهُ وقلبي ألوف للهوى غير نازع
فأقسم ما تركي عتابك عن قلبي ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني إذا لم ألزم الصبر طائعا فلا بد منه مكرها غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعتُ فلا خير في ود يكون بشافع

وربما رأيناه زاهدا في العتاب، لأن محبوبته لا تصد صد العاتب، بل صد الملول وذلك قوله:

لو كنت عاتبة لسكن لوعتي أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلةً صد الملول خلاف صد العاتب
ما ضرَّ من قطع الرجاء ببخله لو كان عللني بوعدٍ كاذب

على أن ابن الأحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب، بل رأيناه يعجب بنصره في الحب، وقهره لقلوب الحسان، أليس سعيدا من يقول:

يارب جاريةً أسلبتُ عبرتها من رقة ولغيري قلبها قاسي
كم من كواعب ما أبصرن خط يدي إلا تمنين أن يأكلن قرطاسي

وكان البها زهير، أحد وزراء مصر في أيامها الخوالي، من أرق الشعراء في العتاب، حتى لتحسب شعره نجوي بين المحب والحبيب، أو رنين الحلي عند عناق الحسان، أو خفوق الأمل في قلب اليائس المحزون. انظر إلى اعتذاره عن محبوبه، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل:

مولاي من سكر الدلا ل عثت والسكران عابث
ونكثت عهدا في الهوى ما خلثت أنك فيه ناكث

لـك لا أشـك قـضيـةً أنـا سـأئـلُ عـنـها و بـاحـث
وقـد يـكـثـر في شـعـر البـهـا زهـير و صـف الدـلـال و ما لـه مـن النـشـوة و السـكـر،
فـنـراه في مـوطـن آخـر يـقـول:

أضـنـى الفـؤاد فـمـن يـرـيـحـه و حـمـى الرقـاد فـمـن يـبـيـحـه
و نـضـا مـن الأـجـفـان سـيـاً و فـا قـلـمـا يـبـقـى جـر يـحـه
نـشـوان مـن خـمـر الدـلـال و غـبـوقـه و بـها صـبـوحـه

والذي يعنينا الآن شرح مواقفه في العتاب، لأنها تمثل الروح المصرية، وما
لها من الساحة المصحوبة بالشمم والإباء. فحينما ينفي ما ذاع من سلوه، حتى
هجره أحبابه، فيقول:

يـا هـاجـريـن و حـقـكـم هـو نـتـم مـا لا يـهـو نـ
قـلـتـم فـلـان قـد سـلـا مـا كـان ذاك و لا يـكـون
و حـيـاتـكـم و هـي التـي مـا مـثـلـها عـنـدي يـمـين
مـا خـنـت عـهـدكـم كـما زـعـم الوشـاة و لا أـخـون
يـا مـن يـظـن بـأنـي قـد خـتـه غـيـري الخـئون
لـو صـح و دك صـح ظنـ كـي و بـأن لـك اليـقـين
يـا قـلـب بـعـض النـاس كـم تـقـسـو عـلـي و كـم أـلـين
يـا و يـلـتـاه لـمـن يـخـا طـب أـو لـمـن يـشـكـو الحـزـين
قـد ذلّ مـن كـان المـعـي مـن لـه هـو الدـمـع المـعـين

و حينما يمزج العتاب بالشكوى فيقول:

يـا أعـز النـاس عـنـدي كـيـف خـنـت اليـوم عـهـدي
سـوف أشـكـو لـك بـعـدي فـعـسـى شـكـواي تـجـدي
أـيـن مـولـاي يـرـاني و دـمـوعـي فـوق خـدي

أقطع الليل أقاسي ما أقاسي فيه وحدي
ليتني عندك يا مولا ي أو ليتك عندي

ثم يترفق في شكواه وأمانيه، فيقول:

من لي بقلب أشتريه من القلوب القاسيه
إني لأطلب حاجه ليست عليك بخافيه
أنعم عليّ بقبلة هبة وإلا عاريه
وأعيدها لك لا عدم ست بعينها وكما هي
وإذا أردت زيادة خذها ونفسي راضيه
فعسى يجود لنا الزمان بخلاصة في زاويه
أوليتني ألقاك وح دك في طريق خاليه

وهذه غاية الغايات في رقة النجوى ولطف العتاب، ولكن البها زهير كما قلنا مصري الروح: فهو في رفته غضوب: ألم تر إليه وقد تبدل من يهوى، فرماه بهذه الصاعقة:

يا من تبدل في الهوى يهنئك صاحبك الجديد
إن كان أعجبك الصدو د كذلك أعجبني الصدود
واعلم بأنني لا أريد د إذا رأيتك لا تريد
وأنا القريب فإن تغيّ ر صاحبي فأنا البعيد

وقد أوضح هذا المعنى ووفاه، في الكلمة الآتية:

سأعرض عمن راح عني معرضا وأعلن سألواني له وأشيعه
وأحجب طرفي عنه فهو رسوله وأحجب قلبي عنه فهو شفيعه
وكيف ترى عيني لمن لا يرى لها ويحفظ قلبي في الهوى من يضيعه
وأقسمت لا تجري دموعي على امرئ إذا كان لا تجري علي دموعه

فلو خان طرفي ما حوته جفونه ولو خان قلبي ما حوته ضلوعه

وأوضح من هذا قوله من كلمة ثانية:

هو حظي قد عرفتُه	لم يحل عما عهدتُه
فإذا قصر من أهواه	في الحب عذرتُه
غير أني لي في الحب	طريق قد سلكته
لو أراد البعد عني	نور عيني ما تبعته
إن قلبي وهو قلبي	لو تجنّى ما صحبته
كل شيء من حبيبي	ما خلا الغدر احتملته
أننا في الحب غيور	ذاك خلقي لا عدمتُه
أبصر الموت إذا أبص	رغيري من عشقته

* * *

نوح الحمام

لقد ألممنا إلمامة قصيرة بنوح الحمام عند أسباب المدامع، واليوم نفصل
مذاهب الشعراء في هذا الباب: فمنهم من يحن إلى الحمام الشادية، ويتمنى لو
عُدن إليه، فإذا عدن أسلمنه إلى البكاء، كما قال المجنون:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فلإني إلى أصواتكن حزينٌ
فُعِدْن فلما عدن كدن يمتنني وكدتُ بأشجاني لهنَّ أبينٌ
فلم ترَ عيني مثلهن بواكيا بكينَ ولم تذرف لهنَّ عيون

ومن الشعراء من يذكر أن الحمام الباكية تبعث الهوى في قلب الخلي،
فكيف بالشجي، وأن أنغامها ليست دموعاً ولكنها أمضى من الدموع، كما قال
أبو تمام:

بعثن الهوى في قلب من ليس هائماً فقل في فؤادٍ رُعنه وهو هائمٌ
لها نغمٌ ليست دموعاً فإن علت مضت حيث لا تمضي الدموع

ومنهم من يستريح إلى نوح الحمام، ويراه تداوياً من الداء بنفس الداء،
كقول ابن عبد ربه:

فكيف ولي قلبٌ إذا هبت الصبا أهاب بشوق في الضلوع دفين
ويحتاج منه كلما كان ساكناً دعاء حمام لم تبت بوكون
وإن ارتياحي من بكاء حمامةٍ كذي شجنٍ داوئته بشجون
كأنَّ حمام الأيك لما تجاوبت حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزين

ويسمون الحمامة «مطوقة» لطوقها المخضب الجميل، كما قال ابن عبد ربه:

ونائحٌ في غصون الأيك أرَّقني وما عنت بشيء ظل يعنيه
مطوقٌ بخضابٍ ما يزاله حتى تزايله إحدى تراقيه
قد بات يشكو بشجو ما دريت به وبت أشكو بشجو ليس يدريه

ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية، فيذكر أنها تبكي بلا دمع،
وأن لفها منها قريب، كما قال أبو محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر
بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته:

وأرقني بالريِّ نوح حمامة فنحت وذو الشجو الغريبُ ينوح
على أنها ناحتْ ولم تذر دمعاً ونحت وأسرأبُ الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفرأخي مهامه فيحُ
ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ وغصنك مياذُ فقيم تنوحُ
أفق لا تنح من غير شيء فإنني بكيّت زمانا والفؤاد صحيح
ولو عافشطت غربّة دار زينبٍ فها أنا أبكي والفؤاد جريح

ومما يجدر أن يكون «صورة شعرية» في وصف الحمامة الباكية قول
الطغرائي:

أيكيةٌ صدحت شجوا على فننٍ فأشعلت ما خبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلفاً ولا فُجعت فذكرتني أوطاري وأوطاني
طليقةٌ من إसार الهمِّ ناعمةٌ أضحت تجدد وجد الموثق العاني
تشبّهت بي في وجدي وفي طربي هيهات ما نحن في الحالين سيّانٍ
ما في حشاها ولا في جفنها أثرٌ من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
ياربة البانة الغناء تحضنها خضراءٌ تلتفّ أغصانا بأغصان
إن كان نوحك إسعاداً لمغترِبٍ ناءٍ عن الأهل ممنو بهجران
فقارضيني إذا ما اعتادني طربٌ وجداً بوجدٍ وسُلواناً بسُلوان

أو لا فقصرِكِ حتى استعين بمن
يعنيه شأني ويأسو كلمَ أحزاني
ما أنت مني ولا يعينك ما أخذت
مني الهموم ولا تدرين ما شاني
كلي إلى الغيم إسعادي فإن له
دمعا كدمعي وإرنانا كإرنااني

وهذه القصيدة من أبدع ما قال الشعراء في الحمائم الشاديات. وهي
أنموذج لملاحاة التقسيم، وبراعة التصوير، وحلاوة التعبير، ويقرب منها قول
ديك الجن:

حمائم ورق في حمى ورق خضر
لها مُقَلَّ تُجري الدموع ولا تجري
تكلفن إسعاد الغريبة إن بكت
وإن كن لا يدرين كيف جوى الصدر
لها حرق لو أن خنساء أغولت
بهن لأدت حق صخر إلى صخر
فقلت لنفسي ها هنا طلب الأسى
ومعدنه أن فاتني طلب الصبر

وقد يحسن لفت النظر إلى الخرافة القديمة في نوح الحمام: فإن العرب
يذكرون أنه كان لمن ملك في عهد نوح يسمى (الهديل) فهن يبكينه إلى الآن؟!
وهو المعنى بقول نصيب:

لقد راعني للبين نوح حمامة
على غصن بان جاوبتها حمائم
هو اتف أمّا من بكين فعهدُه
قديم وأما شجوهن فدائم

ومن ذكر الهديل حميد بن ثور في هذه الأبيات الحسان:

إذا نادى قرينته حمائم
جرى لصبابتي دمع سفوح
يرجع بالدعاء على غصون
هتوف بالضحي غرد فصيح
هفا لهديله مني إذا ما
تغرد ساجعا قلب قريح
فقلت حمامة تدعو حماما
وكل الحب نزاع طمّوح

قال أبو بكر بن دريد: خرجنا من عمان في سفر لنا، فنزلنا في أصل نخلة،
فنظرت فإذا فاختتان تزقوان في فرعها، فقلت:

أقول لورقاوين في فرع نخلةٍ وقد طُفِلَ الإِمْساء لو جنح العصر
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها ومال على هاتيك من هذه النحرُ
ليَهْنِكِيَا أن تُراعَا بفرقةٍ وما دب في تشيت شملكما الدهر
فلم أر مثلي قطعَ الشوق قلبه على أنه يحكي قساوته الصخر

ومن جيّد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية قول ابن سنان
الخفاجي:

أظن الورق في الأيك تغنى أنها تضرمر حُزنا مثل حزني
لا أراك الله نجدا بعددا أيها الحادي بها إن لم تجبني
هل تُباريني إلى بث الجوى في ديار الحي نشوى ذات عُصْنِ
هَبْ لنا الشبقَ ولكن زادنا أننا نبكي عليها وتغنّي
يا زمان الخيف هل من عودة يسمح الدهر بها من بعد ضنّ
أرضينا بشيئات اللوى عن زروِدٍ يالها صفقة غبنِ

وقد ينكر الشاعر على الحمامة أن تشكو الفراق، وهي كثيرة الألاف،
وحالية بالطوق والخضاب، كقول ابن سنان صاحب الأبيات السالفة:

وهاتفية في البان تُملي غرامها علينا وتتلو من صبابتها صُحفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالةً وقد جاوبت من كل ناحية إلّفا
ويشجي قلوب العاشقين حينها وما فهموا مما تغنّت له حرفا
ولو صدقت فيا تقول من الأسى لما لبست طوقا ولا خضبت كفا

ولكن الأرجاني يصفها بصدق اللوعة، فيذكر أنها مزقت أثواب الحِداد،
وأن صدورها ضاقت بأنفاسها ففضت مجامع الأطواق وأنها نزفت دمعها
وأفنته بطول البكاء، وذلك في قوله:

ومما شجاني وقد ودعوا بكاء الحمام على ساقها
تنوح على بُعد ألافها وتظهر مكنون أشواقها
لبسن حِدادا ومزقنه فلم تدخر غير أزياقها
وضاقت صدورا بأنفاسها ففضت مجامع أطواقها
وقد نزفت في الهوى دمعها فلم يبق ماءً بآماقها

ولم يكثر الشعراء الحديث عن غناء الكروان، ويظهر أنهم لم يتمتعوا بأغانيه
الجميلة على ضفاف النيل في سنتريس، والدهر كله فداء للحظة واحدة من
الأصائل، أو العشيات، أو الأسحر، في مغاني سنتريس.

ويعجبني في وصف الكروان قول الأستاذ عباس العقاد:

يا مُحييَ الليل البهيم تهجدا والطير آويّةً إلى الأو كان
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعا من نابغ في غمرة النسيان
قلّ يا شبيه النابغين إذا دعوا والجهل يضرب حولهم بجران
كم صيحة لك في الظلام كأنها دقات صدر للدجنة حان
خفاقة النغمات تطفّر في الدجى فوق النسائم طفرة النشوان
هنّ اللغات ولا لغات سوى التي رُفعت بهن عقيرة الوجدان
إن لم تقيدها الحروف فإنها كالوحي ناطقة بكل لسان
أغنى الكلام عن المقاطع واللغى بثّ الحزين وفرحة الجذلان
إني لأسمع منك إذ ناديتني معنى يقصّر عنه كل بيان
أصغي إليك إذا هتفت وفي يدي سِفْرٌ يغرد صامت الأوزان

شعر الطيور ولا رياء يشوبه يذري ببعد قصائد الإنسان
يا ساليا يشكو ويصدق وحده علم سميرك راحة السُلوان

ومن خير ما وُصفت به الحمامة من ناحية الخلقة الجميلة، قول بعض الأعراب:

وقبلي أبكي كل من كان ذا هوى هتوف البواكي والديارُ البلاعُ
وهنَّ على الأطلال من كل جانب نوائح ما تخضِّل منها المدامعُ^(١)
مزبرجة الأعناق غر ظهورها مُخْطمةٌ بالدرِّ خُضرُ روائع^(٢)
ترى طُرا بين الخوافي كأنها حواشي بُرد زيتها الوشائع^(٣)
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها خواضب بالحناء منها الأصابع

ويعجبني خطاب عبد البر بن فرسان الغسان لطائر مغرد ضم أفراخه إليه:

أعدهنَّ ألحانا على سمع مُعربٍ يطاوح مرتاحا على القُضب مُعجما
وطر غير مقصوص الجناح مرفها مُسوِّغ أشتاتِ الحبوب مُنعما
مُخْلِ وأفراخا بوكرك نُوما ألا ليت أفراخي معي كن نُوما

وقد أبدع الرصافي شاعر الأندلس حين تغنى يوما من أيام شبابه وقد خلا فيه بمن يهوى في روضة لم يشاركه في سكنها غير الهديل، وأبياته الآتية غاية من غايات الحسن في وصف الشمس وهي تجنح للغروب!

وعشيَّ رائق منظره قد قطعناه على صرف الشَّمول
وكان الشمس في أثائه ألصقت بالأرض خدا للنزول

(١) المدامع هنا أماكن الدمع وهي العيون.

(٢) مزبرجة: من الزبرج وهو الزخرف. ومخْطمة من الخطم بفتح فسكون وهو منقار الطائر.

(٣) الوشائع جمع وشيبة وهي الطرائق في الثوب.

والصبا ترفع أذيال الربا ومحيا الجو كالسيف الصقيل
 حبذا منزلنا مغتبقا حيث لا يطرقنا غير الهديل
 طائر شادٍ وغصنٌ منثنٍ والدجى تشرب صهباء الأصيل

ومما يقرب من هذا الباب وليس منه قول القاضي أبي حفص القرطبي:

هم نظروا لواحظها فهاموا وتشرب لبّ شاربها المدام
 يخاف الناس مقلتها سواها أيدع قلب حامله الحسام
 سما طرفي إليها وهو باك وتحت الشمس ينسكب الغمام
 وأذكر قدها فأنوح وجدا على الأغصان يتحبب الحمام
 وأعقب بينها في الصدر غما إذا غربت ذكاء أتى الظلام

* * *

التقرب بالدموع

خير ما تقرب به المحب إلى حبيبته دمع مسفوح، وقلب مجروح ووجد مشبوب، وصبر مغلوب!! والتقرب بالدمع نوع من الاستعطاف تغزى به قلوب الحسان، ومن طريقه قول الأبيوردي:

أشكو الهوى لترقي يا أميمة لي فطالما رفق المشكُّ بالشاكي
يشقى بعضي ببعضي في هواك فما للعين باكية والقلب يهواك

وهذا المعنى غير معروف عند العرب: فهم يرون بكاء العين من فضل حزن الفؤاد، حتى ليقولون: نعمت العين، وشقي القلب، ولكن الأبيوردي عكس المعنى، فجعل نعيم القلب في الهوى، وعذاب العين في البكاء، ثم قال:

إن يحك ثغرك دمعي حين أسفحه فإنني جدت للمحكي بالحاكي
ما كنت أحسب أن الدر مسكنه يكون جيدك أو عيني أو فاك

وأوضح من هذا وأجمل قول الشريف:

أهون بما حملتيه من الضنى لو أن طيفك كان من عوادي
ولقلما زار الخيال بمقلية روعاء نافرة بغير رقاد
ما تلتقي الأجفان منها ساعة وإذا التقت فلغض دمع باد
لا يبعدن قلبي الذي خلفته وقفاً على الإتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وساده لم يدرك كيف نبا عليّ وسادي
ولقد بعثت من الدموع إليكم بركايب ومن الزفير بحادي
لولا هواك لما ذلت وإنما عزّي يعيرني بذل فؤادي

وهكذا يجمع الشريف الرضي بين العزة القرشية، والذلة العذرية: فهو عزيز ذليل!! وللبحتري حوار لطيف في هذا الباب، فمن ذلك قوله:

صلي مغرماً قد واطر الشوقُ دمعهُ سجاماً على الخدين بعد سجامِ
فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرّمته بحرام

وقد ردد هذا المعنى في موطن آخر فقال:

ألام على هوائك وليس عدلاً إذا أحبيتُ مثلك أن ألاماً
فقد حرّمت من وصلي حلالاً وقد حللت من هجري حراماً

ولا يسعني وقد أسرف البحتري في ذكر الحرام والحلال، إلا الرجاء في أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب!! وقد رق شعر العباس بن الأحنف حين يقول:

أما استوجبت عيني فديتك نظرة إليك وقد أبكيتها حججاً عشراً
لعمري لئن أقررت عيني بنظرة إليك لقد عذبتها بالبكا دهرًا

ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية:

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروبُ
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أجاجاً دونكم فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أيساكني أكناف دجلة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وقد تطف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله:

ياموحش العين التي أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي نفساً تموت بدائها
تشتاق عيني أن تراك وأنست في سوادها

فإذا بخلت بنظرة سمحت بجُمّة مائها

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء:

وقلتُ شهودي في هوائك كثيرةً وأصدقها قلبي ودمعي مسفوحُ
فقال شهودٌ ليس يقبل قولها فدمعك مقذوف وقلبك مجروح

وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدثون، لطول ما يبحثون في القذف والتجريح، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء!!

وقد يتوسل المحب بفنائه في الوجد، ومن شعراء العصر من أجاد هذا المعنى، كصاحب البدائع حين يقول:

يا أهل أسيوط لا زلتم بعافيةٍ وأسلمتموني لدهري بعدما بليت
فلو أتت ظبيةُ الحمراء غازيةً قلبي لما وجدته غير أشلاء^(١)
يا ويح نفسي، أتنسوني وأذكركم مُقرح الجفن في صبح وإمساء

* * *

إن الذين بأمر الحب قد ملكوا لم يُدنني الشوق يوماً من منازلهم
كم رُحْتُ أحمل آمالي لحِيهمْ يا لوعة القلب لا شكواي نافعةُ
أبيتُ أنذب عهداً مرّ طيبةُ وأرسل الزفرة الحراء لافحة

لم يتقوا الحب في ضري وإيذائي
إلا تولوا مع الأيام إقصائي
وعدتُ أحمل آلامي وأرزائي
ولا بكائي بشافٍ مس ضرّائي
كلمحة البرق في أعطاف ظلماء
كوقدة الجمر في أجسام قصباء

* * *

(١) الحمراء: حي جميل من أحياء أسيوط.

يا من يعزّ علينا أن نجازيهم صدا بصدِّ وإغضاء بإغضاء
لو ترحمون وصلتم شيقا كلفا ألقى جفاكم عليه ألف بأساء

* * *

ثورة الوجد

نذكر هنا طرفا من الشعر الموجه، الذي يمثل ثورة الوجد، ولوعة الأسى،
فمن ذلك قول أبي تمام:

سقيمٌ لا يموتُ ولا يُفيقُ قد أقرح جفنه الدمعُ الطليقُ
شديد الحزن من يراه أسير الصبر ناظره أريقُ
ضجيع صبايةٍ وحليفُ شوقٍ تحمّل قلبه ما لا يُطيقُ
يظل كأنه مما احتواه يُسعر في جوانبه الحريقُ

وأي حال أدعى للرحمة، وأوجب للإشفاق، من حال هذا المحب السقيم،
الذي لا يموت ولا يفيق. والذي يحزن من يراه: لصبره الأسير، وناظره الأريق
والذي حالف في ضعفه الشوق، وضاجع الصباية، حتى لكأنه مما به، تُسعر
النار في ضلوعه!

ويقرب من هذا قول ابن الرومي في فراق اثنين من خلانه:

لم يسترح من له عينٌ مؤرقة وكيف يعرف طعمَ الراحة الأرقُ
محمدٌ وعليّ فتى كبدي إذا ذكرتهما والعيسُ تنطلقُ
خلان حل بقلبي من فراقهما ما كنت أحذر منه قبل نفترقُ
قلبٌ رقيقٌ تلظت في جوانبه نار الصباية حتى كاد يحترقُ
وددتُ لو تم لي حجي بقرها ما كل ما تشتهيهِ النفس يتفقُ

ومما يمثل ثورة الوجد في الصدر، مع الغيظ مما جنت يد الليالي، قول
المتنبي:

أكيدا لنا يا بين واصلت وصلنا فلا دارنا تدنو ولا عيشنا يصفو

أردد ويل، لو قضى الويل حاجة وأكثر لهفي، لو شفا غلّة لهف
ضنى في الهوى كالسم في الشهد كامنا لذت به جهلا وفي اللذة الحتف

وكان الأبيوردي يمثل وجده بوجد الظبية تترك ولدها في طلب الكلا ثم
تعود سريعة إلى لقائه فتجده مات! وإليك من شعره هذه اللؤلؤة الفتانة:

وما أم ساجي الطرف مال به الكرى على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تُرَاعِي بِأَحَدٍ مُقْلَتِيهَا كِنَاسَهَا وترمي بأخرى نحوه نظرا غربا
فَلَاحَ لَهَا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ كأن الريحَ الطلقَ ألبسه عُصبا
فَمَا لَتَ إِلَيْهِ وَالْحَرِيصُ إِذَا غَدَتْ به سورة الأطماع لم يحمد العُقبى
وَأَنَسَهَا الْمَرْعَى الْخَصِيبَ فَصَادَفَتْ مدى العين في أرجائه بلدا خصبا
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجَعَتْ طلاها فألفته قضى بعدها نجبا
أَتَيْحَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ يخوض إلى أوطاره مطلبها صعبا
فَوَلَّتْ عَلَى دُعْرِ وَبِالنَّفْسِ مَا بَهَا من الكرب ما لقيت في حادث كربا
بَأَوْجَدَ مِنْي يَوْمَ عَجَّتْ رَكَابَهَا لبين فلم تترك لذي صبوة لبا

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الأمثال في الآداب القديمة، وإنما نسبناها إلى
الأبيوردي لأنه يرددها في شعره، فمن ذلك قوله في كلمة ثانية:

وَمَا مُغْزَلٌ تَعْطُو الْأَرَاكَ يَهْزُهُ نَسِيمٌ تَنَاجِيهِ الْخُمَائِلُ وَإِ(١)
وَتُرْجِي بِرُوقِهَا أَغْنِ كَأَنَّهُ مِنْ الضَّعْفِ يَطْوِي الْأَرْضَ
فَمَا إِلَى الظِّلِّ الْأَرَاكِيِّ دُونَهَا وَكَانَابَهُ مِنْ قَبْلِ يَرْتَدِيَانِ
وُصِبَتْ عَلَيْهِ الطَّلَسُ وَهِيَ سَوَاغِبُ تَجُوبُ إِلَيْهِ الْبَيْدَ بِالنَّسْلَانِ(٣)

(١) المغزل: أم الغزال، الخمائل جمع خيلة وهي ألفاف الشجر.

(٢) الرسفان، المشي في القيد.

(٣) الطلس، الذئب. ولواغب، الجياع. والنسلان، مشي الذئب إذا أسرع.

فعادت إليه أمه وفؤادها
وظلت على الجرعاء وهى كئيبة
تسوف الثرى طورا ويعبث تارة
بأوجد مني يوم سرتُ إلى الحمى
هفا كجناح الصقر في الخفقان
وقد سال واديهما بأحمر قان
بها أولقُ من شدة الوهّان^(١)
وقد نزلت سمراءُ سفح أبان^(٢)

ونحب أن نلفت القارئ إلى ما في أمثال هذه الصور الشعرية من الكلف بتصوير الطبيعة، وما فيها من حياة الحيوان، فقد أغرم شعراء الغرب بهذا الأسلوب فزاد شعرهم جمالا إلى جمال. ولولا الرغبة في الإيجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دي ميسيه) تماثل شعر الأبيوردي في هذا الجانب من البيان. والناس هم الناس، في كل قطر وفي كل جيل، والتباين قليل في الميول، وفي تذوق ألوان الحياة، وإن عظم الفرق حيناً في التعبير عن نزعات النفوس، وشهوات العقول.

ومن خالد الشعر في ثورة الوجد نونية الوزير ابن زيدون، وقد رأينا أن نثبتها هنا كاملة - كما فعل المقري صاحب نفح الطيب - لأنها ذكرت مفرقة في أكثر المؤلفات:

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
من مُبلغِ الملبسينا بانتزاجهم
إن الزمان الذي قد كان يضحكننا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا
بالأمس كنا وما يُخشى تفرقنا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
حُزنا مع الدهر لا يَبلى ويُبلىنا
أنسا بقرهم قد عاد يُبكيانا
بأن نغص فقال الدهر آمينا
وانبت ما كان موصولا بأيدينا
فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

(١) نسوف، تشم. الاولق، الجنوب.

(٢) أبان، جبل شوقي الحاجر فيه نحل.

هل نال حظاً من العُتْبَى أعادينا ^(١)
 رأيا ولم نتقلد غيره ديناً
 وقد يئسنا، فما لليأس يُغرينا
 شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
 يقضي علينا الأسى، لولا تأسّينا ^(٢)
 سودا وكانت بكم بيضا لياalina
 ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
 قطوفها فجنينا منه ما شينا
 كنتم لأرواحنا إلا رياحيناً
 إذ طالمنا غير النأي المحبيناً
 منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
 من كان صرف الهوى والود يسقينا
 إلفاً تذكّره أمسى يعنينا ^(٣)
 من لو على البعد حيا كان يُحينا
 مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
 من ناصع التبر إبداعاً وتحسيناً ^(٤)
 تُدمي العقول وأدمته البرى لنا ^(٥)
 بل ما تجلى بها إلا أحيينا ^(٦)

يا ليت شعري ولم نُعتب أعاديكم
 لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
 كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضه
 بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
 نكاد حين تُناجيكُم ضمائُرنا
 حالتْ لُبْعَدكم أيا منّا فغدت
 إذ جانبُ العيش طلقَ من تألفنا
 وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً
 ليُسقَ عهدكم عهدُ السرور فما
 لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيّرنا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
 يا ساري البرق غاد القصر فاسق به
 واسأل هنالك هل عنى تذكّرنا
 ويانسيم الصبا بلغ تحيتنا
 وبيت ملك كأن الله أنشأه
 أو صاغه ورقاً محضاً وتوجّه
 إذا تأوّد أدته رفاهيّةٌ
 كانت له الشمس ظئراً في تكلله

(١) أعتبه، أرضاه. والعتين الترضية.

(٢) التأسي، التعزي.

(٣) عنه، أشقاه.

(٤) ورق ككتف، الفضة.

(٥) تأرد، تشنى. أدته. أثقلته. البري، الخلاخيل.

(٦) الظئر من معانيه جانب القصر.

زُهر الكواكب تعويذا وتزينا
وفي المودة كافٍ من تكافينا^(١)
وردا جناه الصبا غضا ونسرنا
مُنَى ضروبا ولذاتٍ أفانينا^(٢)
في وشي نُعمى سحبنا ذيله حينا
فقدرك المعتي عن ذاك يُغنيننا
فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيننا

كأنما نبتت في صحنٍ وجنته
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا
يا روضة طالما أجنّت لواحظنا
ويا حياة تملأنا بزهرتها
ويا نعما خطرنا من نضارته
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
إذا انفردت وما شوركت في صفة



والكوثر العذب زقوما وغسلينا
والسعد قد غص من أجفان واشينا
حتى يكاد لسان الصبح يُفشيننا
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
شربا وإن كان يروينا فيظميننا^(٣)
سالين عنه ولم نهجره قالينا
لكن عدتنا على كره عوادينا^(٤)
فينا الشمول وغنانا مُغنيننا
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
فالحر من دانٍ إنصافا كما دينا

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
سران في خاطر الظلماء تكتمننا
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نبت
إنا قرأنا الأسي يوم النوى سُورا
أما هواك فلم نعدل بمشربه
لم نجف أفق جمالٍ أنت كوكبه
ولا اختيارا تجنيناك عن كثب
نأسى عليك إذا حُثت مشعشة
لا أكؤس الراح تبدي من شائلنا
دومي على العهد ما دمنا محافظة

(١) متكافئ التكافؤ والتماثل.

(٢) تملأنا، تمتعنا.

(٣) الشرب بكسر الشين كالمشرب وهو المورد.

(٤) عن قرب.

فما استعضنا خليلاً عنك يحبسنا ولا استفدنا حبباً منك يُغنيننا
ولو صَبَا نحونا من أفق مَطْلَعِه بدر الدجى لم يكن حاشاكِ يصيينا
أولي وفاء وإن لم تبذلي صلةً فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
وفي الجواب شفاءً لو شفعت به بيض الأيادي التي ما زلت تولينا

وقد أغرم الشعراء بتخميس هذه القصيدة، وتسديسها، وتشطيرها وكذلك شغلت الأذهان زمناً غير قليل. وقد أرسل ابن زيدون هذه القصيدة إلى معشوقته ولادة وهي سيدة أندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الأمويين، وقد كانت في جلالها شاعرة مجيدة ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زيدون:

ترقب إذا جَنَّ الظلام زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسر
وبي منك ما لو كان بالفجر لم يلح وبالليل لم يُظلم وبالنجم لم يسِر

ولابن زيدون في ولادة مقطعات حسان، كقوله:

وها لعطفك والزمان كأنها صُبغت نضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصّر طولُه هاتي، وقد غفل الرقيب، وهاك
أمّا مُنى نفسي فأنت جميعها ياليتني أصبحتُ بعضُ مُناك
يُدني مثالك حين شطّ به النوى وهمم أكادُ به أقبلُ فاك

ومن موجع الشعر قوله:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع سرّ إذا ذاعلت الأسرار لم يذع
يا بائعاً حظهُ مني ولو بذلت لي الحياة بحظي فيه لم أبع

ولصديقنا الأستاذ أنيس ميخائيل ولع غريب بإنشاد قول ابن زيدون:

إني ذكرتُك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلقَ ووجه الروض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله كأنها رقّ لي فاعتلّ إشفاقا

كما حللتَ عن اللَّبَّاتِ أطواقا
بتنا لها حين نام الدهر سُراقا
جال الندى فيه حتى مال أعناقا
بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
فازداد منه الضحى في العين إشراقا
وسنان نبَّه منه الصبح أحداقا
إليك لم يعدُّ عنا الصدر أن ضاقا
لكان من أكرم الأيام أخلاقا
فلم يطربجنّاح الشوق خفاقا
وافاكمُ بفتى أضناه ما لاقى
ميدان أنسٍ جرينا فيه أطلاقا
سلوُّتم وبقينا نحن عشاقا

والنهر عن مائه الفضيّ مبتسّم
يومٌ كأيام لذاتٍ لنا انصرمت
نلهو بما يستميل العين من زَهَرٍ
كأنه أعينه إذ عاينت أرقى
وردٌ تَأَلَّق في ضاحي منابتِه
سرى ينافحه نيلوفرٌ عبّو
كلّ يهيج لنا ذكرى تشوقنا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم
لا سكَّن الله قلبا عن ذكركم
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا
كان التجازي بمحض الود مُذْ زمن
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم

وإني لمفتون بهذا الشطر الحزين:

سلوُّتم وبقينا نحن عُشاقا

فإنه يمثل المحب، وقد سلا أحبابه، وبقي وحده يعاني آلام الوجد،
وأهوال الصدود.

* * *

الأرق والسهاد

شكا الشعراء قديما وحديثا طول الليل بعد الفراق، وعند الهجر والصدود.
فمنهم من يستنجد محبوبه، ويستعديه على وحشة الليل، ومضاضة الأرق،
كقول الأبيوردي.

أَمِّمَ إِن خَفَيْتُ عَلَيْكَ صَبَابَتِي فَسَلِي ظِلَامَ اللَّيْلِ كَيْفَ أَكُونُ
وَاسْتَخْبِرِي عَنِّي النُّجُومَ فَقَدْ رَأَتْ سَهْرِي وَأَرْوَقَةَ الْغِيَاهِبِ جُونُ
وَلئنْ أَذَلْتُ مَصُونَ دَمْعِي فِي الْهَوَى فَعَلَى الْبُكَاءِ يُعَوَّلُ الْمُحْزَنُونَ

وهذه الأبيات من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد، وعبثه بكرائم
النفوس. ومنهم من يستعين من حوله، ويرجوهم أن يحدثوه عن النهار، أو
يصفوه لمن فقد طال ليله، حتى نسي النهار، وأوصاف النهار، كما قال ابن
الأحنف:

أَيُّهَا الرَّاقِدُونَ حَوْلِي أَعِينُونِي عَلَى اللَّيْلِ حَسْبَةً وَاتَّجَارَا
حَدِّثُونِي عَنِ النَّهَارِ قَلِيلًا أَوْ صَفِّوهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا

وابن الأحنف يجيد شكوى الليل الطويل، والسهاد المملول، فمن ذلك
قوله:

نَامَ مِنْ أَهْدَى لِي الْأَرْقَا مُسْتَرِيحًا سَامَنِي قَلَقَا
لَوِ يَبِيتُ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِسَهَادِي بَيَضَ الْحَدَقَا
أَنَا لَمْ أَرْزُقْ مَوَدَّتَكُمْ إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رَزَقَا
كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشُ بِهِ فَاصْطَلَى بِالْحُبِّ فَاحْتَرَقَا

وتوجعني شكواه في قوله:

أنا لم أرزق مـودتكم إنما للعبد ما رزقا

فقد تكلفُ النفس بفتنة من فتن الحسن في هذا الوجود، ثم لا تجد إليها
السييل، على أن هذا الحسن قد يكون زمامه بيد من لا يشعر بروعة الجمال!

ومن الشعراء من يظعن أحبابه بالليل، فيظعن بذلك الكرى عن جفونه
كالبحثري حين يقول:

أمولعة البين رب تفرّق	جرحت به قلبا بحبك مولعا
ولي لوعة تستغرق الهجر والنوى	جميعا وحب ينفد الدمع أجمعا
على أن قلبي قد تصدع شمله	فنونا لشمّل البيض حين تصدعا
ظعائنُ أظعنُ الكرى عن جفوننا	وعوّضنا منه سهادا وأدْمعا
نوين النوى ثم استجبن لهاتفٍ	من البين نادى بالفراق فأسمعا
وحاولن كتمان الترحل بالدجى	فنمّ بهن المسك حين تضوّعا

وقد يفرّغ المحب إلى تحكيم العدل والحق، حين تطول لياليه. كقول ابن
الرومي:

أيا شمس النهار سنا وعِزا	يُقصِر عنها نظراً ولمس
أحلّ أن تنامي عن سهادي	ولي مذبان عني النوم خمس
أميز كل شيء من أموري	سوى أمري لديك ففيه لبس
غرست هوى فربّيه بحفظٍ	فليس يُربّ بالتضييع غرس

ومن الشعراء من يتفنن في وصف الليل فيذكر أن نجومه أقسمت لا تزول.

كقول أحدهم:

ألا هل على الليل الطويل مُعِينُ	إذا نرحت دار وحن حزينُ
أكابد هذا الليل حتى كأنما	على نجمه أن لا يغور يمين

ووالله ما فارقتم قاليا لكم ولكن ما يُقضى فسوف يكون
ومنهم من يزيد على ذلك شوقه إلى تمزيق سراويل الليل، وظهور تبشير
الصباح، كقول حُندج بن حندج:

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالليل موصول
لا فارقَ الصبح كفي إن ظفرتُ به وإن بدت غرةً منه وتحجّل
لساهرٍ طال في صولٍ تملّله كأنه حيةٌ بالسوطِ مقتول
متى أرى الصبح قد لاحت مخائله والليل قد مُزقت عنه السراويل
ليلٌ تحير ما ينحطّ في جهةٍ كأنه فوق متن الأرض مشكوك
نجومه ركّذ ليست بزائلةٍ كأنما هُن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يُدني على شحط من داره الحزن ممن داره صول
الله يطوي بساط الأرض بينهما حتى يرى الربع منه وهو مأهول

نعم وما أقدر الله أن يدني على النوى من داره سنتريس ممن داره أسيوط

لوددتُ إذ سكنوا هنالك دارهم وعدتهم عنا أمورٌ تشغل
أنا نطاع إذا فتنقل أرضنا أو أن أرضهم إلينا تُثقل

وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال:

رب ليلٍ كأنه الدهر طولا قد تناهى فليس فيه مزيد
ذي نجوم كأنهن نجوم الشيب ب ليست تزول لكن تزيد

قال أبو بكر الوليد بن البزاز: كان علي بن الجهم يستنشدني كثيرا شعر خالد
الكاتب فأنشده فيقول: ما صنع شيئا. ثم أنشدته يوما قوله:

رقدت ولم ترث للساھر وليل المحبّ بلا آخر
ولم تدربعد ذهاب الرّقا د ما صنع الدمع بالناظر

فقال: قاتله الله! لقد أدمن الرمية حتى أصاب الغرّة! وجمال هذا الشعر يرجع إلى شكوى المحب ما صنع الدمع بناظره بعد جفوة النوم. ومثله قول أبي العتاهية:

أمسى ببغداد ظبيّ لست أذكره إلا بكيتُ إذا ما ذكره خطرا
إن المحب إذا شطت منازلُه عن الحبيب بكى أو حنّ أو ذكرا
يا رب ليلٍ طويلٍ بتّ أرقبُه حتى أضاء عمود الصبح فانفجرا
ما كنت أحسب إلا مُذ عرفتكم إن المضاجع مما يُنبِت الإبرا
والليل أطول من يوم الحساب على عين الشجيّ إذا ما نومه نفرا

ومن المحبين من يخاطب الليل. فيذكر في خطابه أن بعض ما به كاف لمحو الليل لو عَرَضَ له، كقول سعيد بن حميد:

يا ليل بل يا أبـد أنائمٌ عنك غـد
يا ليل لو تلقى الذي ألقى بها أو تجـد
قصر من طولك أو ضَعَفَ منك الجـلد
أشكو إلى ظالمـة تشكو الذي لا تجـد
وقف عليها ناظري وقف عليها السُّهد

وأود لو تنبه القارئ إلى حسن هذا البيت:

أشكو إلى ظالمـة تشكو الذي لا تجـد

وقد ذكر الفرزدق العلة في طول الليل فقال:

يقولون طال الليل والليل لم يطل ولكن من يبكي من الشوق يسهر

وقد تابعه بشار في هذا المعنى فقال:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم

وإذا قلت لها جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم
نفسي يا عبدَ عني واعلمي أنني يا عبدَ من لحم ودم
إن في بُردِيَّ جسمًا ناحلاً لو توكأت عليها لانهدم

وقد ردد هذا المعنى في كلمة ثانية فقال:

طال هذا الليل بل طال السهر ولقد أعرف ليلى بالقصر
لم يطل حتى جفاني شادنٌ ناعم الأطراف فتان النظر
لي في قلبي منه لوعةٌ ملكت قلبي وسمعي والبصر
وكان الهم شخص مائلٌ كلما أبصره النومُ نَفَر

على أن بشارا يتخطى هذا الحد، فيجاري الشعراء ويحسب أن ليس ليله
نهار، وذلك في قوله:

أقول وليتي تزداد طولاً أما لليل بعدهم نهارٌ
جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصارٌ

وليس للبيت الثاني قيمة من الوجهة الأدبية، لأن الغمض لا يجفو العيون،
لقصر الجفون، كما يقول. وإنما يجفوها لثورة الوجد، وهجمة الأشجان!

ويقول في كلمة ثانية:

خليلي ما بال الدجى لا تزحزحُ وما للعمود الصبح لا يتوضحُ
أضلّ النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال علي الليل حتى كأنه بليلين موصول فما يتزحزح

والبيت الأخير يذكرني بقول صاحب البدائع:

وجنّ علي الليل حتى حسبته جفاءً كريم أو رجاءً لئيم

وإن كان هذا في الحديث عن ظلام الليل، لا عن طوله.

وتروقني البساطة في قول سويد بن أبي كاهل:

وإذا ما قلت ليلاً قد مضى عطف الأول منه فرجع
يسحب الليل نجوم ما ظللها فتواليها بطيئات التبع

والخيال هنا خيال بادية. ولكنه في بداوته بديع. وقول الآخر:

سلوا مضجعي هل قرّ من بعد بعدكم وهل عرفت طعم الرقاد جفوني
سهرنا بنعمانٍ ونمتم بيا بل فما لعيونٍ ما وفّت لعيون

وهو يذكرني بقول بعض الأعراب:

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى بكم مثل ما بي إنكم لصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم ولا ساغ بين الجوانح ريق
وإذا زفرات الحب صعّدن في الحشا كررن فلم يُعلم لهنّ طريق

ومما جمع بين الشكوى من ليل الفراق، وذكرى ليل الوصال قول عبد الرحمن بن هشام:

طال عمر الليل عندي منذ تولعت بصدي
يا غزالا نقض العهد د ولم يوف بوعد
أنسيت العيد إذ بت لنا على مفرش ورد
واجتمعنا في وشاح وانتظمتنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكي ذهبنا في لازورد

ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب، كقول ابن زيدون:

يا ليل طل لا أشتهي إلا لعهدٍ قدي صرّك
لوبات عندي قمري ما بت أرعى قمرك

وليالي القمر في سنتريس عذبة المذاق، شهية الورود، وما أحسب المصريين
عبدوا النيل إلا حين رأوه يداعب القمر في ضواحي سنتريس، ذات الظلال
والأفنان.

ليالي النيل واللذات ذاهبةً وجدي عليكنّ أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لي منكّن واحدةً في سنتريس ويُدني بعض خلاني
إذا تبين دهري كيف يرحمني من ظلم همّي ومن عدوان أحزاني

وقد أجاد شعراء العصر وصف الأرق في الليل الطويل. فمن ذلك قول
شوقي:

بدأت الطيف بالجميل وزارا يا رسول الرضا وقيت العثارا
خُذ من الجفن والفؤاد سيلا وتيمم من السويداء دارا
أنت إن بتّ في الجفون فأهل عادة النور ينزل الأبصارا
زار والحرب بين جفني ونومي قد أعدّ الدجى لها أوزارا
سألّني عن النهار جفوني رحم الله يا جفوني النهارا
قلنّ نبيكه قلت هاتي دموعا قلن صبرا فقلت هاتي اصطبارا
يا لياليّ لم أجذك طوالا بعد ليلى ولم أجذك قِصارا
إن من يحمل الخطوب كبارا لا يبالي بحملهن صغارا
لم نفق منك يا زمان فتشكو مدمن الخمر ليس يشكو الخمار

وقال حافظ:

سكن الظلام وبات قلبك يخفق وسطا على جنبيك همّ مُقلّق
حارّ الفراش وحِرت فيه فأنتما تحت الظلام معذبٌ ومؤرق
درج الزمان وأنت مفقود المنى ومضى الشباب وأنت ساهٍ مطرق

وقال القياقي:

يا ويلتا أين الصباح
يطلعن في كبدي جراح
بردُ الفؤاد متى يتاح
لولا تحجبه لفجاح
وحاجتي ليست تباح

جنّ الظلام فما يزاح
ليلٌ كأن نجومه
يامن أتاح لي الأسى
قلبٌ أساه لا عجز
مابال دمعِي يستباح

وقال العقاد يخاطب الليل:

فدانت واطوت عنك القلوب
إلى تلك المضاجع أم تجوب
أم الجنات مرتعها الخصب
هتافُ البلابل أم نعيبُ
وكل مسهدٍ فيه غريب
وتلفظه المسالك والدروب
ولا يدري بلوعته القريب
أمن حرج بك الشهد المريب
أليس بساحليك لنا نصيب
يصدّ الطرفَ مربعك الرحيب
لما هجعت بساحتك الخطوب
تييت على فرائسها تلوب
يحاذر أن يلتمّ به رقيبُ
يضمن بلمحه الحلم الكذوب
على طول المدى إلا الشحوب
سواد القلب والطرف الكئيبُ

طويت أزمة الأجساد منا
فما تدري أتسكن حين مالت
وما تدري أباتت في جحيم
وما تدري أيسمع في دجاها
عقدت من الكرى وطنا رفيقا
تضيق به الوسائد والحشايا
وحيث لا يقارب به بعيدُ
فيا وطن النيام بكل فجّ
ويا سكن الأوبة والأعادي
ويا دار السلام بأي سد
لئن هجعت بساحتك المآقي
كأن جموعهنّ سباع ليلٍ
فهل عند الظلام لنا حديث
أم ادخر الظلام لنا متاعا
سهرنا يا ظلام فلم يصبنا
ولا حلكت فيهما تلاقي

والعقاد يكثر في شعره من شكوى الليل الطويل، وقد يشجيك حين ينظر
إلى نفسه فيحسبها من اليأس أمست وهي خراب ينعب على أطلالها اليوم.
وانظر كيف يقول:

وناعبةٍ صاحت وليل هجعةً
لقبّحت من عمياء تقرأ في الدجى
فقلت على النفس التي سوف تغتدي
تجوس أفاعي الحزن في جنباتها
فلا تحسبن اليوم تنعي المغانيا
وكم وحشة للنفس يخشى اقتحامها
وما أجمل قوله في هذه القصيدة:

ولما تقضى الليل إلا أقله
فأقبل يرعاني ويكي وربما
وزحزحني عنه بكف رفيقة
يقول لقد ران الكرى وتفرقت
فقلت وكم من ليلةٍ إثر ليلةٍ
فهب لوداعي من رقادك ليلةً
وأسلمت كفي كفه فأعادها
وحن التنائي جئت بالدمع باكيا
بكى الطفل للباكي وإن كان لا هيا
واسبل أهداب الجفون السواجيا
نجوم الدجى والديك أصبح داعيا
سهرت وقد أمسيت وحدك غافيا
تمرّ فإني وقد وهبت حياتيا
وقلبي ! فهلا أرجع القلب ثانيا؟

الطبيعة في أنفُس الشعراء

لقد أكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعة، حتى لتحسب أن ذلك سمة من سماتهم، لا يشاركون فيها أحد من العالمين.

ونريد أن نبين في هذه الكلمة أن شعراء العرب وردوا هذا المنهل، ونقعوا صداهم بمائه العذب الفرات، فإن الطبيعة ملك لجميع العيون، في جميع الأقطار والشعور بها، والجنوح إليها، من حاجات الفطرة، التي تسوي بين مختلف الشعوب والتي تجمع حولها شتى العواطف والأهواء.

ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكثروا من وصف السحاب: إذ كانت بلادهم غزيرة المطر، وإذ كانت آذانهم، وأبصارهم، أليفة لدوي الرعد. ولمع البرق. على أن شعراء العرب لم يقصروا في هذا الباب. ويكفي أن نذكر قول البحري يصف سحابة:

ذات ارتجازٍ بحنين الرعدِ	مجرورة الذيل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع لغير وجدِ	لهانسيم كنسيم الورد
ورنةٌ مثل زئير الأسد	ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بهاريج الصبا من نجد	فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيض رعدِ	من وشي أنوار الربى في بُرد
كأنما عُدرانها في الوهد	يلعبن من حباها بالنرد

ومن أظهر الدلائل على سكون العرب إلى الطبيعة، وإخلاصهم إلى مواردها الشهية أنهم يقرنون الحنين على معاهدهم بالدعاء لها بالسقيا وتراوُح النسائم. وإليك قول الشريف:

مغدّى نبلّ به الجوى ومراح
أن تمطري من بعدنا وتراحي
كالماء رقّ على جنوب يطال
ريّا خُزامى باللوى وأقاح
بالدّل أو مرضى العيون صحاح
وسقى النوازل فيه صوب الراح

أمعاهد الأجاب هل عودٌ إليّ
يكفيك من أنفسنا ودموعنا
قارب عيش فيك رقّ نسيمه
وتغزل كصبا الأصائل أيقظت
كم فيك من صاحي الشمائل مُنتش
فسقى اللوى صوب الغمام ودره

وقد يقوى شعورهم «بشخصية» الطبيعة، حتى ليخاطبوا الفلك الدائر،
وينذرونه بالفناء! انظر قول البحرى:

أنهب ما تصرّف أمّ جبار
كما تُبلى فيدرك منك ثار
ويدمر في تصرفه الدمار
مطايهاهم رواحٍ وابتكّار

أناءٌ أيها الفلك المدار
ستفنى مثل ما تُفنى وتبلى
تُتاب النائبات إذا تناهت
وما أهل المنازل غير ركبٍ

وانظر قول أبي القاسم ابن هانئ:

والنيرانِ الشمسُ والقمر
منظومة فلسوف تنتشرُ
فلسوف يُسلمها وينفطر

تفنى النجوم الزهرُ طالعةً
ولئن تبدّت في مطالعها
ولئن سعى الفلكُ المدار بها

وانظر قول العتّابي في وداع جارية له:

وشأيب دمعك المهراق
دِ ولا مقلتا طليح المآقي
ما جنينا من طول هذا العناق
بعدهما تنظرين كان تلاقٍ
لستِ تبقين لي ولست بباقي

ما غناء الحذار والإشفاق
ليس يقوى الوجد منك على الوجد
غدرات الأيام متزعزعاتُ
إن قضى الله أن يكون تلاقٍ
هوّني ما عليك واقني حياءً

أينما قدمت صروف المنايا فالذي أخرت سريع اللحاق
غُرَّ من ظن أن تفوت المنايا وعراها قلائد الأعناق
كم صفيين مُتعا باتفاقٍ ثم صارا الغربية وافتراق
قلت الفبرقدين والليل مُلقٍ سُودَ أكنافه على الأفاق
أبقيا ما بقيتا سوف يُرمى بين شخصيكما بسهم الفراق

وإنما قلت «شخصية الطبيعة» لأدل القارئ على مبلغ ما سما إليه العرب
حين كلفوا بالنظر إلى الوجود ... وانظر قول الحسن بن وهب في وصف النار
وقد نفرت منها إحدى الجواري الحسان:

بأبي كرهت النار حتى أبعدت فعلمت ما معنأك في إبعائها
هي ضرةٌ لك في التماع ضيائها وهُبوب نفحتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك في القلوب صنيعها بسيالها وأراكها وعدادها
شركتك في كل الأمور بفعلها وضيائها وصلاحها وفسادها

ولينظر القارئ نظرة خاصة إلى قول علي بن شعيب:

انزعي الوشيَ فهو يستر حسنا لم تحزُهُ برقمهن الثياب
ودعيني عسى أقبل ثغرا لذِّ فيه اللمى وطاب الرُّضابُ
وعجيبٌ أن تهجريني ظلما وشفيعي إلى صباك الشباب

فإننا نجد تخطى كل الأسوار الصناعية التي يحيط بها الشعراء أغراضهم،
ثم هجم على المعنى وأخذ بنواصيه، حين قال «وشفيعي إلى صباك الشباب» ولم
يقُل: وشفيعي إلى صباك حبي وهيامي، ووجدي وغرامي، وخشوعي
وخضوعي. إلى آخر ما يقول المتيمون!

وانظر قول محمد البطليوسي:

غصبوا الصباح تقسموه حدودا واستنهبوا قُضْبَ الأراك قدودا
 رأوا حصا الياقوت دون محلهم فاستبدلوا منه النجوم عقودا
 واستودعوا حديق المها أجفانهم فسبوا بهنّ ضراغما وأسودا
 لم يكفهم حمل الأسنّة والطّبا حتى استعانوا أعينا ونهودا
 وتضافروا بصفائر أبدت لنا ضوء النهار بليلها معقودا
 صاغوا الثغور من الأقاحي بينها ماء الحياء لو اغتدى مورودا
 ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة، ولن يغيب على أحد ما فيه من
 سمو الخيال.

وانظر كيف يكون كمون الحتف في الجفون، وكمون الموت في السيوف. في
 قول السريّ الرفاء:

بنفسي من أجود له بنفسي وييخل بالتحية والسلام
 ويلقاني بعزة مستطيل وألقاه بذلة مستهام
 وحتفي كامن في مُقلتيه كمون الموت في حد الحسام

ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية
 فكأنما يريدون أن يشركوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم. وهذا في ذاته ملحظ
 بديع، ولننظر قول صردر:

يقول خليلي والطباء سوانح أهذي التي تهوى؟ فقلت نظيرها
 لئن أشبهت أجيادها وعيونها لقد خالفت أعجازها وصدورها
 فيا عجبا منها يصدّ أنيسها ويدنو على ذعر إلينا نفورُها
 وما ذاك إلا أن غزلان عامر يثقن بأن الزائرين صُقورها
 ووالله ما أدري غداة نظرنا أتلّك سهام أم كؤُس تديرها
 فإن كنّ من نبلٍ فأين حفيفها وإن كنّ من خمر فأين سرورها

أيّا صاحبيّ أستاذنا في خمرها
هبّاها تجافت عن خليل يروعها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنةً
فلا تحسبي قلبي طليقاً فإنّما
أراك الحمى قل لي بأيّ وسيلةٍ
وأن فروع البان من أرض بيشةٍ
ألذّ من الورد الجنّي عرارها
على رسلكم في الحبّ إنّنا عصابةً

فقد أذنت لي في الوصال خدورها
فهل أنا إلا كالخيال يزورها
أما هذه فوق الركائب حورها
له الصدر سجنٌ وهو فيه أسيرها
وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
حيبٌ إليّ ظلّها وحرورها
وأحلى من الشهد المصفيّ بريرها
إذا ظفرت في الحبّ عفّ ضميرها

ولسنا بصدد الموازنة بين شعراء الغرب والشرق في النظر إلى الطبيعة، فإن
هذا باب طويل. وإنما نشير فقط إلى أن الناس سواء في الإحساس بمظاهر
الوجود. وإنما يختلفون في طرائق التعبير، وأساليب البيان.

* * *

مدارة الرقباء

للعشاق أساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة. فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم. كقول ابن المعتز:

أردُّ الطرف من حَذري عليه وأمنحه التجنُّب والصدودا
وأرصد غفلة الرقباء عنه وتسرق مقلتي نظرا جديدا
وكقول السري الرفاء:

ونواظرٍ وجد المحب فتورها ما كان هذا البين أول جمرة
لولا مساعدة الدموع ودفعها وأنا الفداء لمن مخيلة برقه
قمرٌ إذا ما الوشي صين أذاله خفرُ الشائل لو ملكت عناقه
ضعُفتُ معاقد خصره وعهوده أدنو إلى الرقباء لا من حبهم
لما استقلَّ الحيُّ في أعضائه أذكت هيب الشوق في أحشائه
خوف الفراق أتى على حوبائه (١) حظي وحظ سواي من أنوائه
كيما يصون بهاءه بدهائه (٢) يومَ الوداع وهبته لحيائه
فكأن عقد الخصر عقد وفائه وأصد عنه وليس من بغضائه

وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العميري:

أيَا نخله مران هل لي إليكما أمنيكما نفسي إذا كنت خاليا
وما لي شيءٌ منكما غير أنني على غفلات الكاشحين سبيل
ونفعكما إلا العناء قليل أمني الصدى ظليكما فأطيل

(١) الحوباء: النفس.

(٢) أذاله: أهانه.

ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة. كقول أحد الشعراء:

تبذل هذا السدر أهلا وليتني
وعهدي به عذب الجنى ناعم الدر
فما لك من سدرٍ ونحن نحبه
كما لو وشى بالسدر واش رددته
أرى السدر بعدي كيف كان بدائله
تطيب وتندي بالعشي أصائله
إذا ما وشى الواشي بنا لا تجادله
كثييا ولم تصلح لدينا شمائله

وكقول كثير:

فيا عزّ إن واشٍ وشى بي عندكم
كما لو وشى واشٍ بعزةً عندنا
فلا تكرميهِ أن تقولي له أهلا
لقلنا: ترحزح لا قريبا ولا سهلا

وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة، فيما أدعوا من سلوانه، كقول أبي حية

النميري:

وخبرك الواشون أن لن أحبكم
وإن دما لو تعلمين جنيته
أصد وما الصد الذي تعلمينه
حياءً وثقيا أن تشيع نيمته
بلى وستور الله ذات المحارم
على الحيّ جاني مثله غير سالم
عزاء بنا إلا ابتلاع العلقم
بنا وبكم أفّ لأهل النمام

ومن المعذبين من يشجيه أن لا ينفع العذل عنده، في حين أن من يهواه يأتمر
بأمر الوشاة. ويسمع نصيح اللائمين.

فمن ذلك قول الأبيوردي:

رمتني بسهم راشه الكحل بالردى
مريضة أرجاء الجفون وإنما
فولت وقد ابقت بقلبي علاقة
وقلت لأدنى صاحبي وقد وشى
وأقتل ألحاظ الملاح كحيلها
أصحّ عيون الغانيات عليلها
تمر بها الأيام وهي مقليلها
بسري دمعي إذ تراءت حمولها

ذر اللوم إني لست أريعك مسمعي
وليت لسانا أرهف العذل غربه
أردّ عذولي وهو يمحضني الهوى
ويعتادني ذكر العقيق وأهله
تنوح وتبكي فوق أفنان أيكّة
ولولا تباريح الصبابة لم أبل
فتلك هوى نفسي وأنت خليلها
على الصب مفلول الشياة خليلها
بغيط، ويحظى بالقبول عذولها
بحيث الحمام الورق شادٍ هديلها
فداهنّ من أرض العراق نخيلها
بكاها ولا أذرى دموعي عويلها

ومن بديع الشعر في مدافعة الوشاة، قول الرصافي الأندلسي في غلام

حائك:

قالوا وقد أكثروا في حبه عذلي
فقلت لو كان أمري في الصبابة لي
علقتُهُ حَبِيَّ الثغر عاطره
غُزِيلٌ لم تزل من الغزل جائلةً
جزلان تلعبُ بالمحواك أنمله
ضمًّا بكفيه أو فحصا بأخصه
لو لم تهم بمُذال القدر مبتذل
لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لي
حلو اللمى ساحرَ الأجفان والمقل
بنانه جَوْلان الفكر في الغزل
على السدى لعب الأيام بالأجل
تخبُّط الطبي في أشراك مُحْتَبِل

وأحب لو تأمل القارئ هذه (الصورة الشعرية) التي تمثل هذا الحائك الجميل. بالطبي يتخبط في الأشراك. وإنها لوثة من وثبات الخيال.

* * *

نجل الحسان

نذكر هنا طرفاً مما قال الشعراء في بُخل الحِسان: وكل حسناء بخيلة، وكل جميل ضنين! وأشهر الشعر في هذا المعنى قول مهيار:

يا لُواة الدين عن ميسرة والبخيلاتُ ما كنّ لئاما
حملوا ريح الصبا نشركم قبل أن تحمل شيحا وخزامى
وابعثوا لي في الكرى طيفكم إن أذنتم لجفوني أن تناما

ويجمل بنا أن نذكر قصيدة كثير التائية، ففيها صورة شعرية لصدق اللوعة، عند بخل الحبيب. وهي فوق ذلك غُرة من غرر الآداب العربية. قال:

خليليّ هذا ربع عزة فاعقلا قلو صيكما ثم ابكيا حيث حلت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت
فقد حلفت جهدا بما نحرت له فريش غداة المأزمين وصلت
أناديك ما حج الحجيج وكبرت بفيفا غزال رُفقةً وأهلت
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرة نذرا فأوفت وحلت
فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وُطئت يوما لها النفس ذلت^(١)
ولم يلق إنسان من الحب ميعةً تعم ولا غمماً إلا تجلت^(٢)
كأنني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت^(٣)

(١) ذلت، هانت.

(٢) الميعة والغماء، الشدة. وتجلت، انصرفت.

(٣) العصم، جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر. وزلت: زلقت.

فمن مل منها ذلك الوصل ملت (١)
 وحلت تلاعا لم تكن قبل حُلت (٢)
 بحبل ضعيف عُمر منها فضلت
 وكان لها باغٍ سواي فبلت (٣)
 ورجل رمى فيها الزمان فشلت
 على ظلها بعد العثار استقلت (٤)
 إذا ما أطلنا عندها المكث ملت
 إليّ وأما بالنوال فضنت
 هواني ولكن للمليك استدلت
 لعزة من أعراضنا ما استحلت
 بصرمٍ ولا أكثرُ إلا أقلت
 وحقت لها العتبي لدينا وقلت (٥)
 منادح لو سارت بها العيس كلت (٦)
 بعافية أسبابه قد تولت
 لدينا ولا مقلية إن تقلت (٧)
 لنا خلة كانت لديكم فطلت
 عليها بما كانت إلينا أزلت (٨)

صفوحا فما تلقاك إلا بخيلة
 أباحت حمى لم يرعه الناس قبلها
 فليت قلوصي عند عزة قُيدت
 وغودر في الحبي المقيمين رحلها
 وكن كذي رجلين رجل صحيحة
 وكنت كذات الظلع لما تحاملت
 أريد الثواء عندها وأظنها
 فما أنصفت أما النساء فبغضت
 يكلفها الغيران شتمي وما بها
 هنيئا مريئا غير داءٍ مُخامرٍ
 فوالله ما قاربت إلا تباعدت
 فإن تكن العتبي فأهلا ومرحبا
 وإن تكن الأخرى فإن وراءنا
 فلا يبعدن وصلّ لعزة أصبحت
 أسئي بنا أو أحسنني لا ملومة
 ولكن أنيلي واذكري من مودة
 فلإني وإن صدّت لمثنٍ وصادق

(١) صفوح، معرضة.

(٢) التلاع، جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض.

(٣) بلت المطية: ضلت.

(٤) ظلع البعير: غمز في مشيه. واستقل: نهض من عثرته.

(٥) العتبي والأعتاب: الترضية.

(٦) المنادح: جمع مندوحة وهي ما اتسع من الأرض.

(٧) تقلت: ظهرت بالقل وهو البغضز ومقلية: مبغوضة.

(٨) أزلتك أسدت.

ولا شامتٌ إن نعلٌ عزة زلت
بعزة كانت غمرة فتجلت
كما أدنفت هيماء ثم استبلت ^(١)
ولا بعدها من خلة حيث حلت
وإن عظمت أيام أخرى وجلت
فلا القلب يسلوها ولا العين ملت
والنفس لما وطنت كيف ذلت ^(٢)
تخلت مما بيننا وتخلت
تبوأ منها للمقيل اضمحلت
رجاها فلما جاوزته استهلّت ^(٣)
فقل نفسٌ حر سليت فتسلّت ^(٤)

فما أنا بالداعي لعزة بالجوى
فلا يحسب الواشون أن صبابتي
فأصبحت قد أبللت من دنفٍ بها
فوالله ثم الله ما حلّ قبلها
وما مرّ من يوم عليّ كيومها
وأضحت بأعلى شاق من فؤاده
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
وأني وتهيامي بعزة بعدما
لك المرتجى ظل الغمامة كلما
كأنني وإياها سحابة ممحل
فإن سأل الواشون فيم هجرتها

ومن الشعراء من ينص على أن شح الحسان ساحة، كالتهامي حين يقول:

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم
فكأنهم كانوا بها أرواحا
ولقد عهدت بها فهل أرينه
مغدى لمنتجع الصبي ومراحا

(١) أبل من مرضه برئ منه. والدنف المرض. والهيماء: المريضة بالهيام وهو داء يصيب الإبل فلا تصبر على الماء.

(٢) الاعتراف: الاصطبار. وذلت: رضيت.

(٣) ممحل: أصابه المحل وهو القحط.

(٤) تلك هي نائية كثير. ولقد كان بها جد مفتون. حتى أنه سئل أنت أشعر أم جميل؟ وقال، بل أنا. فقبل لك أتقول هذا وأنت راويتهظ فقال: جميل يقول:

رمى الله في عيني بنينة بالقذى
وفي الغر من أنيابها بالقوادح
وأنا أقول:

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
لعزة من أعراضنا ما استحلت

والنافذين أسنة وصفاحا
قدرا مع القدر المتاح مُتاحا
مرض الجفون بأن يكن صحاحا
ولدي هلال رغبة وبراحا
ومن السباحة أن يكن شحاحا
وهنا من الغرر الصُّباح صباحا
وهززن من تلك القدود رماحا
وقت يكون الحسن فيه سلاحا

بالنافثات النافذات نواظرا
وأرى العيون ولا كأعين عامر
متوارثي مرض الجفون وإنما
من كان يكلف بالأهلة فليزر
لا عيب فيهم غير شح نسائهم
طرقته في أترابها فجلت له
أبرزن من تلك العيون أسنة
يا حبذا ذاك السلاح وحبذا

ويأسى ابن التعاويذي على أن يرجو عطف البخيلة، وهو جواد الكف.
وذلك قوله:

وأغريت دمع العين بالهملان
ولكنه يوم الوداع عصاني
سواءً بعادٌ عنده وتداني
مع الركب في أسر الصبابة عان
وفي يده منها الشفاء شفاني
تخرج من ليّانه فقضاني^(١)
ليملكني منكم خضيب بنان
بغير قنا أو طالب لأمان
وأخشى حديد القلب فتك جبان
فأدركتها إلا بحدّ سنان
سريّر حصان لا سريّر حصان
ديوني إذا غير الحبيب لواني

نأيت فحرمت الجفون على الكرى
وأعهد قبل البين قلبي يطعني
وما زال مطبوعا على الصبر قلبا
فما باله يوم النوى سار منجدا
فليت طبيبا أمرضتني جفونه
وليت غريمي في الهوى وهو واجد
ولولا الهوى يا آل خنساء لم يكن
ولا بت في أبياتكم سائلا قرى
أرجّي جواد الكف عطف بخيلة
وقبلك ما أنهضت عزمي لحاجة
وأولى بمثلي أن يكون مهاده
وبي أنف أن اقتضي بسوى الطبّي

(١) الليان: مصدر لويّ يقال: لوى غريمه إذا مطّله.

الأمر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب، ثم يجعل الأمر كله للحب.
كما أنشد أحمد بن يحيى:

من كان يزعم أن سيكتم حبه حتى يُشكك فيه فهو كذوب
الحبُّ أغلب للفؤاد بقهره من أن يرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه لم يبدُ إلا والفتى مغلوب
إني لأبغض عاشقا متسترا لم تتهمه أعينٌ وقلوب

وفي هذا المعنى يقول الأقرع بن معاذ القشيري في حبيبة غلبته على قلبه،
واستأثرت به من بين النساء:

يقر بعيني أن أرى ضوءَ مُزنيةٍ يمانيةٍ أو أن تهبَّ جنوب
لقد شغفتني أم بكر وبغضت إليّ نساءً ما لهن ذنوبُ
أراك من الضرب الذي يجمع الهوى ودونك نسوانٌ لهنَّ ضروب
وقد كنت قبل اليوم أحسب أنني ذلولٌ بأيام الفراق أديب

وقد وضح هذا المعنى كل الوضوح في قول الضحاك:

يقولون مجنونٌ بسمراء مولعٌ ألا حبّذا جنّ بنا وولوع
وإني لأخفي حب سمراء منهم ويعلم قلبي أنه سيشتيع
ولا خير في حبٍّ يُكنُّ كأنه شغافٌ أجتته حشا وضلوع

ومن العشاق من يخلع العذار، لروعة الحسن في محبوبه، وصولة الحب في قلبه. كقول عمارة اليميني:

ظبيُّ أعار الليل طُرة شعره وأمدّ ضوء الصبح بالإشراق
وسنانُ ذاب السحر في آماقه وأذاب ماء الروح من آماقي
كتب الجمال على صحيفة خدّه عذَرَ المحبِّ وحجة المشتاق
ما كنت أدري يوم رؤية وجهه أن الخدود مصارع العشاق

وأحب أن يتأمل القارئ جمال التصوير في قوله:

وسنانُ ذاب السحر في آماقه وأذاب ماء الروح من آماقي
فقد جعل الدمع ذوب الروح، وهو خيال بديع^(١). وعذر المحب الذي
كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء:

يا مليح الدّل والغنج لك سلطانٌ على المهج
إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاجٍ إلى السُّرُج
وجهك المعشوق حجتنا يوم يأتي الناس بالحُجج

* * *

(١) في كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمال، كتبها المؤلف في وصف ليلة من ليالي الرقص في مصر الجديدة، فليراجعها القارئ إن شاء.

حمل السلام

لشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد. فمنهم من يقصد إلى غرس
الرفق في قلوب أحبابه، بوصف ما هو عليه من الخطر، كقول الطغرائي:

ويا أيها الغادي تحمّل رسالة على ما بها إن الحديث طويل
وقل للألّى حلوا الحمى سُقي الحمى عزاءكم فالعامري قتييل

ومنهم من يوصي الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه. وأطرف ما قيل
من الشعر في هذا المعنى قول الواواء الدمشقي:

بالله ربكما عوجا على سكنى وعاتباه لعل العتب يعطفه
وحداثاه وقولا في حديثكما ما بال عبدكم بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولا في ملاطفة ما ضرّ لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما في وجهه غضبٌ فغالطاهُ وقولا ليس نعرفه

وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في وصف قوادة:

فأتتهَا طَبْطَبَةٌ عَالِمَةٌ تمزج الجدمرارا باللعب
تُغلظ القول إذا لانت لها وتراخى عند سورات الغضب

قيل إن ابن أبي عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر: ما أحوج المسلمين إلى
خليفة يدبر أمورهم مثل قوادتك هذه^(١). ولعله تذكر قول معاوية: لو أن بيني
وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل وكيف ذاك؟ فقال إذا شدوا تراخيت وإن
تراخوا شددت:

(١) في كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء.

وقد تَلَطَّفَ إليها زهير في وصية الرسول بقوله:

فيا رسولِي إلى مَنْ لا أبوح بهِ إنَّ المهماتِ فيها يعرف الرجلُ
بلغ سلامي وبالعِ في الخطاب له وقبَّل الأرض عني حينما تصل
بالله عرّفه حالي إن خلوت به ولا تُطل فحبيبي عنده مَلَل

وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله:

إنَّ المهماتِ فيها يُعرف الرجلُ

فكأنما هي قيادة حربية، لا قيادة غرامية!

ومنهم من يَحْمِلُ النسيم تحياته إلى من يهوى. كما قال بعض الظرفاء:

فيا نسيمَ الصبا أنت الرسول له والله يعلم أي منك غيرانُ
بلغ سلامي إلى مَنْ لا أكلمه إني على ذلك الغضبان غضبان
لا يا رسولِي لا تذكر له غضبي فذاك مني تمويهٌ وهتان
وكيف أغضب لا والله لا غضبٌ إني لما رام من قتلي لفرحان
أكل يوم لنا رسلٌ مرددةٌ وكل يوم لنا في العتب ألوان
أستخدم الريح في حمل السلام لكم كأنما أنا في عصري سليمان

وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب في اختيار النسيم لحمل الرسالة حين

قال:

أنا أهوى غصن النقا وهو لاهٍ وفؤادي بحبه في التيه
يانسيم الصبا ترفق عليه وتلطّف به ولا تؤذيه
وتحمّل رسالة ليس إلا لك أمينا في حملها أرتضيه
وإذا لم يكن رسولِي نسيما نحو غصن النقا فمن يثنيه

وأظهر من ذلك ما حُكي أن ابن سعيد المغربي مشى مع جماعة من أدباء
المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار. فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة،
فهبت الريح فكشفت ثيابه عنه. فقال الجزار: قفوا! لينظم كل منا شيئاً في هذا!
فقال ابن سعيد:

الريح أقودُ ما تكونُ لأنها تُبدي خفايا الردف والأعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل أوجه الغدران
ولذلك الأحباب يتخذونها رسلاً إلى الأحباب والأوطان

وهو شعر حسن. غير أنه لا وجه لذكر الأوطان في هذا الموطن إذ لا علاقة
لها بالقيادة، ولو قال الخلان أو الأخدان لكان أنسب وأقرب إلى المراد. وقال
ابن الخياط:

يا نسيم الصبا الولوع بوجدي حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رايتني شذاك فبالله متى عهدته بأظلال نجد

ومنهم من يوصي الركبان بحمل سلامه، وتبليغ شكواه، كقول الشريف:

دعا بالوحافِ السُّود من جانب الحمى لديغ هوى لبيت حين دعاني
تعجب صحتي من بُكائي وأنكروا جواي لما لم تسمع الأذنان
فقلت نعم لم تسمع الأذن دعوةً بلى إن قلبي سامع وجناني
ويا أيها الركب اليانون خبروا طليقا بأعلى الخيف أني عاني
عدوه لقائي أو عدوني لقاءه ألا ربما دانيت غير مدان

وهذا شعر موجه، يغري القلب بالحزن، والعين بالدمع، وأشجى منه قول

مهيار:

تحرش بأحقاف اللوى عمر ساعةٍ ولولا مكان الريب قلت لك ازدد

وقل صاحب لي ضل بالرمل قلبه
وسلم على ماءٍ به بُرد غُلتي
وقُل لحمام الباتين مهتئا
أعندكم يا قاتلين بقيّة
ويا أهل نجد كيف بالغور بعدكم
ملكتم عزيزا رقه فتعطفوا
لعلك أن يلقاك هادٍ فتهتدي
وظل أراك كان للوصل موعدي
تغن خليا من غرامي وغرد
على مهجةٍ إن لم تمت فكأن قد
بقاء تهامي يهيم بمنجد
على منكِرٍ للذل لم يتعود

وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال: خرجت مع الحسن بن رجاء إلى فارس فلما صرنا إلى موضع يعرف بشعب بوان رأيت على حائط مكتوبا بخط جليل:

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة
وألهاه بطنٌ كالحريرة مسّه
وطيب ثمار في رياض أريضة
فبالله يا ريح الجنوب تحملي
على شعب بوانٍ أفاق من الكرب
ومطرّد يجري من البارد العذب
وأغصان أشجار جناها على قرب
إلى شعب بوانٍ سلام فتى صبّ

وإذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه:

ليت شعري عن الذين تركتنا
أم لعل المدى تطاول حتى
خلفنا بالعراق هل يذكرونا
قدّم العهد بيننا فنسونا

ولا يفوتنا أن نمتع القارئ بقول الشريف:

حي بين النقا وبين المصلى
ورواح الحجيج ليلة جمع
وقفات الركائب الأنضاء
وبجمع مجامع الأهواء^(١)

(١) ترد كلمة «جمع» كثيرا في شعر الشريف. وهو من مناسك الحج. ويوم جمع يوم عرفة. وأيام جمع أيام منى.

وتعهد ذكرى إذا كنت بالخيار
قل له هل نراك تذكر ما كنا
قال لي صاحبي غداة التقينا
كنت خبرتني بأنك في الوجع
ما ترى النفر والترحل للبيد
لم يقلها حتى انشئت لما بي
ف لظبي من بعض تلك الظباء
ن بباب القبيصة الحمراء
نتشاكى حرّ القلوب الظماء
سد عقيدي وإن داءك دائي
من فماذا انتظرنا بالبكاء
أتلقي دمعي بفضل ردائي

دموع الغانيات

لا نريد هنا الدمع يسفحه الندم، بل الدمع يرسله الوفاء. لأن عبرة النادم
رفق بنفسه التي أفسدها الإسراف. أما عبرة المودّع فهي رفق بمحبه الذي
أشجاء الفراق!

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع:

إن الذين غدوا بلبك غادروا
غِيَضن من عبراتهن وقلن لي
وشلا بعينك ما يزال معينا
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وهو كلام فطري لا كلفة فيه. وما أبدع قول الطاعنات:

ماذا لقيت من الهوى ولقينا!

ومثله قول ابن التعاويذي:

لما وقفنا للوداع
وتخاذلت أنصهار دمعنا
قاللت وأدمعها تسي
يابين كم أجليت يو
ع وقد دعا داعي الرحيل
سي في هوى الظبي الخذول
ل أسى على الخد الأسيل
م نوى الأجنة عن قتيل

وهذا شعر خفيف الروح، لطيف النسيم. ويشبه قول بعض الأعراب:

ومما شجاني أنها ودعت تولت وماء العين في الجفن حائرُ
فلما أعادت من بعيد بنظرةٍ إليّ التفاتاً أسلمته المحاجر

وقد أنصف الأبيوردي معشوقته إذ يقول:

وما أنس لا أنس الوداع وقد بدت تُغيض دمعاً فاض وابله سكبا
مهفهفة لم ترض أرتابها لها بيد الدجى شبيها وشمس الضحى
تنفس حتى يُسلم العقدَ سلكه وأكظم وجدا كاد يتزع القلبا
وتذري شآبيب الدموع كأنها أذابت بعينها النوى لؤلؤا رطبا

ولو سلمت هذه الأبيات من مثل هذا الغزل الطريف لكان أنسب بموقف التوديع. ومثلها في ذلك قول السري الرفاء:

تنادوا لتفريق الفريق فأصبحت مدامعنا تندى لفرقتهم دما
سلام على من سار قلب محبه إليه فلم يرجع صحيحا مسلما
يحلّ عقود الدر دمعاً ومنطقا وينظمها حلياً عليه ومبسماً
أماط عن العذب اللثاة لثامه فعاد بديباج الحياء ملثماً
وكلمني جفناه بالدمع خفية فهمّ غليل الشوق أن يتكلما

ومن العشاق من ينسب إلى حبيته التباكي، وإلى نفسه مر البكاء، ثم يفرق بين العبرتين ويميز بين الزفرتين. كالأرجاني إذ يقول:

سفرت كي تزود الحب منها نظرة حين آذنت بالتنائي
ورأت أنها من الوجد مثلي ولها للفرق مثلي بكائي
فتباكت ودمعها كسقيط الطل في الجلنارة الحمراء
فترى الدمعتين في حمرة اللو ن سواء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع دمعي يصبغ الخد قانيا بالدماء

خضب الدمع خدها باحمرار كاختضاب الزجاج بالصهباء
وما أدري بأي قلب يلح هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته إلى دماء!! وما
أرفق المتنبي إذ يقول:

وجلا الوداع من الحبيب محاسنا حُسن العزاء وقد جلين قبيحُ
فيدُ مسلمة وطرف شاخص وحشا يذوب ومدمع مسفوح
ألم تر إليه وقد انخلع قلبه حين رأى حبيبته باكية، فلم يذكر إلا أنها جميلة،
وأن الصبر على فراقها أعز منالاً من نجوم السماء!

وتعجبني هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء:

زارت على غفلة من الحرس تهدي إليّ السلام في الغلس
أني تجشمت نحو أرحُنا الهو ل ولم ترهبي أذى العسس
قالت ترامى بنا إليك من الشو ق مُغصّ بالبارد السلس
كم زفرة لي تبيت تنهض أحشا ئي ودمع عليك منبجس
وأنت لا غيرنا ولنا منك هوى ممسك على النفس
عجبت من ذلتي ومن قلبك القا سي علينا وخلقك الشكس
لا تأمن الهوى وسطوته واخش رداه ومنه فاحترس

وهذا الشعر جميل في معناه، ولكن يظهر أن أسلوبه لا يمثل الرقة في نجوى
الحسناء، وقد مسها الحب بناره، وأحرقها بجواه! ولو تناول ابن أبي ربيعة أو
ابن الأحنف هذا المعنى لرأيت له ثياباً أرق من هذه الثياب، وأسلوباً غير هذا
الأسلوب!

ومن بارع الشعر في دموع الحسان قول جميل:

لما دنا البين بين الحي واقتسموا حبل النوى فهو في أيديهم قطع

جادت بأدمعها ليل وأعجلني
يا قلب ويحك ما عيشي بذي سلم
أكلما بان حي لا تلائمهم
علقتني بهوى عنهم فقد جعلت
وشك الفراق فما أبقى وما أدع
ولا الزمان الذي قد مرّ ترجع
ولا يبالون أن يشتاق من فجعوا
من الفراق حصاه القلب تنصدع

وهذا الشعر يمثل الطبيعة في مواقف الوداع، فالشاعر هنا شائق ومشوق.
ولا كذلك أبيات الرومي التي حصر دمعها في عيون زائرتة الحسناء. ومن هذه
الناحية يعجبني ما أنشده صاحب الأمالي:

ولما رأت أن النوى أجنبية
بكت فبكى من لاجع الشوق والأسى
فقلت ولم أملك سوابق عبرة
لقد كنت أبكي قبل أن تشحط النوى
وأن خليلاً من غد سيبين
وكل بكل إن يبين ضنين
على الخد مني الدموع هتون
فكيف إذا ما غبت عنك أكون

وانظر كيف يصف العرجي خوف محبوبته من فراقه:

وما أنس ملأشياء لا أنس موقفا
ولا قولها وهنا وقد بل جيبها
أأنت الذي خبرت أنك باكر
فقلت يسير بعد شهر أغيبه
وقلت لها قول امرئ شفه الهوى
فما أنا إن شطت بك الدار أو نأت
لنا ولها بالسفح دون ثبير
سوابق دمع لا يحفّ غزير
غداة غد أو راحل بهجير
وما بعض يوم غبته ييسير
إليها ولو طال الزمان فقير
بي الدار عنكم فاعلمي بصبور

وكنا نحب أن نعلم بقية العتاب في قوله:

أحين عصيت العاذلين إليكم
وباعدني فيك الأقارب كلهم
ونازعت حبلي في هواك أميري
وباح بما يخفي اللسان ضميري

ولكن الرواة لم يذكروا هذه القصيدة كاملة.

والشعر الذي تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل، لأنه من أحاديث الرجال. ولو أن المرأة تكلمت لعرفنا منها وكيف تشعر بلوعة الفراق. وإليك ما قالته امرأة من بني أسد في حبيب بنقض العهد:

بنفسي من أهوى وأرعى وصاله وتنقض مني بالمغيب وثائقه
حبيب أبي إلا اطراحي وبغضتي وفضله عندي على الناس خالقه
وانظر قول ابنة الحباب:

محا حب يحى حب يعلى فأصبحت ليحى توالي حبا وأوائله
ألا بأبي يحى ومثنى ردائه وحيث التقت من متن يحى حمائله
فإن هذا الشعر يمثل إحساس النساء بجمال الرجال. وما أوجع الشوق في قول هذه الشاعرة:

أأضرب في يحى وبينى وبينه تنائف لو تسري بها الريح كلت
ألا ليت يحى يوم عيهم زارنا وأن نهلت مني السياط وعلت

وفي الآداب العربية قطع منشورة تمثل ما تشتهي المرأة من الرجل، ولكنها من القلة بحيث لا تصور تماما نفوس النساء، ولا تزال لغزا من الألغاز، ولو أنها تحدث عن عواطفها كما تحدث الرجل عن عواطفه، لعرفنا بعض ما ستره هذا الصمت البليغ!

ندم المفارقة

أشهر الشعر في ندم المحب، على فراق من يحب، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبنى. قال محمد بن زياد الأعرابي: لما ألحَّ ذريح على ابنه قيس في طلاق لبنى، فأبى ذلك قيس، طرح ذريح نفسه في الرمضاء وقال: لا والله. لا أريم هذا الموضوع حتى أموت. أو يخليها. فجاءه قومه من كل ناحية، فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا: أتفعل هذا بأبيك وأمك، وإن مات شيخك على هذه الحال كنت معينا عليه وشريكا في قتلهن ففارق لبنى على رغم أنفه وقلة صبره. وبكى حتى بكى لهما من حضرهما. وأنشأ يقول:

أقول لخلتي في غير جرم ألا بيني بنفسك أنت بيني
فوالله العظيم لنزع نفسي وقطع الرجل مني واليمين
أحبَّ إليَّ يا لبنى فراقا فبكى للفراق وأسعديني
ظلمتك بالطلاق بغير جرم لقد أذهبت آخرتي وديني

قال: فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديدا وأنشأت تقول:

رحلت إليه من بلدي وأهلي فجازاني جزاء الخائنين
فمن يرني فلا يغترَّ بعدي بحلو القول أو يبلو الدفينا

فلما انقضت عدتها وأرادت الشخصوص إلى أهلها أتيت براحلة لتحمل عليها. فلما رأى ذلك قيس داخله منه أمر عظيم، واشتد لهفه، وأنشأ يقول:

بانت لبني فأنت اليوم متبول وأنك اليوم بعد الحزم مخبول
فأصبحت عنك لبنى اليوم نازحة ودل لبنى، لها الخيرات، معسول
هل ترجعن نوى لبنى بعافية كما عهدت ليالي العشق مقبول

وقد أراني بلبنى حق مقتنع
فصرت من حب لبنى حين أذكرها
أصبحت من حب لبنى حين أذكرها
والجسم مني منهوك لفرقتها
أستودع الله لبنى إذ تفارقني
والشمل مجتمع والحبل موصول
ألقب مرتهن والعقل مدخول
في كربة ففؤادي اليوم مشغول
أخو هيام مصاب القلب مسلول
عن غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبنى فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الأرض وحول
خبائها فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعدل واللوم، فقال ذريح لما رأى
حاله: قد جنيت عليك يا بُني! فقال له قيس: قد كنت أخبرك أني مجنون بها فلم
ترض إلا بقتلي: فالله حسبك وحسب أُمي!! وأقبل قومه يعذلونه بتقيله
التراب، فأنشأ يقول:

فما حبي لطيب تراب أرضٍ ولكن حب من وطئ الترابا
فهذا فعل شيخنا جميعا أراد لي البليّة والعذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم، وأدّل على لوعته وأسفه لفراق لبنى
كقوله:

تبكي على لبنى وأنت تركتها
فلا تبكين في إثر شيء ندامة
فليس لأمر حاول الله جمعه
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها
فيا قلب خبرني إذا شطت النوى
أتصبر للبين المشت مع الجوى
فما أنت أن بانتي لبني بهاجع
وكيف ينام المرء مستشعر الجوى
وكنت كآتٍ غيه وهو طائع
إذ نزعته من يدك النوازع
مُثِثٌ ولا ما فرق الله جامع
وإن تلقها فالقلب راض وقانع
بلبنى وصدت عنك ما أنت صانع
أم أنت امرؤ ناسي الحياء فجازع
إذا ما استقلت بانيام المضاجع
ضحيج الأسى فيه نكاسٌ روادع

ليبنى ولم يجمع لنا الشمل جامع
لما حملته بينهن الأضالع
شقائى برق في السحاب لوامع
لي الليل هزتنى إليك المضاجع
ويجمعني بالليل والهملّ جامع
وهل جزع من وشك بينك نافع

ولا خير في الدنيا إذا لم تُواتنا
ولولا رجاء القلب أن تعطف النوى
له وجباتٌ إثر لبنى كأنها
نهاري نهار الناس حتى إذا دجا
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى
ألا إنما أبكي لما هو واقع

ومن جيد شعره أيضا هذه القصيدة:

وإن كان صرم الحبل منك يروغ
عن البلد النائي البعيد نزيع
وإن نال جسمي للفراق خشوع
بشرقيّ لبنى صيفٍ وربيع
وما ذاك من فعل الرجال بديع
فهل لي إلى لبنى الغداة شفيع
بذي سلم لأجادكن ربيع
بلى بللى لم تبلهن ربوع
هي اليوم شتى وهي أمس جميع
ذكرتك وحدي خاليا لسريع
حمام ورق في الديار وقوع
نوائح ما تجري لهن دموع
لعاص لأمر المرشدين مُضيع
كما يندم المغبون حين يبيع
أبت كبد مما أجنّ صديع
يؤرقني والعاذلات هُجوع

سأصرم لبنى حبل وصلك مجملا
وسوف أسلي النفس عنك كما سلا
وإن مسني للضرّ منك كآبة
سقى طلل الدار التي أنتم بها
يقولون صبّ بالنساء مُوكل
مضى زمن والناس يستشفعونني
أيا حرجات الحي حيث تحملوا
وخيماتك اللاقي بمنعرج اللوى
إلى الله أشكونية شقت العصا
وإن انهال العين بالدمع كلما
فلو لم يهجنني الظاعنون لهاجنى
تجاوبن فاستبكين من كان ذا هوى
لعمرك إني يوم جرعاء مالك
ندمت على ما كان مني، فقدتني
إذا ما لحاني العاذلات بحبها
وكيف أطيع العاذلات وحبها

عدمتك من نفس شعاع فيأني نهيتك عن هذا وأنت جميع
 فقربت لي غير القريب وأشرقت هناك ثنايا ما هُنَّ طلوع
 وضعفني حبيك حتى كأنني من الأهل والمال التلاد خليع
 وحتى دعاني الناس أحق مائقا وقالوا مطيع للضلال تبوع
 ويعجبني قوله:

ندمت على ما كان مني، فقدتني! كما يندم المغبون حين يبيع
 وهو في شعره يمثل الفطرة الخالصة من شوائب التكلف، فإنه فجع بفر
 جليلته، والحليلة المعشوقة متاع عزيز.
 وفي وصف أثر الطلاق يقول أحد الأعراب:

ندمت وما تغني الندامة بعدما جرجن ثلاث ما هُنَّ رجوع
 ثلاث يُجرّ من الحلال على الفتى ويصدعن شعب الدار وهو جميع
 والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق، ما كان يغني عنه أن يقول: (ويصدعن
 شعب القلب) لأن فراق الحليلة هدم للبيت من أساسه.
 ومن شجى الشعر في ندامة المفارق عينية بن زريق، وقد ترك ابنة عمه
 ببغداد ورحل إلى الأندلس في سبيل الرزق، ثم حيل بينه وبين ما يريد، فأرسل
 هذه الزفرة الباقية:

أستودع الله في بغداد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزارار مطلعة
 ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه
 وكم تشفع بي أن لا أفارقه وللضرورات حال لا تشفعه
 وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه
 لا أكذب الله ثوب العذر منخرق مني بفرقه لكن أرقعه

إني أوسع عذري في جنائته
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته
ومن غدا لا بسا ثوب النعيم بلا
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته
كما قائل لي ذنب البين قلت له
هلا أقمت فكان الرشيد أجمعه
لو أنني لم تقع عيني على بلد
يا من أقطع أيامي وأنفدها
لا يطمئن بقلبي مضجع وكذا
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
وكنت من ريب دهري جازعا فرقا
بالله يا منزل القصف الذي درست
هل الزمان معيد فيك لذتنا
في ذمة الله من أصبحت منزله
من عنده لي عهد لا يضيع كما
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا
لأصبرن لدهر لا يمنعني
علما بأن اضطباري معقب فرجا
علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا
وإن تغل أحدا منا منيته
وإن يدم أبدا هذا الفراق لنا

بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
كذلك من لا يسوس الملك يخلعه
شكر عليه فعنه الله ينزعه
كأسا يُجرّع منها ما أجرعه
الذنب والله ذنبي لست أدفعه
لو أنني حين بات الرشيد أتبعه
في سفرتي هذه إلا وأقطعه
حرنا عليه وليلي لست أهجعه
لا يطمئن به مذ بنت مضجعه
به ولا أن بي الأيام تفجعه
عسراء تمنعني حقي وتمنعه
فلم أوق الذي قد كنت أجزعه
آثاره وعفت مذ بعثت أربعه
أم الليالي التي أمضته ترجعه
وجاد غيث على مغناك يُمرعه
عندي له عهد صدق لا أضيعه
جرى على قلبه ذكرى يصدعه
به ولا بي في حال يمتععه
فأضيق الأمر لو فكرت أوسعه
جسمي ستجمعني يوما وتجمعه
لا بد في غده الثاني سيبعه
فما الذي بقضاء الله نصنعه

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومي في فرصة ضاعت منه فعرض
من بعدها البنان. فلنذكرها على سبيل الفكاهة، لما فيها من ظرف المجون:

أستغفر الله من تركي علانية	ذنباً هممت به في شادن خنث ^(١)
ظبيّ دعني عيناه ومنطقه	بنية صدقت عن ظاهر عبث
فلم أجبه وحظي في إجابته	لكن سكّت كأني غير مكترث
لا بل فررت وظل الصيد يطلبني	والله ما كنت فيها بالفتى الدّمث
أقسمت بالله لما كنت محتجزاً	أني ابنعشت بقلب غير منبعث

* * *

(١) الشادن: الغزال. والخنث: المتشّى.

غربة المحب

نتكلم قليلا عن غربة المحب، وكل مهجور غريب، لأن الأمر كما قال الشريف:

ليس الغريب الذي تنأى الديار به إن الغريب قريبٌ غير مودود

فمن الشعراء من يغترب في سبيل حبه. كما قال حذيفة الغنوي:

يقولون من هذا الغريب بأرضنا أما والهدايا إنني والغريب
غريب دعاه الشوق واقتاده الهوى كما قيد عود بالزمام أديب^(١)
وماذا عليكم أن أطاف بأرضكم مطالب دين أو نفته حروب
أمشي بأعطان المياه وأبتغي قلأئص منها صعبة وركوب

ومن شجي الشعر في غربة المحب قول بعض الأعراب:

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة غزال كحيل المقلتين ريب
فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ولكن من تنأين عنه غريب

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يذكر اختصاصه بالبلوى في اغتراب محبوبته:

أرى كل أرض دمتها وإن مضت لها حججٌ يزداد طيبا تراها^(٢)
ألم تعلمن يا رب أن رب دعوة دعوتك فيها مخلصا لو أجاها
وأقسم لو أني أرى نسبا لها ذئاب الفلا حُبت إليّ ذئابها

(١) العود الجمل، وأديب ذلول.

(٢) دمتها: مشت عليها.

لعمري ليلي لئن هي أصبحت بوادي القرى ما ضرّ غيري اغترابها
وغربة المحب تتمثل في حرمانه. وكيف لا يكون غريبا من يقول:

أيا منشر الموتى أقدني من التي بها نهلت نفسي سقاما وعلّت
لقد بخلت حتى لو أني سألتها قذى العين من ساقى التراب لضنت
وما أمّ بوّ هالك بتنوفة إذا ذكرته آخر الليل حنت
بأكثر من لوعة غير أنني أطامن أحشائي على ما أجنت

ويظهر أن قذى العين كان في أنفوس العرب مثلاً لما لا يضمن به، فقد ردّدوا
ذكره في أشعارهم، كما قال بعض بني أسد:

وكيف طلابي وصل من لو سألته قذى العين لم يطلب وذاك زهيد^(١)
ومن لو رأى نفسي تسيل لقال لي أراك صحيحا والفؤاد جليد

* * *

(١) أطلبه: أعطاه ما طلب.

الأمل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع، ونقلها إلى الفرنسية حضرة الأديب عبد المجيد عيسى البيه. وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر، بعد قسوة الإخفاق.

* * *

تأيمت حتى لامني كل صاحب رجاء سُليمي أن تئيم كما إمت
لئن بعث حظي منك يوماً بغيره لبئس إذا يوم التغابن ما بعث

كنت أصبح على بأساء الحياة، وأحتمل ما فيها من هم وغم، لو أن عندي
بقية من الأمل أرفّه بها أحزاني، وأدفن فيها آلامي! ولكن حال القنوط دون
الرجاء، وأتى اليأس دون الطمع، فلم يبق غير الجزع من مُسعد، ولا سوى
النوح من شفاء!

فيا جيرة ما كان أهناً وردهم، وأطيب عيشهم، ويا أحبابا ذقت الفرح
بقربهم، وعرفت الهمّ لبعدهم، ويا من أفناني فراقهم، وكان أحياني لقاءهم،
وبربكم ما الذي لقيتم بعدي، فقد لقيت بعدهم ذلاً وهواناً، وظلماً وعدواناً،
ومن عسى أن يكون قد ظفر بودكم، ونعم بحسنكم، فأصفاكم من الحب
أجمله، ومن الأنس أكملهن فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتين وأنكر
خلتي، ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب، وأوليته القرب فأولاني القطيعة؟!

فيا ليت شعري من ألوم؟

أألوم نفسي على أن لم أعق في بركم أهلي وإخواني، فأسير حيث سرتهم،
وأقيم حيث أقمتهم.

تفرّق أهلي من مقيم وظاعن فيا ليت شعري أي أهلي أتبع
أقام الذين لا أبالي فراقهم وشطّ الذين بينهم أتوقع

أم ألومكم على أن تركتموني وحيدا وآثرتم وطنكم، وأهلكم، ولم تبالوا
بمن خلفتموه طريق حزنه، وأسير همه؟

أم ألوم قوما جعلتهم منكم بدلا فكانوا شر بدلا، واتخذتهم من بعدكم
ذخرا فكانوا كالهباء، ورجوتهم حصنا أنقي به الدهر الخائن، والزمن الجائر،
فإذا هم أذل من قراد بمنسم، وإذا المتفئ ظلمهم، والراجي برهم، يطمع في غير
مطمع، ويلجأ إلى شر وزر؟!

ألم ألوم دهرًا اضطرّكم إلى الرحلة فرحلتهم، وحكم عليّ بالمقام فأقمت،
ثم أمدنا من اليأس لبعد الدار، وشطّ المزار، ما جعل الأمر في التلاقي خائبا،
ورجاء التداني كاذبا:

وقلما أبقى على ما أرى يوشك أن ينعاني الناعي
ما أقتل اليأس لأهل الهوى لا سيما من بعد إطماع

ما هذا الذي صنعتم؟ أخضعتم لليأس، وأذعنتم للقنوط، ولم ترهبوا
العتاب إذ لم تأملوا اللقاء، فزففتم تلك الشمس إلى غيري، وآثرتم بها سواي؟!

يا عزّ إن ضاعت عهودي عندكم فأنا الذي استودعت غير أمين
أو عدت مغبونا فما أنا في الهوى لكم بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فمللتم - ولا وفاء للول - فكان منكم ما أقضّ
المضجع، وأورث الجفن السهاد، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا ونال القنوط
منا؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء.

هي الغاية القصوى فإن فات نيلها فكل مُنى الدنيا عليّ حرام

* * *

وقد نظرت ما قال الشعراء في الأمل الضائع، ووجدت لهم فيه أفانين،
فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق، كالذي يقول:

جارية أعجبها حسنها فمثلها في الناس لم يُخلق
خبرتها أني محب لها فأقبلت تضحك من منطقي
والتفتت نحو فتاة لها كالرشا الوسنان في قرطق
قالت لها قولي لهذا الفتى انظر إلى وجهك ثم اعشق^(١)

ومن جيد الشعر في ضياع الأمل قول عمر بن أبي ربيعة في سكينه بنت
الحسين:

قالت سكينه والدموع ذوارف تجري على الخدين والجلباب
ليت المغيري الذي لم أجزه فيما أطال تصيدي وطلابي
كانت تردّ لنا المنى أيامنا إذ لا نلام على هوى وتصابي
خبرت ما قالت فبت كأنها يُرمى الحشا بنوافذ النشاب
أسكين ما ماء الفرات وبرده مني على ظمأ وفقد شراب
بألد منك وإن نأيت وقلما يرعى النساء أمانة الغياب

(١) رواية صديقنا الدكتور إبراهيم زكي الساعي لهذا البيت هكذا (انظر لأسنانك ثم أعشق) لأن
بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند أطباء الأسنان.

أن تبذلني لي نائلاً أشفي به
وعصيت فيك أقاربي فتقطعت
فتركتني لا بالوصال ممسكا
فقعدت كالمهريق فضلة مائه
سقم الفؤاد فقد أطلت عذابي
بينني وبينهم عرى الأسباب
منهم ولا أسعفتني بثواب
في حرهاجرة للمع سراب

ولم أر من الشعراء من بكى الأمل الضائع كما بكاه كثير في قوله:

وأدنينني حتى إذا ما استيتتني
توليت عني حين لا لي مذهبٌ
بقول يُحل العصم سهل الأباطح
وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وهي صورة شعرية تمثل المحب، وقد استدرجه محبوبه، حتى أخذ الطمع بنواصي آماله، ثم تركه في اللحظة الأخيرة، يتعثر في أذيال الخيبة والقنوط!

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

كم قد نصبت لك الحبائل طامعا
وتركتني ظمآن أشرب غُلتي
فنجوت بعد تعرض لوقوع
أسفا على ذاك اللمى الممنوع

ومن الأمل الذاهب أن يكون من تحبه من بلد غير بلدك، وقوم غير قومك، كما قال نُصيب:

أرق المحب وعاده سُهدَه
وذكرت من رقت له كبدي
لا قومه قومي، ولا بلدي
ووجدت وجدا لم يكن أحداً
لطوارق الهم التي تردّه
وقسا فليس ترق لي كبده
فنكون حيناً جيرة بلده
من أجله بصباية يجده

ونصيب يتحدث كثيرا عن عقم الأمانى، حتى ليقول:

ألا هل على البين المفرق من بدّ
تمنيت أيام أولئك والمنى
وهل مثل أيام بمنقطع السدّ
على عهد عادٍ ما تعيد وما تبدي

الكتمان

من الشعراء من لا يهتم من الكتمان غير ستر تفاصيل الود. وأسرار
القرب، ولا يرى بعد ذلك حرجا في ذكر اسم من يحب، كما قال جميل:

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت عليّ موثقا وعهودا

وإنه لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده، تضليلا للوشاة، لكان هذا
البيت من سخف القول، وهذره. وإليك ما يقول من كلمة ثانية:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم صدق الواشون أنت حبيبة إليّ وإن لم تصفُ منك الخلائقُ

فإنه يدل على أنه لا يبالي أن يعرف بحبها. حتى قال الناس: جميل بثينة كما
قالوا مجنون ليل. ويذكر أبو علي القالي أن البيت السالف لكثير، وأنه ذكر بثينة
تورية عن حبيبته، وهذا فيما أرى غير حتم، لأن كثير ما كان يعدل عن عزة إلا
لضرورة الشعر. كقوله:

كفي حزنا للعين أن رد طرفها لعزة غير آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى إذا لغلي
توليت محزونا وقلت لصاحبي أقاتلتي ليل بغير قتيل

فقد ذكر عزة عند مواتاة الشعر، وليلي عند معاصاته، وهو نوع من
التلاعب بالأسماء الذي كثر في شعر العرب. وقال كثير من قصيدة أخرى:

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم إذا غاله من حادث الدهر غائله
ويخفي لكم حبا شديدا ورهبة وللناس أشغالٌ وحبك شاغلُه

كريمٌ يُميت السر حتى كأنه إذا حدثوه عن حديثك جاهله
يودُّ بأن يمسي سقيماً لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويجهد للمعروف في طلب العلا لتُحمد يوماً عند عز شمائله

وهو في هذا الشعر لا يكتُم اسم من يهوى، وإنما يكتُم أحاديث الحب،
وأسرار الصباية، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي:

ومستخبرٍ عن سر ريارددته بعمياء من رياء بغير يقين
فقال انتصحنني إنني لك ناصح وما أنا إن خبرته بأمين

وهذا العباس بن الأحنف كان من أكثر المحبين كتماناً، ولكنه صرح باسم
محبوبته فوز، ولقد بلغ من حسد إحدى جاراته له أن سمت جاريته «فوز» وقد
قال في ذلك:

ما ينقضي عجبني من جهل حاسدة كانت بذى الأثل من خدني وأنصاري
سمت وليدتها فوزاً مغايظة عذرت لو لطمتني ذات أسوار
وما يزال نساء من قرابتها في كل ناحية يهتكن أستاري

ومسلم بن الوليد يتغنى بكتُم تباريح الصباية في قوله:

وما نلت منها نائلاً غير أنني بشجو المحبين اللألى سلفوا قبلي
بلى ربما وكلت نفسي بنظرة إليها تزيد القلب خبلاً على خبل
كتمت تباريح الصباية عاذلي فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل
وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله:

بنفسي التي ضنت عليّ بوصلها ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
وإن حكمت جارت علي بحكمها ولكن ذاك الجور أحلى من العدل
وأحببت فيها العذل جبالذكرها فلا شيء أحلى في فؤادي من العذل

وهو يذكرنا بقول أبي الشيص الخزاعي:

أجد الملامة في هواءك لذيذة حباً لذكراك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وقول ابن نباتة المصري:

لثمت ثغر عدولي حين سمّك فلذ حتى كأي لاثم فاك
ومن العشاق من يكتم الهوى جملة واحدة كقول ابن قلاقس:

كتمت الهوى عند العواذل ضنة عليهم بمن أصبو إليه وأهواه
ولو قلت أني عاشق فطنوا له لعلمهم أن ليس يُعشق إلا هو
وهو مذهب غريب، وأغرب منه مذهب من يقول:

وقائلة ما بال جسمك لا يرى سقيماً وأجسام المحبين تسقم
فقلت لها قلبي بحبك لم يبح لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم
وللعباس بن الأحنف شجون من الحديث عن الكتان، فتارة يذكر أنه باح
بحبه حين طال بلاؤه. كقوله:

هذا كتاب بدمع عيني أملاه قلبي على لساني
إلى حبيب كينت عنه أجل ذكر اسمه لساني
قد كنت أطوي هواءه عنه مذ كنت في سالف الزمان
فبحت إذ طال بي بلائي ولم يكن لي به يـداني

وهو هنا يكتّم حبه عن محبوبه، فضلاً عن الناس. وتارة يذكر أنه سيموت
مكتوم السر إلا عمن يحب. فيقول:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني في الهوى رقدوا

واستنهضوني فلما قمت متصباً
جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم
لأخرجنّ من الدنيا وحبكم
حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم
بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
بين الجوانح لم يشعر به أحد
قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجد

وحينا يذكر أنه سلا، لينصرف الناس عن التحدث بحبه رفقا بمحبوبته
فيقول:

كذبت على نفسي فحدثت أنني
ولا من قلبي مني ولا عن ملالة
عظفت على أسراركم فكسوتها
وقد يعتذر عن هجره فيقول:

الله يعلم ما أردت بهجركم
وعلمت أن تباعدي وتستري
إلا مصانعة العدو الكاشح
أدنى لوصلك من دنو فاضح
وأحلى من هذا قوله في تعيين الغرض من الصدود:

سأهجر إلفي وهجرانها
كلانا محب ولكننا
إذا ما التقينا صدود الخدود
ندافع عن حينا بالصدود

وتأمل قوله «صدود الخدود» يريد بذلك أن كلا منهما يصدف بخده عن صاحبه، أما القلوب فهي في ائتلاف. وطورا يكتفي بحديث العيون، كقوله:

كلانا مظهر للناس بغضا
تخبرنا العيون بما أردنا
وكل عند صاحبه مكين
وفي القلبين ثم هوى دفين

وقد يسرّ الحزن، ويبيد السرور، مبالغة في التستر، كقوله:

عيون العائدات تراكِ دوني
فيا حسدي لعيني من يراكِ

أريدك بالكلام فأتقيهم وأعمد بالكلام إلى سواك
وأكثر فيهم ضحكي ليخفى فسني ضاحك والقلب باك

وقد أفصح عن ضرورة الكتمان بقوله:

سأستر والستر من شيمتي هوى من أحب بمن لا أحب
ولا بد من كذب في الهوى إذا كان دفع الأذى بالكذب

وربما تمنى لو استطاع أن يكاتم قلبه الحب. فيقول:

إذا لم يكن للمرء بد من الردى فأكرم أسباب الردى سبب الحب
ولو أن خلقا كاتم الحب قلبه لمت ولم يعلم بحبكم قلبي
إذا قيل تقريـك السلام تماسكت حشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب

وقد ييأس من كتم الحب فيقول:

أما الهوى فهو شيء لا خفاء به شتان بين سبيل الغيِّ والرشد
إن المحبين قوم بين أعينهم وسمُّ من الحب لا يخفى على أحد

وقد يبالغ بالكتمان حتى يضل الناس من أجل حبه في بيداء من الظنون،
ليس ليل نهار، كما يقول:

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا وفرّق الناس فينا قولهم فرقا
فجاهلٌ قد رسى بالظن غيركم وصادق ليس يدري أنه صدقا

وقد ذكروا أن العباس بن الأحنف مات هو وإبراهيم الموصلي والكسائي
في يوم واحد. فرفع ذلك إلى الرشيد. فأمر المأمون أن يصلي عليهم. فصفوا بين
يديه. ثم سأل عنهم واحدا واحدا وأمر بتقديم ابن الأحنف فصلى عليه. فلما
فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال: يا سيدي
كيف أثرت العباس بالتقدمة على من حضر؟ فأنشده المأمون هذين البيتين:

سمّاك لي ناس وقالوا إنها لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إني ليعجبني المحب الجاحد

ثم قال أت حفظهما؟ فقال نعم. فقال: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة
فقال بلي يا سيدي! ^(١).

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول قيس بن ذريح:

لو أن أمرا أخفى الهوى عن ضميره لمت ولم يعلم بذلك ضمير
ولكن سألقى الله والنفس لم تبج بسرّك والمستخبرك كثير

ومن الشعر الموجه في الكتمان قول جاهر بن عبد الحكيم الكلبي:

قضى كل ذي دين فوق غريمه ودينك عند الزاهرية ما يُقضى
أكاتم في حبي ظريفة بالتي إذا استبصر الواشون ظنوا به بغضا
صدودا عن الحي الذين أودهم كأني عدو لا يزور لهم أرضا
ولم يدعُ باسم الزاهرية ذاكرٌ على آلةٍ إلا ظللنا لها مرضى
وما نفع الهيمان بالشرب بعدهم ولا ذقت العينان مذ فارقوا غمضا

وقد يتهم المرء بحب من لا يحب، فيتمنى لو تصدق التهمة، كما قال
صاحب البدائع:

عجبت لهم أني رموني بحبها ولا مهجتي رهنٌ لديها ولا قلبي
فيارب صدق في هواها عواذلي فإن عناء أن ألام بلا ذنب
وإلا فلا تقطع عليّ ملامهم فإن ملام المرء فاتحة الحب

(١) وضع صاحب البدائع كتابا خاصا سماه «صباية ابن الأحنف» تناول فيه بالتفصيل حياة هذا الشاعر الوجدانية، ووازن بينه وبين ابن أبي ربيعة وأبي نواس.

طرفة أدبية

قال بعضهم لمحبوبته:

سري وسرك لا يعلم به أحد إلا الإله وإلا أنتِ ثم أنا

فقلت له لا تنس القوادة، فعندها الخبر اليقين!

* * *

قصوة التجني

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود. وأكثروا القول كذلك عن قسوة التجني، فمن ذلك قول ابن نُبَّاة السعدي:

يا دهر لا غفلات العيش عائدةً ولا الشباب الذي أبليت فيه
إن كنت تمتع سُعدى من مطالبها فلست تمنع سعدى من تمنيتها
لله نغمة أوتارٍ ومسمعةٌ باتت تدل على شوقي أغانيها
وقهوةٌ كشعاع الشمس طالعة أفنيت بالمزج فيها ريق ساقها
لو كنت أخضع في الدنيا لنائبة خضعت من هجرها أو من تجنيها
تستعذب الدمعَ عيني في محبتها كأن ما تتريه العين من فيها

وما أجمل قول ابن الرومي:

يا عليلاً جعل العلى عة مفتاحاً لظلمي
ليس في الأرض عليلاً غير جفنيك وجسمي

وقد كتبت الأنسة حياة فهمي كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها في الصباح: فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتي بقوله:

تلوم حياةً على العاشقين رويدا ورفقا بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلمت المحبَّ هنيئاً لعينيك في الناعسات

ثم نسأل صاحب البدائع عن رأيه في تجني هذه الفتاة. فأجابه بما نصه: «يرى سيدي الشاعر أن الأنسة حياة جهلت الحب، فلامت المحبين. ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب. لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء. يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون. فإذا قال السياسي (لا

فاعلم أنه يريد (نعم) وإذا قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) وإذا قالت المرأة (لا أحب) فاعلم أنها (تحب) وإذا زعمت أنها (كارهة) فاعلم أنها (راضية) فإن كنت في ريب من ذلك يا صديقي الأديب فإني أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الأفكار سنة ١٩١٩:

عهد السياسة كاذبٌ لله دركٍ يا ساجاج!

وقد قال (تاسو) أحد شعراء إيطاليا: إن المرأة تفر، وتود أن تلحق وهي فارة: وتأبى، وتود في إباطها أن تُسرق. وتناضل، وترغب أن يظفر بها في النضال!!

فقول الآنسة حياة «لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» معناه إن الحب صيرها باكية العين، دامية الفؤاد! وقولها «الحب عدو لدود للإنسان، فيجب أن يُبعد عن القلوب» معناه أن الحب مادة الحياة. فيجب أن تزود به القلوب! وقولها «تباعدوا عن الحب» معناه أقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم، أيها الشباب!

هذا يا صديقي ما تريده الآنسة حياة فهمي! فهي حين تقول «لعن الله الحب» إنما تريد «حيا الله الحب» وأنت بما تريد عليم!

ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة هذا السؤال:

إنك تأمريننا بأن لا نحب (سمعا وطاعة!) ولو أني سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاما لنجوت من الحب. ولا سترحت الآن من تسطير مدامع العشاق، ولكني يا مولاتي لسوء الحظ قد أحبيت، وقد ضربت بمحبتتي الأمثال، وأريد أن أسلم من الحب على يدك الطاهرة، جعل الله في يمنك

الشفاء، من كل داء، فهل لك أن تصفي لي طريق الخلاص من هذا الضلال
القديم، ومن أسماء الحب الضلال؟

أنا في انتظار الجواب!

ملحوظة - أرجو أن تحترس الأنسة حياة، وهي تكتب أنواع العقاقير، من
أن تنهاني عن التطلع إلى العيون، والحدود، والثغور، والنحور، والنهود، فإنه لا
سبيل إلى مثل هذا المتاب!! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبت بأفنان الجمال، كما يُرد
الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساقى الجميل!!

وقد رد السيد حسن القاياتي على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة
في الإيجاز لأمتعنا به القارئ، ومن السهل الرجوع إليه في كتاب البدائع.

وقد حَسُنَ التجني في قول أحد الشعراء:

صَدَّ عَنِّي مُحَمَّدٌ بَنُ سَعِيدٍ أَجْمَلُ الْعَالَمِينَ ثَانِي جَيْدٍ
لَيْسَ مِنْ بَغْضَةٍ يَصْدُ وَلَكِنْ يَتَجَنَّى لِحَسَنِهِ فِي الصَّدُودِ

* * *

ظلم الحبيب

وفي الحب وحده يخلو الظلم حتى لتحكم عُلْيَة بنت المهدي بأن الحب بُني عليه. وتقول:

وُضِعَ الحُبُّ عَلَى الجَّوْرِ فلو
ليس يستحسن في شرع الهوى
أنصف المعشوق فيه لمُسْجُ
عاشقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الحُجَجِ
وقال النميري:

راحتني في مقالة العُدَالِ
لا يطيب الهوى ولا يحسن
وشفائي في قيلهم بعد قالِ
الحب لصبٍ وهجرة وتقال

ويعلل بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله:

لولا اطراد الصيد لم تك لذّة
هذا الشراب أخو الحياة وماله
فتطارد لي في الوصال قليلا
من لذة حتى يصب غليلا
ومثله قول الآخر:

دع الصبّ يصل بالأذى من حبيبه
غبار قطيع الشاء في عين ذئبها
فإن الأذى ممن تُحب سرورُ
إذا ما تلا آثارهنّ ذرور
وأنشد الأصمعي:

لا خير في الحب وقف لا تحرّكه
لو كان لي صبرها أو عندها جزعي
عوامل اليأس أو يقتاده الطمعُ
لكنك أملك ما آتي وما أدع
كادت له شعبةٌ من مهجتي تقع
ما كلف الله نفسا فوق ما تسع
إذا دعا باسمها داعٍ ليحزنني
لا أحمل اللوم فيها والغرام بها

ومن جيد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النميري:

رمتني وسِتر الله بيني وبينها
رميم التي قالت لجارات بيتها
ألا ربَّ يومٍ لو رمتني رميتها
فيا عجباً من قاتلٍ لي أودَّه
يرى الناس أني قد سلوت وأنني
ولكن بأكناف الحجاز رميم
ضمنت لكم أن لا يزال يهيمُ
ولكنَّ عهدي بالنضال قديم
أشاط دمي شخص عليّ كريم
لمدنف أحشاء الضلوع سقيم

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ.

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي:

أصبحت مملوكاً لأحسن مالِك
لم يَعهْ أرقي وفيه لقيتهُ
كلا ولا دمعي وفيه سفحته
لا مَسَّه بعقوبةٍ من ربهِ
ياليت شعري هل يبيتُ معانقي
هل أنت مُنصف عاشقٍ متظلمٍ
قسماً لقد خيمت منك بمنزلٍ
مابال ثغرك مشرباً لي سُكره
نفسي معذبةٌ به من دونه
ولو كان كمل حسنه إسجاحه
حتى أضرب بمقلتي إلحاحه
حتى أضرب بوجنتي تَسفاحه
إقلاقه قلبي ولا إتراحه
ويداي من دون الوشاح وشاحه
طول النحيب شكاته وصياحه
لي حرفه ولمن سواي بطاحه
ولمن سواي فدتك نفسي راحه
ويباحه دوني ولست أبأحه

وأحب لو تأمل القارئ قول الشريف:

ولي ناظرٌ بعد بين الخليـ
رواءٌ من الماء أمأقـه
ط مات من الدمع إنسانه
ظماءٌ من النوم أجفانه

وَأَيْنَ مِنَ الْقَلْبِ سُلوَانُهُ
كثيراً على القلب أعوانه
وتفلق عندك أثمانه^(٢)
أساء وما نيل إحسانه

فأين من الداء إفراقه^(١)
فيا ظالماً طيماً ظلمه
يباع بسومك حبُّ القلوب
وشر الإساءة من مالِكٍ
وقال نُؤيب:

دمي لا تطلبوه لها حلالٌ
على سُعدى وإن قل النوال
يمينٌ من سعادٍ ولا شِمال

أيا ثارات من قتلتها سعدي
أرق لها وأشفق بعد قتلي
وما جادت لنا يوماً ببذل
ونؤيب هذا هو الذي يقول:

شعاعاً وقلباً للحسان صديقُ
زماناً وقلبي ما أراه يُفريق
أموت لما أرعى عليّ شفيق

ألا في سبيل الله نفسٌ تقسّمتُ
أفاقت قلوبٌ كن عذّبن بالهوى
عصيت بك الناهين حتى لو أنني

* * *

(١) أفرق من دائه أبرئ منه.

(٢) غلق الثمن: ضاع.

قصة القلوب

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب، وغلظ الكبد، ومحسب ابن الأحنف أن قلوب الحسان قُدت من الصخر. فيقول:

أظن وما جربت مثلك إنما قلوب نساء العالمين صخور
ذريني أنم إن لم أنل منك زورة لعل خيالاً في المنام يزور
بكِت إلى سرب القطا حين مرّ بي فقلت ومثلي بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلني إلى من قد هويت أطير

وقد نظر المرحوم إسماعيل باشا صبري إلى استعارة الجناح فقال:

يا سرحة بجوار الماء ناضرةً سقاكِ دمعي إن لم يوف ساقيكِ
عاراً عليك وهذا الظل منتشرٌ فتك الهجير بمثلي في نواحيك
هل من معيري جناحي طائرٍ غردٍ كي أقطع العمر شدوا في أعاليك
فلا أنقر عن أرض غُرست بها ولا يرنّ بسمعي غير واديك

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينة والهدوء، في حين أن قلبه يتلظى على جمر الصدود. كما قال بشار^(١):

أيها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق بيضاء رود
إن دائي الصدى وإن دوائي شربةً من رُضاب ثغرٍ برود
ولها مبسمٌ كغمر الأقاحي وحديثٌ كالوشي وشي البرود
نزلت في السواد من حبة القلب لب ونالت زيادة المستزيد

(١) في كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف، فارجع إليه لترى ما صنع الدهر بشعر بشار.

ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ والليالي يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقايٍ وعندي زفرا تٌ يأكلن قلب الحديد

وما أظرف قول أبي نواس في معشوقته جنان:

جنان تسبني ذكرتُ بخيرٍ وتزعم أنني رجل خبيث
وأن مودتي كذبٌ ومينٌ وأني للذي أهوى بثوثٌ
وليس كذا ولا ردٌّ عليها ولكن الملول هو النكوث
ولي قلبٌ ينازعني إليها وشوق بين أضلاعي حثيث
رأت كلفي بها ودوام عهدي فملتني كذا كان الحديث

وأبداع ما قيل في قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب:

ليت ما أصبح من رقعة خديك بقلبك

ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع:

لقد صددنا كما صددتم فهل ندمتم كما ندمنا
وشفنا الوجدُ مذ جفوتهم فأظهر الدمع ما كتمنا
وهبت روعي وقلت عطفاً فما عطفتم وما رجعنا
ملكتموها وما وصلتم لقد غنمتم وما غنمنا
وما ازددت خوفاً على فؤادي إلا وزدتم رضى وأمننا
وما رجائي وقد قويتهم على جفائي وزدت وهنا
قتلت نفسي على جفاكم وما قرعتم علي سنا
لهفي على السالف المفدى لو كان يجدي الفدا جُداً
فما ذكرنا الذي تقضى إلا على حسنه انتحبنا

لو كنت أشكو الهوى لصخر
وذاب من هول ما أراه
إن كان ذنبٌ فسامحونا
وإشهاد الله ما أسأنا

وصاحب البدائع هو الذي يقول:

أيها الظالم الجميل سلامٌ
كيف أصليتني من الهجر نارا
ليت من شاء أن يطول أسانا
سوف أنجو من الغرام وأغدو
فاسقني المر من صدودك واحكم
جائر الحكم في ظلال صباكا

وقد حسب بعض الناقدين أن في هذا الشعر نذيرا بنقض العهد، وجحود الود، وليس الأمر كما يحسبون، وإنما هي صورة لحالة من حالات النفس، حين يثور الوجد، ويتمنى المحب ليأسه لو أفلت من إشراك هواه، وهيئات هيهات!

* * *

هيف الفراق

نتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب، فمنهم من يذكر تعثره في الطريق، وضلاله عن القصد، بعد فراق من يحب، كما قال بعض الأعراب:

وما وجد مغلوبٍ بصنعاء موثقٍ	بساقيه من ثقل الحديد كُـبُولُ
ضعيف الموالي مُسَلَّمٌ بجريرةٍ	له بعد نومات العيون عويل
يقول له الجلاد أنت معذبٌ	غداة غداً أو مُسَلَّمٌ فقتيل
بأوجع مني لوعة يوم راعني	فراق حبيبٍ ما إليه سبيل
غداة أسيرُ القصد ثم تردُّني	عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غرر الشعر، وهي آية في وصف الحيرة يرمي بها المحب المشوق، بعد فراق لا يُرجى أن يعقبه لقاء. وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كبّل بالحديد، في جريرة لا يغني في دفعها ضعف مواليه، وقد أصبح موضع النذير من الجلاد في كل صباح ومساء، وحسب الفراق أن يرمي المحب في مثل هذه الحال!

وأنشد الجاحظ:

أزف البـ_____ين المـ_____ين	قطـ_____ع الشـ_____كّ اليقـ_____ين
حَنَنْت العـ_____يش فأبـ_____كـ_____ا	في مـ_____ن العـ_____يش الحـ_____نـ_____ينُ
لم أـ_____كـ_____ن لا كـ_____نـ_____ت أدري	إن ذا البـ_____ين يـ_____كـ_____ون
عـ_____لمـ_____وني كـ_____يف أشـ_____تا	قُـ_____ إذا خـ_____فَ القـ_____طـ_____ين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول:

وأنا بكيت من الفراق ق فهل بكيت كما بكيت
ولطمت خدي خاليها ومرسته حتى اشتفيت
وعواذلي ينهينني عمن هويت فما انتهيت

وأنا أحسب أن البكاء ولطم الحدود أهون ما يجري بعد الفراق، ويا ويلته
من الفراق!

وما أصدق من يقول:

أُزْمِعَةُ لَيْلٍ بَيْنٍ وَلَمْ تَكُنْ كأنك عما قد أظلك غافل
ستعلم إن شطت بهم غربة النوى وزالوا بليلى أن قلبك زائل

ومن المتيمين من يشجيه أن يقاسي أحبابه متاعب السفر، ومشاق السرى،
ومصاعب الإدلاج. ثم يرجع إلى نفسه فيتوجع لحاله بعد الفراق. كقول أبي
تمام:

لو كان في البين إذ بانوا لهم دعة لكان بينهم من أعظم الضرر
فكيف والبين موصول به تعب تكلف اليد في الأدلاج والبكر
لو أن ما يتليني الحادثات به يكون بالماء لم يُشرب من الكدر
أو كان بالعيس ما بي يوم رحلتهم أعيث على السائق الحادي فلم تسر
كأن أيدي مطاياهم إذا وخذت يقعن في حرّ وجهي أو على بصري

وهذا شعر يُذيب لفائف القلوب ... وقال بعض المعذنين:

قد قلت والعبرات تسد ففحها على الخد المآقي
حين انحدرت إلى الجزية مرة وانقطعت عن العراق
يا بؤس من سلّ الزما ن عليه سيفاً للفراق

إي والله:

يَا بُؤْسَ مَنْ سَلَّ الزَّما نُ عَلَيْهِ سَيْفًا لِلْفراقِ
إنه لا محالة مقتول!

وقد يلوم المحب نفسه على فراق أحبابه، كالذي يقول:

أَتَظْعَنَ عَنْ حَبِيبِكَ ثُمَّ تَبْكِي عَلَيْهِ فَمَنْ دَعَاكَ إِلَى الْفراقِ
كَأَنَّكَ لَمْ تَذُقْ لِلْبَيْنِ طَعْمًا فَتَعْلَمُ أَنَّهُ مَرُّ الْمَذاقِ
أَقِمِ وَانْعَمِ بِطَوْلِ الْقَرَبِ مِنْهُ وَلَا تَظْعَنِ فَتَكْبِتِ بَاشْتِياقِ
فَمَا اعْتَاضَ الْمَفَارِقَ مِنْ حَبِيبٍ وَلَوْ يَعْطَى الشَّامُ مَعَ الْعِرَاقِ

ومثله من يقول:

تَطْوِي الْمَرَّاحِلَ عَنْ حَبِيبِكَ دَائِبًا وَتَظْلُ تَبْكِيهِ يَدْمَعُ سَاجِمِ
كَذَبْتَكَ نَفْسُكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى تَشْكُو الْفَرَّاقَ وَأَنْتَ عَيْنُ الظَّالِمِ
هَلَا أَقَمْتَ وَلَوْ عَلَى جَمْرِ الْغَضَى قَلْبَتَ أَوْ حَدَّ الْحُسَامِ الصَّارِمِ
وما أوجع ما قالته إحدى النساء:

وَكُنَّا كَغَصْنِي بَانَةٍ وَسَطَ رَوْضَةٍ نَشْمُ شَذَا الْأَزْهَارِ فِي عَيْشَةٍ رَغْدِ
فَأَفْرَدَ هَذَا الْغَصْنَ مِنْ ذَاكَ قَاطِعٌ فَيَا فَرْدَةً بَانَتْ تَحْنُ إِلَى فَرْدِ

ولهذين البيتين قصة مخزنة يضيق عن ذكرها المجال.

* * *

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق، فليس ببدع أن يهرب
البحثري من منظر الوداع، وأن يظرف حين يقول:

الله جـارك في انطلاقك	تلقاء شامك أو عراقك
لا تعدلني في مـسي	رك يوم سرت ولم ألاقك
إني خشيت مواقفـا	للبن تسفح غرب مايقك
وعلمت ما يلقي المتيـ	م عند ضمك واعتناقك
وعلمت أن لقاءنا	سبب اشتياقي واشتياقك
فتركـت ذاك تعمـدا	وخرجت أهرب من فراقك

وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الأحنف وقد حُرم توديع من يحب:

كفى حزنا أني بقيت وليس لي	سبيل إلى توديعكم فأودع
تلفت خلفي حيث لم تبق حيلة	وذودت عيني نظرة وهي تدمع

* * *

غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغرب، والتشاؤم من منظره، حتى يقولون:

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانيةٍ يتفّ أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أني أشاء زجرته بنفسي للنهدي هل أنت زاجره
فقال غرابٌ لا غترابٍ من النوى وفي البان بينٌ من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدي لا درّ درّه وأزجره للطير لا عزّ ناصره

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة، وسخر من المتطيرين ورأى أن
الإبل هي التي تفرق الأحباب. كقول أبي الشيص:

ما فرّق الأحباب بعد مد الله إلا الإبل
والناس يلحون غرا ب البين لما جهلوا
وما على ظهر غرا ب البين تطوى الرحل
ولا إذا صاح غرا ب في السديار احتملوا
وما غراب البين إلا ناقلة أو جمّل

ومنهم من لا يجيز ذم المطي، لأن لها صلة بمن يحب. كالذي يقول:

زعموا بأن مطيهم عون النوى والمؤذّنات بفرقة الأحباب
ولو أنها حتفي لما أبغضتها ولها بهم سبب من الأسباب

فقد العزاء

وقد يعنف الهوى ويقسو، حتى يذهب بجميل الصبر، وحميد العزاء، فمن
العشاق من يفقد اضطباره عند الوداع. كقول ابن نُبَّاة السعدي:

كيف العزاء وأين بابـه	والحيّ قد خفت ركابـه
بأغر منتقبٍ ينم	على محاسنـه نقابـه
متأوّد حُلُو الشمائل	من أساوره حِقَابـه (١)
زعم المخبر أنه	ضربت على سلع قبابه
فطلبتـه كالأيم أو	كالسيل في الليل انسيابه
فإذا أحـمُّ المقلتيـ	من يشين أنملـه خضابه
يهتزُّ مثل السمهري	تدافعت فيه كعابـه
وقف الولائد دونه كالقلب	يستره حجابـه
أقبلت أسألـه وأعلـ	م أن حرمني جوابـه
ويلى على متلون الـ	أخلاق يعجبـه شبابه
لا رُسـله تـتري إلينا	بالسلام ولا كتابـه

وأحب أن يتأمل القارئ هذه القصيدة البديعة، وأن يتنبه إلى دقة الوصف
في جميع ما عرض الشاعر له. وعلى الأخص تلون الأخلاق، والزهو بالشباب،
في أرباب الجمال!! وقال الشريف:

ورامين وهنا بالجمار وإنما	رموا بين أحشاء المحبين بالجمر
رموا لا يبالون الحشا وتروّحوا	خليين والرامي يصيب ولا يدري

(١) الحقاب ما تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلى.

وقالوا غدا ميعادنا النفر عن منى وما سرنى أن اللقاء مع النفر
ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه سوى ساعة ثم البعاد مدى الدهر
فيا صاحبي إن تُعطَ صبرا فإنني نزعتُ يديّ اليوم من طاعة الصبر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه فميعاد دمع العين مُنقلبُ السّفر

وقد يستولي الحزن على القلب، ويتغلغل في سويدائه، حتى يئأس المحب
من صلاحية فؤاده للسرور، لو رجعت أسبابه، كما قال بعض الشعراء:

كم استراح إلى صبرٍ فلم يُرح صبّ إليكم من الأشواق في ترح
تركتُم قلبه من حزن فرقتكم لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرّح

وقال خالد الكاتب يفضل اللوعة على العزاء:

عابت نفسي في هوا لك فلم أجدها تقبل
وأطعت داعيها إلي لك فلم أطع من يعذل
والذي جعل الوجوه هـ لحسن وجهك تمثّل
لا قلت إن الصبر عنك ممن التصابي أجمّل

وقال إسحاق الموصلي في ذهاب الوداع بالصبر الجميل:

تقضّت لبناتٌ وجدّ رحيلٌ ولم يُشفَ من أهل الصفاء غليل
ومدّت أكفّ للوداع فصافحت وفاضت عيونٌ للفراق تسيل
ولابدّ لآلاف من فيض عبّرة إذا ما خليلٌ بان عنه خليل
فكم من دمٍ قد طُلّ يوم تحمّلت أوانسُ لا يودى لهنّ قتيّل
غداة جعلت الصبر شيئا نسيتهُ وأعولتُ لو أجدى عليّ عويل
ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها هوى منه باد ظاهراً ودخيل
كما نظرت حوراء في ظل سدرّة دعاها إلى ظل الكناس مقيّل

وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبه كصبر الظماء عن الماء، فيقول:

إليك من الأنام غدا ارتياحي
وما اعترضت هموم النفس إلا
فديتك إن صبري عنك صبري
ولي أمل لو الواشون كفّوا
وأعجب كيف يغلبني عدوّ
فؤادي من أسى بك غير خالٍ
فلو أستطيع طرت إليك شوقا
وكيف يطير مقصوص الجناح

ويأسي ابن المدينة على أن لم يُغنه القرب ولم يسله البعد، فيقول:

وقد زعموا أن المحب إذا دنا
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار ليس بنافع
على ذاك قرب الدار خير من البعد
يملّ وإن النأي يشفي من الوجد
إذا كان من تهواه ليس بذي عهد

وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الأعراب:

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتي
وإن أك عن ليلى سلوت فإنها
وإن يك عن ليلى غنى وتجلد
فرب غني نفس قريب من الفقر
تسلّيت عن يأس ولم أسل عن صبر
بليلى أمت لا قبر أعطش من قبري

* * *

بكاء الشباب

ولعل أشجى ما يمر بخاطر المرء أن يهجره الغيد بعد انصرام الشباب،
والشباب هو شفيق الفتى إلى قلوب الحسان، فإذا مضى فقد أصبح بلا شفيق،
والويل للمفرد المغلوب!

من أجل ذلك تفنن الشعراء، في بكاء الشباب، والتنكر للمشيب. فمنهم
من تبيض في رأسه شعرة واحدة، فلا يراها قليلة، لأن قذى العين غير قليل، كما
قال ابن الرومي:

طرفت عيون الغانيات وربما أمالت إليّ الطرف كل مميلٍ
وما شبت إلا شيبة غير أنه قليل قذاة العين غير قليل

وابن الرومي يكثر البكاء على شبابه، ويعلل نفسه أحيانا بأن الشيب في
الرأس كالنور على الغصن. ويأسى كثيرا لاحتياجه إلى الخضاب، الذي يراه
أشبه بسواد الحداد، ويكاد يصرخ من خروجه إلى الحسان في شعر ميت، وقلب
حي، والمحـب يتفجر قلبه دائما بالحياة! وانظر كيف يقول:

شاب رأسي ولات حين مشيب وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبا أن يرى النور في القضيب الرطيب
ساءها أن رأت حبيبا إليها ضاحك الرأس عن مفارق شيب
يا حليف الخضاب لا تخدع النفـ س فيما أنت للصبي بنسيب
ليس يجدي الخضاب شيئا من النفـ مع سوى أنه حداد كئيب

لهفَ نفسي على القناع الذي مَحَّ
منع العين أن تقرَّ وقرَّت
شعرٌ ميّتٌ لذي وطيرٍ حي
ظلمتني الخطوب حتى كَأني
وأعقبْتُ منه شرَّ عقيب^(١)
عين واشٍ بنا وعين رقيب
كنار الحريق ذات اللهيـبِ
ليس بيني وبينها من حسيبِ

وما أروع قوله في السُّخر من الخضاب:

رأيت خضاب المرء عند مشيبه
وإلا فما يغزو امرؤ بخضابه
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضبِ
وهبه يُواري شيبه أين ماؤه
حدادا على شرخ الشبيبة يلبسُ
أيطمع أن يخفى شبابٌ مُدلسُ
وكل ثلاثٍ صبحه يتنفسُ
وأين أديمٌ للشبيبة أملسُ

وقال أشجع السلمي يوصي بانتهاب اللذات، قبل أن يقف في سبيلها الهرم
والمشيب:

ومالي لا أعطي الشباب نصيبه
رأيت الليالي ينتهبن شبيبي
رأيت بنات الدهر يخلصن لذتي
وقد حوّلت حالي الليالي وأسرجت
وموت الفتى خيرٌ له من حياته
وغصناه يهتزان في عوده الرطبِ
فأسرعت باللذات في ذلك النهب
لقد حزن سلمى وانتهين إلى حربي
على الرأس أمثال الفتيل من العطبِ
إذا كان ذا حالين يصبو ولا يُصبي

وقال آخر في صدوف للنساء عن صرعى المشيب:

هل الأدم كالآرام والدهر كالدمى
زمانٌ سلاحي بينهن شبيبي
وأقسم لا يسقينني قطر مُذنةٍ
مُعَاودتي أيامهن الصوالحُ
لها سائقٌ من حسنهن ورامح
لشبيبي ولو سالت بهن الأباطح

(١) مح القناع بلى. والعقيب البديل.

وكان أستاذنا المرحوم فقيد اللغة والأدب الشيخ محمد المهدي بك كثير الإعجاب بقول أبي منصور النميري في الجزع على شبابه المفقود:

ما تنقضي حسرةً مني ولا جزعُ
بان الشباب ونابتني بفرقته
ما كنت أوفي شبابي كنه قيمته
تعجبت أن رأيت أسراب دمعتِه
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم
لا ألحين فتاتي غير كاذبةٍ
ما بالشيبية من وإن رفعت
إني لمعترفٌ ما في من أربٍ
قد كدت تقضي على فوت الشباب
إذا ذكرت شباباً ليس يرتجعُ
خطوب دهرٍ وأيام لها خدعُ
حتى انقضى فإذا الدنيا له تبعُ
في حلبة الخد أجراها حشا وجعُ
تشجي بغصته والعذر لا يقع
عين الكذوب فما في ودكم طمعُ
إلا لها نبوةٌ عنه ومرتدعُ
عند الحسان فما في النفس منخدعُ
لولا أعزيك إن الأمر منقطعُ

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر، وبكى له، وأنشد:

أتأمل رجعة الدنيا سفاهاً
فليت الباقيات بكل أرضٍ
وقد صار الشباب إلى ذهابٍ
جُمعن لنا فنحن على الشبابِ

ومن التعليل الكاذب قول البحري في مدح المشيب:

عذلتنا في عشقها أم عمرو
ورأت لمةً ألم بها الشيب
ولعمري لولا الأقاحي لأبصرت
وسواد العيون لو لم يجاوزهُ
ومزاج الصهباء بالماء أملَى
أيُّ ليلٍ يَهْـبَى بغير نجومٍ
هل سمعتم بالعاذل المعشوق
فريعت من ظلمة في شروقٍ
أنيق الرياض غير أنيق
بباص ما كان بالموموق
بصبوح مُستحسنٍ وغبوق
أو سحاب يندى بغير بروقٍ

لكن ماذا يصنع الأشب، إن لم يغالط الحسان بهذه المعاذير؟!

بلايا الغيرة

نذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع. ونتقدم ذلك بقول بعض
الأندلسيين وقد قبل من يهواه:

يارب إن قدرته لمقبّل غيري فللمسواك أو للأكؤس
وإذا قضيت لنا بصحبة ثالث يارب فليك شمع في المجلس
وإذا حكمت لنا بعين مراقب يارب فليك من عيون النرجس

ألست ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من أن ينعم بحبيبه
سواهن فجعل يتمنى، لو تنفع الأماني، أن لا يراقبهم غير النرجس، وأن لا
يصحبهم غير الشمعة، وأن لا يقبل محبوبه غير الكأس أو المسواك؟!

وقد جنّ العرب بالغيرة جنونا: فتخلوا غسان بن جهضم ينشد زوجه من
عالم الأرواح، وقد زفت إلى غيره بعد موته بقليل:

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمة ولم تعرفي حقا ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولا لحفاظا لصاحب حلفت له يوما ولم تنجزي وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

وتخيل رواة العرب أن موسى الهادي جاء إلى جاريته (غادر) وقد أقبلت
من بعده على أخيه هارون فأنشدها وهي نائمة هذه الأبيات:

أخلفت عهدي بعدما جاورت سكان المقابر
ونكحت غادرة أخي صدق الذي سماك غادر
لا يهينك إلا لف الجدي دولا تتم عنك الدوائر
ولحقت بي قبل الصبا ح وصرت حيث غدوت صائر

وبعد هذا التمهيد يستطيع القارئ أن يدرك لم حملت الغيرة عبد السلام بن رغبان على قتل غلامه وجاريته!! وحديث هذا الشاعر عجيب: فقد ذكروا أنه اشترى غلاما وجارية، ثم شغفاه حبا، فكان يجلس للشراب والجارية عن يمينه والغلام عن شماله!! ثم خشي أن يموت قبلهما فينعم غيره بما لهما من روعة وجمال: فذبحهما وأحرقهما وصنع من ترابهما آيتين للشراب!!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الغلام هذه القطعة الباكية:

أشفقْتُ أن يردَّ الزمان بغدره	أو أبْتلى بعد الوصال بهجره
قمرٌ قد استخرجته من دَجْنِه	لبليتِي وأثرتهُ من خِدرِه
فقتلته وله عليّ كرامةٌ	فله الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتا كأحسن نائم	والحزن يسفح مدمعي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعدهُ	بالحي منه بكى له في قبره
غُصصُ تكاد تفيض منها نفسه	ويكاد يخرج قلبه من صدره

ثم ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الجارية هذه القطعة التي يندر أن نجد أحر منها في الرثاء:

يا طلعة طلع الحمام عليها	فجنى لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقها	ومدامعي تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتي من شفتيها
فوحق نعليها وما وطئ الثرى	شيء أعزَّ عليّ من نعليها
ما كان قتلها لأني لم أكن	أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن بخلت على الوجود بحسنها	وأنفت من نظر العيون إليها

ولعل الظلم لم يرزق حجةً أقوى من هذه الحجة، ولا برهانا أسطع من هذا البرهان!! وكانت السيدة سكينه تعيب على جرير قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فاراجعي بسلام

وكانت تقول: قاتله الله ما أقساه: هلا قال: ادخلي بسلام!

فلو سمعت السيدة سكينه بهذا المحب السفاح لطلال بكائها على صرعى الغيرة، وقتلى الإشفاق!! ولئن كان الجنون فنونا كما يقولون، فهذا ورب الكعبة أغرب فنون الجنون! وكنا نود لو حدثنا التاريخ عن أثر هذه الأعجوبة في أنفس من عاصروا ابن رغبان لنعرف رأيهم في الجناية على الجمال! ألم يكفهم أن الحسن حال تحول، ودولة تدول، حتى تسوق غيرتهم إليه الفناء؟ وبعد فقد سمي عبد السلام بن رغبان هذا «ديك الجن» وأنه في فعلته هذه لشيطان مرید!!

هذا، ومن الشعراء من يغار من عود البشام حين يستاك به الحبيب، ومن العقد يطوق به الجيد، ومن النقاب يحجب به الوجه الجميل، كما قال الشريف:

يا غزال الجزع لو كا	ن علي الجزع لمام
أحسد الطوق على جي	دك والطوق لزأم
وأعوض الكف إن نا	ل ثناياك البشام
وأغار اليوم إن مر	على فيك اللثام

ومنهم من يغار من قميص حبيبه، كما قال خالد الكاتب:

محبك شفق ألمه	وخاصر جسمه سقمه
وباح بما يجممه	من الأسرار مكتمه
أما ترثني لمكتئب	يجبك لحمه ودمه

يغار على قميص حي ————— ن تلبسه ويتهمه

وكما قال بعض الأعراب:

أرى القميص على ليل فأحسده إن القميص على ماضٍ محسود

ومنهم من يغار على اسم محبوبه، فيكني عنه، لئلا تتمتع به الآذان، كما قال
البها زهير:

وأنزه اسمك أن تمر حرؤفه من غيرتي بمسامع الجلاس
فأقول بعض الناس عنك كناية خوف الوشاة وأنت كل الناس

وقد يغادر المحب على حبيبه من نفسه، كما قال أبو تمام:

بنفسي من أغار عليه مني وتحسد مقلتي نظري إليه
ولو أني قدرت طمست عنه عيون الناس من حذري عليه
حبيبٌ بثَّ في قلبي هواهُ وأمسك مهجتي رهنا لديه
فروحي عنده والجسم خالٍ بلا روح وقلبي في يديهِ

* * *

الاستغاث

نذكر هنا حيل العشاق في لفت أنظار الأحباب إليهم، وتوجيه أفكارهم نحوهم، حتى ينالوا طلبتهم من القرب، وبغيتهم من الوصل، ولذلك حالات: فمن العشاق من يقبح لحبيبه المطل والخلف، حتى يبرّ بوعده، ويفي بعهده. كقول ابن الأحنف:

كأن لم يكن بيني وبينكم هوى ولم يك موصولاً بحبلكم حبل
وإني لأستحيي لكم من محدث يحدث عنكم بالملالة والمطل
وكقول الطغرائي:

ويا جيرتي بالجزع جسمي بعدكم نحيلاً وطرفي بالسهاد كليل
عهدت بكم غصن الشبية مورقا فخان وخنتم والوفاء قليل
وأودعتكم قلبي فلما طلبته مطلتم وشر الغارمين مطول
فإن عدتم يوماً تريدون مهجتي تمنعت إلا أن يقام كفيل

ومن المتيمين من يُجرّم كل شيء حتى الوعد فتراه لا يطلب الوفاء ولا يقبّح الإخلاف، وإنما يرجو وعدا يجلو به كربة قلبه، ويطفئ به نار جواه، لو تغني الوعود!

وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر، وقد صادف في توحشه حي ليل ولقيها فجأة فعرفها وعرفته، فصعق وخر مغشيا عليه، وأقبل فتيان من حي ليل فأخذوه، ومسحوا التراب عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم، وسألوا أن تقف له وقفة! فرقت لما رأيته وقالت أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به ثم قالت

لجارتها: اذهبي إلى قيس فقولي له: ليلى تقرأ عليك السلام، وتقول لك أعزز علي بما أنت فيه! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لو قيتك بنفسي!

فمضت الوليدة إليه وأخبرته بقولها فأفاق وجلس، وقال: أبلغها السلام، وقولي لها هيهات هيهات! إن دائي ودوائي أنت، وإن حياتي ووفاتي لفي يديك، ولقد وكلت بي شقاء لازما وبلاء طويلا، ثم بكى، وأنشأ يقول:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها	قريبٌ ولكن في تناولها بُعد
لقد عارضتنا الريح منها بنفحة	على كبدي من طيب أرواحها برد
فما زلت مغشيا علي وقد مضت	أناءٌ وما عندي جواب ولا رد
أقلب بالأيدي وأهلي بودهم	يُفدوني لو يستطيعون أن يفدوا
ولم يبق إلا الجلد والعظم عاريا	ولا عظم لي إن دام ما بي ولا جلد
أذنيائي مالي في انقطاعي ورغبتني	إليك ثوابٌ منك دَيْنٌ ولا نقد
عديني بنفسي أنت وعدا فربما	جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزتني جنود الحب من كل جانب	إذا حان من جُند قفول أتى جند

والبيت الأخير أعجوبة من أعاجيب الخيال، فما زال المحبون صرعى مساكين، إن قفلت عنهم جنود الخدود، غزتهم جنود العيون ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعا حتى ذهبت بلبهن ولم يبق إلا أن تنكسر النصال على النصال!

وقد يستعطف المتيم المحزون ولكنه لا يطلب وعدا يطارد به جيوش الأحزان، ولا يرجو الوفاء بوعد كأن يهتدي به في ظلمات الشجون، وإنما يُلَمِّح وقد يكون التلميح أبلغ من التصريح. فيذكر أن الحسن يحدق به من كل جانب، ولكنه لا يصبو ولا يميل لأنه بمن يحب مشغول. وانظر قول الأبيوردي في هذا المعنى البديع:

وقتكَ الردى بيضُ حسانٍ وجوها
طلعن بدورا في دجى من ذوائب
أرى نظرات الصب يعثرن دونهما
عرضن عليّ الوصل والقلب كله
ولولاك ما بعث العراق وأهله
فما لنساء الحى يضمرن غيرةً
ولو خالفتني في متابعة الهوى
وفيك صدودٌ من دلالٍ أظنه

وقد يتمنى المحب أن يمرض ليعوده الحبيب. وإليك قول ابن الخياط:

أحنّ إلى سقمي لعلك عائدي
وحنّ إلى سقمي لعلك عائدي
وحنّ إلى سقمي لعلك عائدي
وحنّ إلى سقمي لعلك عائدي
وحنّ إلى سقمي لعلك عائدي
وحنّ إلى سقمي لعلك عائدي

مسكين هذا المحب، يتمنى المرض ليعاد، فهل يعلم أن من المحبين من أشقاه المرض. فلم يسعده العُود. وهل أتاه حديث ابن الأحنف وقد لجّ به المرض فأخذ يهذي بهذا الشعر الباكي الحزين:

أهابك أن أشكو إليك وليس لي
وإي لصادي الجوف والماء حاضرٌ
وما كنت أحشى أن تكون منيتي
بكف أحص الناس كلهم عندي

وهل وصلت إليه تلك الوصية البديعة التي بعث بها ابن الأحنف إلى حُجاج البيت الحرام وقد توقع أن يمروا بدار هواه؟

انظر إلى ذلك العليل، وقد خفي الداء، وتعذر الشفاء، وكلما عُصر الماء في فيه مجه، كما يفعل الطفل الغرير، وقد ذهبت العلة بجمال نظراته، وسحر

بسماته، وإنودي لم يجب بغير الأنين، انظر إليه وقد تمنى جرعةً مُزجتْ بريق
حببته يحملها إليه الحجاج في زجاجة! ولو أمكن أن تنقل إليه النظرة، لرجاهم
أن يحملوا إليه نظرة، ولو خلق الفنوغراف في ذلك الحين لرجاهم أن ينقلوا إليه
نعمة من نعماتها العذاب! ولو مهر المصورون إذاك لكلفهم أن يصوروا
مِشيتها الفتانة في الضحى والأصيل! انظر إليه وهو يرجوهم أن يتعللوا عند
أهله فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما هي من ماء زمزم! ويحك، وأين ماء
زمزم الملح الأجاج، من ماء ذلك الثغر العذب الفرات؟ انظر إليه وقد
أوصاهم أن يرشوا ريق من يهوى على وجهه، فإن صادفوه ميتا فيرشوه على
قبره! انظر كيف يقول:

الحاجة متبول الفؤاد كثيب
على جلب للحادثات جليب
تنشب رهنا في حبال شعوب
سوى ظنهم من مخطئ ومصيب
وإن نحن نادينا فغير محيب
ألا إنها لو تعلمون طيب
لها في نواحي الصدر وجس ديب
يشبكم ذو العرش خير مثير
وقد يحسن التعليل كل أريب
لنشفية من دائه بذنوب
وبيني يوم للمنون عصب
حليف صفيح مطبق وكثيب
قتيل كعاب لا قتل حروب

أزوار بيت الله مُروا يشرب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا
فإننا تركنا بالعراق أخاهوى
به سقمٌ أعياء المداوين علمه
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه
خذوا إليّ منها جرعة في زجاجة
وسيروا فإن أدركتم بي حُشاشة
فرشوا على وجهي أفق من بليتي
فإن قال أهلي ما الذي جئتم به
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة
فرشوا على قبري من الماء واندبوا

وكان ابن الأحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئاً، ولا يخاف شيئاً، وكل مناه أن يعلم فاتنوه أنه يحبهم، وأن يسمعوا صوت ما يجد، وأنه لمطلب زهيد، ولكنه قد يصبح صعب المنال، وانظر هذه الأبيات التي يندر أن نجد مثلها في تصوير المحب وقد خلاه من أذكوا نار جواه، وتركوه يتلوى ويتململ، فوق جمر الهوى وجرم الصدود:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم	حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت متصباً	بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا علي ولم يوفوا بعهدهم	قد كنت أحسبهم يوفون أن وعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبكم	بين الجوانح لم يشعر به أحد
حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم	قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجد

* * *

ومن حسن الإشارة قول إبراهيم بن المهدي:

يا غزالا لي إليه	شافع من مُقلتيه
والذي أجللتُ خدي	ه فقبلت يديه
بأبي وجهك ما أك	ثر حُسّادي عليه
أنا ضيفٌ وجزاء الضي	ف إحساناً إليه

والإحسان الذي يرجوه هذا الشاعر يذكرنا بقول بعض الأعراب:

آل ليلي إن ضيفكم	واجد بالحي مذ نزل
أمكنوه من ثنيتهما	لم يُرد خمرا ولا عسلا

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون:

يا هلالا تتراء	ه نفوس لا عيون
----------------	----------------

منك والعطف يلين
بمراك الحزين
حينه فيك يحين
والمعاذير فنون

عجبا للقلب يقسو
ما الذي ضرك لو سر
وتلطفت بصب
فوجوه اللطف شتى

وما أوجع الأسى في قول ابن هانئ:

أكذا يحور الحكم في ناديك
وادي الكرى ألقاك أم واديك
عثروا بطيف طارق ظنوك
لما تمايل عطفك اهتموك
تالله ما بأكفهم كحلوا
حتى إذا احتفل الهوى حجبوا

يا بنت ذي البرد الطويل نجاده
عيناك أم مغناك موعدنا وفي
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة
حسبوا التكهّل في جفونك حلية
وجلوك لي إذ نحن غصنا بانه

ويندر أن تجد بين الأدباء من لا يحفظ قول ابن الطثرية:

فدعص وأما خصرها فبتيل
بنعمان من وادي الأراك مقيّل
إليك وكلا ليس منك قليل
لنا من إخلاء الصفاء خليل
عدو ولم يؤمن عليه دخيل
وخوف العدا فيه إليك سبيل
تفيض وأحزاني عليك تطول
إليك وأجفاني عليك همول
بعيد وأشياعي لديك قليل
فأفانيت علاقي فكيف أقول
ولا كل يوم لي إليك رسول

عقيلية أما ملاث إزارها
تقيظ أكناف الحمى ويظللها
أليس قليلا نظرة أن نظرتها
فيا حلة النفس التي ليس دونها
ويا من كتمنا حبه لم يطع به
أما من مقام أشتكي غربة النوى
فؤادي أسير لا يفك ومهجتي
ولي مقلّة قرحى لطول اشتياقها
فديتك أعدائي كثير وشقتي
وكنت إذا ما جئت جئت بعلّة
فما كل يوم لي بأرضك حاجة

صحائفٌ عندي للعتاب طويتها ستُنشرُ يوماً والعتاب طويل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفةٌ فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع:

أجبنِّي إن تفَضَّلْتَ على المسكين بالردِّ
أنسى الدهر ما جادت به عيناك من وعدٍ؟
وارسم للمنى حداً وما لجواي من حدٍّ؟
وأفنع بالردى ورداً وغيري سائغ الوردِ؟
وأرضى باللظى مثوى ووجهك جنة الخلدِ؟

* * *

وفياً حافظاً أشقى ليسعد ناقض العهد
وصباً والهوا أفنى ليقبى جاحد الوُدِّ
فيأويله من حب حملتُ بلاءه وحدي!
أعدّ لحمه جهدي فيصعق بطشه جهدي

* * *

الحنين

هل أتاك حديث الصمة بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه، وكان لها محبا، فاشتط عليه عمه في المهر، فاستعان بأبيه وكان مثرى فلم يعنهن فأم عشيرته فأسعفوهن ثم ساق الإبل إلى عمه، فقال لا أقبل هذه في مهر ابنتي، فسل أباك أن يبدلها لك. فسأل أباه ذلك فأبى عليهن فلما رأى ضنّ أبيه وإباء عمه قطع عقلها وخلها فعاد كل بغير إلى أهله ... ويروى أن أباه أعطاه تسعة وتسعين بغيرا فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها. فقال الصمة: والله ما رأيت ألام منكما، وإني لألام منكما جميعا أن أقمت بينكما. ثم رحل إلى الشام. فقالت ابنة عمه: تالله ما رأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته بغير!!

تأمل أيها القارئ هذه القصة الوجيهة، وأكملها بما لديك من وثبات الخيال، ولا تطالبني بأكثر من هذا الإيجاز، فإنما أتخذة مقدمة لدرس قصيدة الصمة في الحنين ... ألم تر إليه وقد طالت غربته، فعبث الشوق بقلبهن واعتادته ذكرى أحبابه وأوطانه. فقال يعاتب نفسه، ويحاور فؤاده:

أمن ذكر دارٍ بالرقاشين أصبحت بها عاصفات الصيف بدءا ورجعا
حننت إلى ريا ونفسك باعدت مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعا وتجنزع إن داعي الصبابة أسمعا

ثم أخذ يخاطب رفيقيه - وقد بالغ في لومه وأطالا في تأنيبه - فقال:

ألا يا خليي الذين تواصيا بلومي إلا أن أطيع وأتبع
فقا إنه لا بد من رجوع نظرة يمانية شتى بها القوم أو معا
لمغتصبٍ قد عزّه القوم أمره حياء يكف الدمع أن يتطلعا

ثم شرع في تعجيزهم وتئيسهم فقال:

فإن كنتم ترجون أن يذهب الهوى يقينا ونروى بالشراب فننقعا
فردّوا هبوب الريح أو غيّرُوا الجوى إذا حلّ ألواذ الحشا فتمنّعا

ومن يستطيع ذلك؟ تالله ما العاذل وإن اشتط في عدله، وبالع في لومه،
بقادر على نسيانك، أو سلوانك:

ظن الهوى لبسةً تبل فيخلعها فكان في القلب مثل القلب في البدن

ثم عاد إلى رفيقيه يسألهما الإسعاد والإنجاد:

قفَا ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يُودّعا

مسكين! وقل لنجد أن يودّع! إذا فما كنت صانعا لو أنصفته؟ أكنت تُغرب
في البكاء والإعوال حتى يرحمك أعداؤك، ويرثي لك حاسدوك؟ أم كنت تقتل
نفسك جوى وحزنا؟ ثم قال:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى وما أجمل المصطاف والمتربّعا
وليست عشيات الحمى برواجع إليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك:

واستبق دمعك لا يودي البكاء به واكفف مدامع من عينيك تستبق
فما الشئون وإن جادت بباقيّة ولا الجفون على هذا ولا الحدق

ثم أخذ يصف موقفه وقد حال (البشر) بينه وبين أحبابه وأوطانه فقال:

ولما رأيت (البشر) أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنن نزعنا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذا الخيال، وهو عندي من دلائل الوله
وعلائم الصبابة المضلة. ثم قال في وصف ما لاقى في تلفته من العنت:

تلفت نحو الحيّ حتى وجدتنى وجِعت من الإصغاء لیتا وأخذعا

وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظه من البيان. وقد تبعه الشريف
الرضي فأبدع وأجاد في قوله:

ولقد مررت على ديارهم وربوعها بيد البلى نهَبُ
فوقفت حتى ضج من لغبٍ نضوى ولجّ بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيتُ عني الربوع تلفت القلب

ويمتاز بيت الصمة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه المواقف من ظاهر
التعب. فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد الشوق وعانى
الصبابة. ثم قال الصمة في تنمة الحديث عن جواه:

وأذكر أيام الحمى ثم أنشني على كبدي من خشية أن تصدعا

ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة. وقد أكمله ابن نباتة السعدي بقوله:

أصم على قلبي يدي مخافةً إذا لاح لي برقٌ من الشرق لامعُ
وهل ينفع القلب الذي بان إلفه إذا طار شوقاً أن تضم الأضالع

ومن الحنين قول ابن عبد ربه:

ودّعتني بزفرة واعتناقٍ ثم نادت متى يكون التلاقي
وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أظنع يوم ليتني مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرتحل فيأخذ في ذكر المعاهد والعهود، وقد يظعن حبيبه
ويقيم، فيأخذ في الإعوال عليه، والحنين إليه، وهناك من غرائب الهوى
وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست أقل من سابقتيها جوى وحزنا، بل ربما
كانت أكثر حيرة: وهي أن يلتقي الركبان وفيهما محب ومحبوب، ثم يفترقان قبل
أن يتلاقى الصبان: ويجتمع الخلان، فلا يدري العاشق أي عهد يبكي، وأي
حظ يندب، كما لا يعرف أيلوم نفسه لأنه ظعن وترك حبيبه مقيما، أم يشكو
دهره لأن حبيبه سار وخلفه، أم يُعول إعوا لا مبهما لا يعرف مصدره، ولا يفهم
مبعثه، والشعر في هذا المعنى أقرب إلى الذكرى منه إلى الحنين ومن الجيد فيه
قول الأرجاني:

أستودع الله قوما كيف أبعدنا تقلب الدهر منهم حين أدانا
زَمُوا الغداة مطاياهم لفرقتنا لما أنخنا للقياهم مطايانا
لم تشتبك بعدُ أطناب الخيام لنا ولا المنازل ضمتهم وإيانا
لكنهم عاجلون بالنوى ومضوا وخلفوا الطرب المشتاق حيرانا
لم يملأ العين من أحبابه نظرا إذ غادر الدمع منه الجفن ملانا

وإني موافيك ببديع الشعر وشجيه، فيما يمثل حال المحب نأى عنه حبيبه،
أو خلف أحبابه وسار، فمن الأول قول سبط التعاويذي:

أتعود أيامي برامة بعدما سكنت بجرعاء الحمى آرامها
وأحلها البين المشتّ محلةً بُعدت مراميهما وعزّ مرامها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت نفس يزيد على الورود هيامها
يا غادرين وغادروا بجوانحي لبعادهم نارا يُشبّ ضرامها
بنتم فلا عيني تجفّ غروبها أسفا ولا كبدي يُيلّ أوامها
جودوا العين المستهام بهجعة فعسى تمثلكم لها أحلامها

لا تتلفوا بالبين مهجة عاشق سيّان بين حميمها وحامها
أعداه من هيف الخصور نُحوّلها يوم النوى ومن العيون سقامها

ولم أجد في هذا المعنى أشجى وأوجع من قول بعض المتيمين:

لبكاء هذا اليوم صنت مدامعي وكذا العزيز لكل خطب يُذخّر
يا ساكني وادي العقيق فدتكم عين مدامعها عقيق أحمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم لفظا ولم يحسن لعيني منظر

والبيت الأخير مأخوذ من قول ابن أبي ربيعة:

لم يحب القلب شيئا مثل حبكم ولم تر العين شيئا بعدكم حسنا
فأما شعر من نأوا عن أحبابهم، وخلوا معاهد أنسهم، فهو كثير، ومن
جيده قول الأبيوردي يتشوق إلى أحبابه وقد خلاهم ببغداد:

ألا ليت شعري هل أراني بغیضة أبيت على أرجائها وأقبل
هواء كأيام الهوى لا يغبه نسيم كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت على صفحته نضرة وقبول
وأرض حصاها لؤلؤ وتراها تضوع مسكا والمياه شمول
بها العيش غرض والحياة شهية وليلي قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائي ببغداد هل بكم سلو فعندي رنة وعويل
ترنحني ذكراكم فكأنما تميل بي الصهباء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسي بقرّبكم فليلي على نأي المزار طويل

وقال أعرابي من بني عُقيل:

أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري نحو الحجاز بنافعي بشيء ولكنني على ذاك أنظر

أفي كل يوم نظرة ثم عبرة
متى يستريح القلب إما مجاور
لعينيك يجري ماؤها يتحدّر
حزين وإما نازح يتذكر

وقال آخر في الحنين إلى أيامه السوالف:

سقى الله أياما لنا قد تتابعت
ليالي أعطيت البطالة مقودي
وسقيا لعصر العامرية من عصر
تمر الليالي والشهور ولا أدري

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينه:

ألا لا أرى وادي المياه يثيب
أحب هبوط الوادين وإنني
أحقا عباد الله أن لست واردا
ولا زائرا فردا ولا في جماعة
وهل ربة في أن تحن نجية
وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى
لك الله إني واصل ما وصلني
وأخذ ما أعطيت عفوا وإنني
فلا تتركي نفسي شعاعا فإنها
وإني لأستحيك حتى كأنما
ولا النفس عن وادي المياه تطيب
لمشتهر بالواديين غريب
ولا صادرا إلا علي رقيب
من الناس إلا قبل أنت مريب
إلى إلفها أو أن يحن نجيب
إلي وإن لم آت به لحيب
ومثن بما أوليتني ومثيب
لأزور عما تكرهين هيوّب
من الوجد قد كادت عليك تذوب
علي بظهر الغيب منك رقيب

وفي هذا المعنى يقول صاحب البدائع:

تجمل بالسماح ودع ملامي
ففي أسيوط لو تدري حبيب
أسيت له يحن إلى لقائي
إذا ما الليل جنّ ونام صحبي
سلام أيها النائي سلام
وكن عون المحبّ المستهام
هجرت لبعده طيب المنام
ودون مرامه كيد اللئام
مشت نار التذكر في عظامي
وهل يغني عن اللقا سلامي

الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رقة القلوب، فمن ذلك قول خالد الكاتب:

بجسمي لا بجسمك يا عليّ ويكفيني من الألم القليل
تعدّلك السقام إليّ إني على ما بي لشدّته حمول
إذا ما كنت يا أملي صحيحاً فحالفني وسالمك النحول

وهذه أبيات ضعيفة، لا تتناسب مع شاعرية من يقول:

وحسبك حسرةً لك من حبيبٍ رأيت زمامه بيديّ عدو
وقد يتمنى المحب لو أشفى المرض محبوبه، ورتع كيف شاء في الأجسام
الدميمة، كما قال سحيم:

ماذا يريد السقام من قمرٍ كلّ جمالٍ لوجهة تبّع
ما يرتجى خاب من محاسنها أماله في القبحاح مُتسع
لو كان يبغي الفداء قلت له ها أنا دون الحبيب يا وجع
وما أرق ما يقول ابن الأحنف:

إن التي هامت بها النفس عاودها من سُقمها نُكس
كانت إذا ما جاءها المبتلى أبرأه من راحها اللمس
وإني لأبى الوجه المليح الذي قد عشقته الجنّ والإنس
وإن تكن الحمى أضرت به فربما تنكسف الشمس

وانظر جمال الرفق في قوله:

أما والله لو تجدين جدي لقلقل ما وجدت إذا حشاك

وقال الله كل أذى بنفسي وعجل يا ظلوم لنا شفاك

وأنشد أبو الحسن بن البراء:

فديتك ليلي منذ مرضت طويل
أأشرب كأساً أم أسرُّ بللدة
وتضحك سني أو تجف مدامعي
تكلت إذا نفسي وقامت قيامتي
وادمعي لما لاقيت فيك همول
ويعجبني ظبي أغن كحيل
وأصبو إلى لهو وأنت عليل
وغالت حياتي عند ذلك غول

وقال يوسف بن إبراهيم الغرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم وقد أصابته
حمى تركت على شفته بثورا:

حاشاك أن تمرض حاشاك
إن كنت محموما ضعيف القوى
قد اشتكى قلبي لشكواكا
ما رضيت حُماك إذ باشرت
فلأنني أحسد حُماك
جسمك حتى قبلت فاك

وهذا الشعر وإن كان خطابا لوزير إلا أن فيه سمات التشبيب!

* * *

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم، كما قال المؤمل:

حُلِمْتُ بكم في نومتي فغضبتكم ولا ذنب لي إن كنتم في النوم أحلم
سأطرد عني النوم كيلا أراكم إذا ما أتاني النوم والناس نُومٌ
تُصارمني والله يعلم أنني أبرُّ بها من والديها وأرحم
وقد زعموا لي أنها نذرت دمي ومالي بحمد الله لحمٌ ولا دم
برى حبها لحمي ولم يبق لي دما وإن زعموا أني صحيحٌ مسلم
فلم أر مثل الحب صح سقيمُه ولا مثل من لم يعرف الحب يسقم
ستقتل جلدا باليا فوق أعظم وليس يبالي القتل جلدٌ وأعظم

ومنهم من يبلى جسمه، ولا يبلى شوقه، كما قال أبو تمام:

يا جفونا سواها أعدمتهما لذة النوم والرقاد جُفونٌ
بلى الجسم لكن الشوق حي ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن لله في العباد منايا سلطتها على القلوب العيون

ويقرب من هذا المعنى قول السري الرفاء:

فداؤك من أوردته منهل الردى وورث الردى للعاشقين يطيبُ
وما مات حتى أنحل الحب جسمه فلم يبق فيه للتراب نصيب

والأرجاني يذكر أن طيفه لو زار حبيبته لحمل شخصه إليه لنحوه ويقول:

يُروى ضاحي الوجنات دمعي ويعدل عن لهيب جوى دخيل
وما نفعي وإن هطلت غيوثٌ إذا أخطأ أن أمكنة المحُول

وأبدوا صفحة الطرف الملول
وكم وعدوا الوصال ولم يفوا لي
تعرض يوم تشيع الحمول
وكيف يصاب ماضي من كليل
وإن من العناء هوى البخيل
لجر إليك شخصي من نحولي
إذا مال الطبيب على العليل

هَمْ نقضوا عهدِي يومَ بانوا
وفوا بالهجر لما أوعدوني
وفي الركب الهاليلين خشفُ
أصاب بطرفه الفنان قلبي
بخلتَ وقد حظيتَ بصفو ودِّي
وبتَ لو استترت اليوم طيفي
ولكن لا سبيل إلى شفاءٍ

ومنهم من يذكر أنه ضنى حتى لو تعلق بعود ثمام ما تأوّد، كما قال الحسين بن مطير الأسدي:

إذا قتلتنني أو أميرٌ يقيدها
قتلت ولم يشهد عليها شهودها
إذا لم يكن صلبا على البري عودها
بها حمر أنعام البلاد وسودها
كنظرة ثكلى قد أصيب وحيدها
لقد شفّ نفسي هجرها وصدودها
بعود ثمام ما تأوّد عودها

خليلي هل ليلي مؤديةٌ دمي
وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقل
ولن يلبث الواشون أن يصدعوا
نظرت إليها نظرة ما يسرني
ولي نظرةٌ بعد الصدود من الجوى
فحتا متى هذا الصدود إلى متى
فلو أن ما أبقيت مني معلقٌ

وقال الحارثي في وصف آثار النحول:

مجرّدة تضحي لديك وتخصرُ
أنابيب في أجوافها الريح تصفرُ
مفاصلها من هول ما تنتظرُ
بي الضرّ إلا أنني أتستر
عليّ ولا لي عنك صبرٌ فأصبر

سلبت عظامي لحمها فتركها
وأخليتها من مخها فكأنها
إذا سمعت باسم الفراق تقععت
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنظري
فما حيلتي إن لم تكن لك رحمةٌ

ويقول ابن الأحنف:

انظر إلى جسدٍ أضرب به الهوى لولا تقلب طرفه دفتوه
وتابعه المتنبي فقال:

كفى بجسمي نحولا أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني
وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته إلى بعض
أحبابه:

سكنت إلى النوى ونسيت صبا نحىلا كاد يقتله الحنين
فلما لم يجد في الحب صبرا ولم ترحم جوانحه الشجون
تفانى في النحول فلو تبدى فلما فطنت لخطرته العيون
وها هو كالخيال أتاك يسري مخافة أن تُظنّ به الظنون
فأكرم نزلهُ وارحم ضنانه فإن فؤادك الحرم الأمين

وقال بعض الشعراء:

إن الذي أبقيت من جسمه يامتلّف الصبّ ولم يشعر
صُبابةً لو أنها دمعة تجول في عينيك لم تقطُر^(١)

* * *

(١) الصبابة بالضم هي البقية الطفيفة من الشيء.

أمانى المحبين

وللمحبين أمانٍ كثيرة، لو تنفع الأمانى، فمنهم من يتمنى الكأس من يد
جميل، بين ندمان يُعاطونه أطايب الحديث، كما قال العطوي:

وكم قالوا تمنّ فقلت كأسٌ يطوف بها قضيبٌ من كتيبٍ
وندمانٍ تساقطني حديثاً كلحظ الحبّ أو غصّ الرقيب

وإنها لأمنية عزيزة المنال!

ومنهم من يسامر الأمانى حتى ليحسب محبوبه بين يديه، كما قال ابن
الزيات:

يا داني الدار في الأمانى ونازح الدار في العيانِ
ذكرك داني وأنت ناءٍ فأنت ناءٍ وأنت داني
نفسك موصولةً بنفسي وأنت كالنجم من مكاني
لي فكرٌ فيك معجبات في اللفظ صفرٌ من المعاني
تجري ضروبٌ من التمني في كل يوم على لساني
أقول حتى كأن عيني تراك من حيث لا تراني

ويتمنى ابن الأحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته، ويقول:

مجلس ينسب السرور إليه بمحب ريجانه ذكراكِ
كلما دارت الزجاجة زادت هُ اشتياقا وحرقةً فبكاكِ
لم ينلك الرجاء أن تحضريني وتحافتي أمنيّتي عن سواكِ
فتمنيّت أن يغشّيني اللهُ نُعاساً لعل عيني تراكِ

وربما تمنى المحب لو أعير سلوة من قلب حبيبته، كما قال البحري:

وددت وهل نفس امرئ بملومة إذا هي لم تعط الهوى من ودادها
لو أن سُليمي أسجحت أو لو أنه أغير فؤادي سلوة من فؤادها

وما أظرف النشوة التي تمنّاها البحري حين قال:

هل لي سبيلٌ إلى الظهران من حلب ونشوة بين ذاك الورد والآسي
أمدٌ كفي لأخذ الكأس من رشاً وحاجتي كلها في حامل الكاس
بقرب أنفاسه أشفي الغليل إذا دنا فقربها من حرّ أنفاسي

ومن غريب التمني ما جاء في رائية أبي صخر الهذلي، فقد تمنى أن يجتمع
بحبيته فوق أمواج البحر، ومن دونها اللجج الخضر والأهوال، وإليك أروع
هذه القصيدة البديعة:

لليلى بذات الجيش دارٌ عرفتُها وأخرى بذات البين آياتها سطرٌ
كأنها مـالـان لم يتغيرا وقد مرّ للدارين من بعدنا عصر
وقفت برسميها فعيّ جوائها فقلت وعيني دمعها سربٌ همر
ألا أيها الركب المخبون هل لكم بساكن أجزاء الحمى بعدنا خبرٌ
فقالوا طوينا ذاك ليلاً فإن يكن به بعض من تهوى فما شعر السّفر

* * *

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فجاءة فأبته لا عرفتُ لدي ولا نُكرُ
وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها كما قد تُنسى لبّ شاربها الخمرُ
وما تركت لي من شذا أهتدي به ولا ضلّع إلا وفي عظمها وقر
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعها الذعر

إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر
لي المهجر منها ما على هجرها صبر
على هجرها ما يبلغنني الهجر
وينبت في أطرافها الورق النضر
كما انتفض العصفور بلله القطر
على رمث في البحر ليس لنا وفر
ومن دوننا الأهوال واللجج الخضر
ويغرق من نخشى نيمته البحر
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
ويا سلوة الأيام موعداك الحشر
وزرتك حتى قلت ليس له صبر
تباريح حب خامر القلب أو سحر
ويا حبذا الأموات ما ضمك القبر

ويمنعني من بعض إنكار ظلمها
مخافة أني قد علمت لئن بدا
وإني لا أدري إذا النفس أشرفت
تكاد يدي تندي إذا ما لمستها
وإني لتعروني لذكراك هزة
تميت من حبي علية أننا
على دائم لا يعبر الفلك موجه
فنقضي هم النفس في غير رقة
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها
فيا حبها زدني جوى كل ليلة
هجرتك حتى قلت لا يعرف القلي
صدقت أنا الصب المصاب الذي به
فيا حبذا الأحياء ما دمت فيهم

وإليك شتى الأمانى في قول جميل:

إذا ما خليل بان وهو حميد
بوادي القرى؟ إني إذا لسعيد
وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
إذا جئت إياهن كنت أريد
وفي الصدر بون بينهن بعيد
يدوف لهم سما طماطم سود
تضاعف أكبال لهم وقيود
تعرض منقوص اليدين صدود
ذنوبا علينا إنه لعنود

جزتك الجوازي يا بشين ملامة
ألا ليت شعري هل أبيت ليلة
فقد تلتقي الأهواء من بعد ياسة
ويحسب نسوان من الجهل أنني
فأقسم طرفي بينهن سوية
فليت وشاة الناس بيني وبينها
وليتهم في كل ممسى وشارق
إذا جئتها يوما من الدهر زائرا
يصد ويغضي عن هواي ويجتني

فأصرمها خوفاً كَأني مُجانبٌ ويغفل عنامرةً فنعود
يقولون جاهديا جميل بغزوةٍ وأي جهاد غيرهن أريد
لكلّ حديثٍ بينهن بشاشةٌ وكل قتلٍ بينهن شهيد

وغاية الغايات في هذا الباب قول أبي بكر بن عبد الرحمن الزهري:

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقا وبستانا من النور حالياً
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه مُنى فتمنيناً فكنّت الأمانياً

* * *

الهيبة والخضوع

والشعراء يهابون الحسن، ويضلون سبيل الرشد حين يراجعون أربابه
وانظر قول أبي فراس:

أراميتي كل السهام مُصيبةً وأنت لي الرامي فكلي مقاتلٌ
وإني لمقدامٌ وعندك هائبٌ وفي الحَيِّ سحبانٌ وعندك باقل
يضلُّ عليَّ القول إن زرت دارها ويعزب عني وجه ما أنا فاعل
وحجتها العليا على كل حالةٍ فباطلها حقٌ وحقي باطل

وما أرق قوله في عكس هذا المعنى:

ومُغضٍ للمهابة عن جوابي وإنَّ لسانه العضْبُ الصقيْلُ
أطلت عتابه عتًا وظلما فدَمَعَ ثم قال: كما تقول!

ومن جيد الشعر في هيبة الحسن، قول الحسن بن وهب:

أقول وقد حاولت تقبيل كفها وبى رعدةً أहतزُّ منها وأسكنُ
ليهنك أني أشجع الناس كلهم لدى الحرب إلا أنني عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب:

أهابك إجلالا وما بك قدرةٌ عليّ ولكن ملء عين حبيها
وما هجرتك النفس أنك عندها قليلٌ ولكن قلّ منك نصيها

وفي الخضوع للحبيب يقول الشريف:

وصدودٍ عنا لكم وُصدوفٍ^(١)
 جرّ نفعاً للواجد المشغوف
 ببّ في كل خلوةٍ بالعفيف
 لنا على مؤلم من التعنيف
 رضينا بالمطلل والتسويق
 ق إلى أن رضي ببذل الطفيف

كم ذميلٍ إليكم ووجيف
 وغرام بكم لو أن غراما
 صبوّة ثم عفةً ما أضر الحـ
 هجرونا ولم يلاموا وواصلـ
 وطلبنا الوفاء حتى إذا عزّ
 كيف يرجو الكثير من راضه الشو

وانظر قول ابن الرومي:

وختنتني فوفيتُ
 وكلهم قد عصيت
 لما رضاك أتيت

أضعتني فرعيتُ
 أطعت في الأعادي
 فكيف أصبحت غضبي

* * *

(١) الذميل والوجيف من ضروب السير.

الرضى بالقليل

وقد يقنع المحب وهو راغم، فيرضى بالوعد، ويفرح بالأمان، وهي
كواذب لأن الوصل عزيز المنال، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف:

كفى حزناً أني وفوزاً ببلدة مقيماً في غير اجتماع من الشمل
أما والذي ناجى من الطور عبده وأنزل فرقاناً وأوحى إلى النحل
لقد ولدت حواء منكِ بليّة عليّ أقاسيها وخبلاً من الخبل
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم بشيء سوى حُسن المواتاة والبذل
وإني ليرضيني الذي ليس بالرضى وتقنع نفسي بالمواعيد والمطل

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

لك الله هل بعد الصدود تعطفٌ وهل بعد ريعان البعاد تدان
وما غرضي أني أسومك خطّة كفاني قليلٌ من رضاك كفاني

وقال بعض الظرفاء:

أنا راضٍ منكم بأي سر شيء يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلام على الطريق إذا ما جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميري في ليل الأخيلىة:

وهل تبكين ليلي إذا مت قبلها وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها وجاد لها دمعٌ من العين سافح
وأغبط من ليلي بما لا أناله بلى كل ما قرّت به العين صالح

وقد كثر القليل في قول ابن الطثرية:

أليس قليلا نظرةً إن نظرتها
إليك؟ وكلا ليس منك قليلٌ
وجاراه في هذا المعنى من قال:

إن ما قل منك يكثر عندي وكثيرٌ ممن تحبُّ القليلُ
وأبرع الشعر في هذا المعنى قول جميل:

وإني لأرضى من بشينة بالذي لو أبصره الواشي لقرّت بلائله
بلا، وبأن لا أستطيعن وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي وأخبره لا نلتقي وأوائله
وفي مقابل هذا يقول ابن الفارض:

وإذا اكتفى غيري بطيف خياله فأنا الذي بوصاله لا أكتفي
وأبدع منه قول ابن الرومي:

أعانقه والنفس بعد مشوكةً إليه وهل بعد العناق تدان
وألثم فاه كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذي بي من الجوى ليرويك ما تلثم الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

شفاء المحب

وقد يمرض المحب، فيفتن الناس في وصف دوائه، على أنه لا يبرأ إلا بقرب من يحب. وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء:

وما هي إلا أن أراها فجاءة فأبتهت حتى ما أكاد أجيب
وأصدف عن رأيي الذي كنت أرثي وأنسى الذي أزمعت حين تغيبُ
ويظهر قلبي عذرها ويعينها علي فإلي في الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسي مكان شفاءها قريبا وهل ما لا يُنال قريب
فواكبدي أمست رفاتا كأنها يُلذعها بالموقدات طيب
عشية لا عرفاء منك بعيدة فتسلوا ولا عفراء منك قريب
لئن كان برد الماء حران صاديا إليّ حبيبا إنها لحبيب

وفي هذا المعنى يقول بعض الأعراب:

أيا زينة الدنيا التي لا ينالها مُنّاي ولا يبدو لقلبي صريمها
بعيني قذاة من هواك لو أنها تُداوي بمن أهوى لصحّ سقيمها
وبرء قذاة العين إن لم يكن لها طيب يداوي نظرة تستديمها
فما صبرت عن ذكرك النفس ساعة وإن كنت أحيانا كثيرا ألومها

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول أبي العتاهية:

قل لمن لست أسمّي بأبي أنت وأمي
بأبي أنت لقد أصبح ست من أكبر همي
ولقد قلت لأهلي إذا أذاب الحب حمي
وأرادوا لي طبيبا فاكتفوا مني بعلمي

من يكن يجهل ما ألـ قى فإن الحب سقمي
أن روحي لبغدا دوفي الكوفة جسمي

* * *

القلب الخافق

نذكر هنا ألوانا من تصور الشعراء لخفوق القلب، فمنهم من يشبهه بتنزي
الكرة كما قال بشار:

يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرا
كأن فؤاده كرة تنزى حذار البين لو نفع الحذار

ومنهم من يشبهه بالوشاح القلق، فوق الخصر الدقيق، كقول مسلم بن
الوليد:

أزكى من الماسك أنفاسا وبهجتها أرق ديباجة من رقة النفس
كأن قلبي وشاحا إذا خطرت وقلبا قلبها في الصمت والخرس^(١)
تجري محبتها في قلب عاشقها تجري السلامة في أعضاء منتكس

وابن الأحنف يشبه القلب الخافق بيد القينة الهوجاء تضرب بالدف،
ويقول:

يبين لساني عن فؤادي وربما أسر لساني ما ييوح به طرفي
أعيذك أن تشقى بقتلي فإنني أخاف عليك الله أن سمتني حتفي
إذا القلب أوما أن يطير صباة ضربت له صدري وألزمته كفى
كأن جناحيه إذا هاج شوقه يدا قينة هوجاء تضرب بالدف

ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين يتنفض، كقول أحد الأعراب:

ألا بآبي من ليس والله نافي نبيل ومن قلبي على النأي ذاكره

(١) القلب بضم القاف هو السوار.

ومن كبدي تهفو إذا ذكر اسمه كهفو جناح ينفض الطلّ طائرته

وقد وضح هذا المعنى في قول نُصيب:

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليل العامرية أويـراحُ
قطاةٌ عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح
لهافر خان قد تُركا بوكرٍ فعشّهما تُصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصا وقد أودى به القدر المتاح^(١)
فلا في الليل نالت ما ترجيَّ ولا في الصبح كان لها براح

وابن ميادة يذكر أن قلبه أمسى وكأن يدا خبثت به، أي قبضت عليه
وسامته العذاب، ويقول:

كأن فؤادي في يدٍ ضبثت به محاذرة أن يقضب الحبل قاضبه
وأشفق من وشك الفراق وإنني أظن لمحمول عليه فراكبه
فوالله ما أدري أيغلبني الهوى إذا جدّ جدّ البين أم أنا غالبه
فإن أستطع أغلب وأن يغلب الهوى فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

* * *

(١) نص الطائر هم بالنهوض.

مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كلما هب من نومه، أو أوى إلى فراشه كالذي يقول:

آخر شيء أنت في كل هجعة وأول شيء أنت عند هبوبي
مزيدك عندي أن أقيك من الردى وود كماء المزن غير مشوب

والمنى تمثل الحبيب في قول راشد بن أرشد:

تحيرت في أمري وإني لواقف أجيل وجوه الرأي فيك وما أدري
أعزم عزم اليأس فالموت راحة أو أقنع بالإعراض والنظر الشزري
وإني وإن أعرضت عنك لمنطوي على حرق بين الجوانب والصدر
إذا هاج شوقي مثلتك لي المنى فألقاك ما بيني وبينك في السر
فمن ذاك لم أصبر ولي فيك حيلة ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر
تصبرت مغلوباً وإني لموجع كما يصبر الظمآن في البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذي يقول:

ضحكت ولو تدرين ما بي من الهوى بكيتم لمحزون الفؤاد كئيب
لمن لم تُرح عيناه من فيض عبدة ولا قلبه من زفرة ونحيب
لمستأنس بالهم في دار وحشة غريب الهوى بالك لكل غريب
ألا بأبي العيش الذي بأن وانقضى وما كان من حسن هناك وطيب
وترداد مستور الأحاديث بيننا على غفلة من كاشح ورقيب
ليالي يدعونا الصبا فنجييه ونأخذ من لذاته بنصيب
إلى أن جرى صرف الحوادث في الهوى فبدل منا مشهداً بمغيب

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد، وحرماننا منه صاحب زهر الآداب حين قال «وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره، وصنت الكتاب عن ذكره» وبهذه الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر، وكم نتمنى أن لا يخلط المؤلفون بين الأدب والأخلاق!

وأجود ما قيل في مثال الحبيب قول كثير:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل سبيلٍ

* * *

أهوال الصدود

ولقد أطل الشعراء في شكوى الصد، وما يقاسون فيه من أهوال، فمن ذلك قول الشريف:

وبين ذوائب العقيدات ظبيٌّ قصير الخطو في المرط المذالِ
ريبٌ إن أريغ إلى حديث نوار إن أريد إلى وصالِ
فهل لي والمطامع مُرديات دنوٌ من لمى ذاك الغزالِ
لقد سلبت ظباء الدار لبّي ألا ما للظباء بها ومالي
تنغصني بأيام التلاقي معاجلتي بأيام الزيالِ
تحيفني الصدود وكنت دهرًا أروع بالصدود فلا أبالي
وكيف أفیق لا جسدي بناءً عن البلوى ولا قلبي بسالي
يرنحني إليك الشوق حتى أميل من اليمين إلى الشمالِ
كما مال المعافر عاودته حُميا الكأس حالا بعد حالِ
ويأخذني لذكركم ارتياحٌ كما نشط الأسير من العقالِ

وعبد الله بن مصعب يأسى على أن لم يُعده أحبابه في مرضه، مع أنه يعود كلبهم إذا مرض! ولهذا لقّب (عائد الكلب) حين قال:

مالي مرضت فلم يعدني عائدٌ منكم ويمرض كلبكم فأعودُ
وأشد من مرضي عليّ صدودكم وصدود عبدكم عليّ شديد

ويرى أبو النواس أن قرب الدار لا ينفع مع الصدود، ويقول:

لقد عاجلت قلبي جنانٌ يجرها وقد كان يكفيني بذاك وعيدُ
رأيت تداني الدار ليس بنافع إذا كان ما بين القلوب بعيد

وابن الأحنف يترك العتب على الصدا، لئلا يُرزا بصداً جديداً، ويقول:

تركت صدودها وصبرت نفسي بطول تجرّع الغيظ الشديد
مخافة أن تجدد لي صدودا وكنت حديث عهد بالصدود

وقد وضح هذا المعنى من قبل في قول أبي صخر الهذلي:

ويمنعني من بعض إنكاري ظلمها إذا ظلمت يوماً وإن كان لي عذر
مخافة أني قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر

والبحري يمزج الشكوى بالعتاب في قوله:

ظلمتني تجنياً وصدودا غير مرتاعة الجنان لظلمي
ويسير عند القتل إذا ما أثمت في أن تبوء بإثمي
أجد النار تستعار من النا ر وينشو^(١) من سقم عينيك سقمي
لعب ما أتيت من ذلك الصداً فنرضاه أم حقيقة عزم
وبحق أن السيوف لتنبو تارة والعيون باللحظ تُدمي

ويروقني الندم على الصدود في قول صاحب البدائع:

لقد صدوناكم كما صددم فهل ندمتم كما ندمنا

* * *

(١) يقال: نشأ ينشأ ونشؤ ينشؤ: أي قوي وزاد.

التلفت إلى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون، تلفتهم إلى معاهد الحب: عند الوداع، وبعد الفراق.

قال بعض الرواة: مررت بحمى الربذة فإذا صبيان يتقاسمون^(١) في الماء، وشاب جميل الوجه ملوح الجسم قاعد، فسلمت عليه فرد عليّ السلام. وقال: من أين وضع الراكب؟ قلت من الحمى! قال ومتى عهدك به؟ قلت راءحاً. قال وأين كان مبيتك؟ قلت: أدنى هذه المشاقر^(٢). فألقى نفسه على ظهره، وتنفس الصعداء. فقلت نفساً^(٣) حجاب قلبه، وأنشأ يقول:

سقى بلداً أمست سُليمي تحلهُ من المزن ما تُروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه يحلّ به شخص عليّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه لدي وإن شط المزار نعيم
ومن لا مني فيه حبيب وصاحبٌ فرد بغيطٍ صاحبٌ وهميمُ

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه، فصحت بالأصبية، فأتوا بهاء فصبيته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول:

إذا الصب الغريب رأى خشوعي وأنفاسي تـزين بالخشوعِ
ولي عينٌ أضرب بها التفاني إلى الأجزاء مطلقـة الدموعِ
إلى الخلوات تأنس فيك نفسي كما أنس الوحيد إلى الجميع

(١) يتقاسمون: يتغطون، يقال قمسته في الماء غططه فيه.

(٢) المشاقر منابت العرفج.

(٣) تقساً: تشقق وانصدع.

والشاهد في الأبيات الأخيرة.

وما أوجع تلفت القلب بعد العين في قول الشريف:

تلفت حتى لم يبن من بلادكم
وإن التفات القلب من بعد طرفه
ولما تدانى البين قال لي الهوى
أطمع أن تسلو على البعد والنوى
ولو قال لي الغادون ما أنت مشته
أصبر والوعساء بيني وبينكم
دخان ولا من نارهن وقود
طوال الليالي نحوكم ليزيد
رويدا وقال القلب أين تريد
وأنت على قرب المزار عميد
غداة جزعنا الرمل قلت أعود^(١)
وأعلام خبت، إنني لجليد!

وانظر قوله من كلمة ثانية:

ترحلت عنكم لي أمامي نظرة
ومن حذر لا أسأل الركب عنكم
ومن يسأل الركبان عن كل غائب
وعشرٌ وعشر نحوكم من روائيا
وأعلاق وجدي باقيات كما هيا
فلا بد أن يلقي بشيرا وناعيا

* * *

(١) جزع من باب منع: تقال جزع الأرض قطعها.

الصد والنوى

يأسى العشاق للصد، حتى إذا راعتهم مرارة النوى، علموا أن الصد كان
حلو المذاق. وفي هذا المعنى يقول ابن الخياط:

كفى حزناً أني أبيت معذباً بنار هموم ليس يخبو سعيها
وأن عدوي لا يُراع وأنني أبيت سخين العين وهو قريها
وأنى لرهن الشوق والشمل جامع فكيف إذا حثّ الحُداة أميرها
وما زلت من أسر القطيعة باكياً فمن لي غداة البين أني أسيرها
وكنت أرى أن الصدود منية يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد بيننا وجدت الليالي كان حلوا مريها
هوى ونوى يستقبح الصبر فيهما وحسبك من حال يُذمّ صبورها

وقد أصاب في تشبيه النوى بعد الهجر، بالجرح بعد الجرح حين قال:

أحنّ إلى سقمي لعلك عائدي ومن كلف أني أحنّ إلى السقم
وحتاماً أستشفى من الداء ما به سقامي وأستروي من الدمع ما يُظمي
فراق أتى في إثر هجر وما أذى بأوجع من كلم أصاب على كلم

وحين المحب إلى سقمه، أملا في أن يعودَه حبيبه، يذكرنا بقول كثير:

يود بأن يُمسي سقيها لعلها إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

القريب والبعيد

هو الحبيب الذي يجاورك، أو يساكنك، ثم لا تملك وصله، ولا حديثه.
وقد تزوره بلمح العين. كما قال ابن الدمينه:

ألا حُب بالبيت الذي أنت هاجرُهُ وأنت بتلحاحٍ من الطرف زائرُهُ
فيالك من بيتٍ لعيني مُعجبٍ وأحسنُ في عيني من البيت عامره
أصدُّ حياءً أن يلج بي الهوى وفيك المنى لولا عدوُّ أحاذره

وفي هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

تدانت بقومٍ عن تناءٍ زيارةً وشطَّ بليلى عن دُنو مزارها
وإن مقيماتٍ بمنعرج اللوى لأقرب من ليلي وهاتيك دارها
والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع في قربه، بالماء يمنع من وروده الظمان،
ف نجد منهم من يقول:

إني وإياك كالصادي رأى هَلا ودونه هُوةٌ يخشى بها التلفا
رأى بعينه ماءً عزَّ موردهُ وليس يملك دون الماء مُنصرفا

ومن يقول:

وإني على هجران بيتك كالذي رأى هَلا رِيا وليس بناهلٍ
يرى برد ماءٍ ذيد عنه وروضة برود الضحى فينانةً بالأصائل

وقد صور جميل هذا المعنى حين قال:

وما صادياتٌ حُمنَ يوما وليلةً على الماء يخشينَ العِصيّ حواني
حوائم لم يصدرن عنه لوجهةٍ ولا هنَّ من برد الحياض دواني

يَرَيْنَ حِجَابَ الْمَاءِ وَالْمَوْتَ دُونَهُ فَهِنَّ لِأَصْوَاتِ السُّقَاةِ رَوَانِي
بِأَكْثَرِ مَنْي غُلَّةٍ وَصَبَابَةٍ إِلَيْكَ وَلَكِنَّ الْعَدُوَّ عِرَانِي

وقال أبو حية النميري أو العباس بن الأحنف:

كفى حزناً أني أرى الماء بادياً لعيني ولكن لا سبيل إلى الوردِ
وما كنت أخشى أن تكون منيتي بكفٍّ أعز الناس كلهم عندي

* * *

حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم، لذكر الحبيب، كما قال أبو نواس:

أحب اللوم فيها ليس إلا لترداد اسمها فيما ألام
ويدخل جها في كل قلب مداخل لا تغلغها المدام

وفي هذا المعنى يقول محمد ابن أبي أمية:

وحديثني عن مجلس كنت زينه رسول أمين والنساء شهود
فقلت له رد الحديث الذي مضى وذكرك من بين الحديث أريد

وقد ظرف البها زهير حين قدم رضى الحبيب على رضا العذول، وقال:

يا من يهدد بالصدود نعم تقول وتفعل
قد صبح عذرك في الهوى لكنني أتعلل
قل للعذول لقد أطلت ست لمن تلوم وتعذل
عابت من لا يرعوي وعذلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من غضب الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبي فراس:

أساء فزادته الإساءة حُظوةً حبيب على ما كان منه حبيب
يعد علي العاذلون ذنوبه ومن أين الوجه المليح ذنوب؟

والرقيب أخو اللائم في تنغيص حياة العشاق، ومن طريف الشعر في الألم
لقرب الرقيب قول ابن المعتز:

وبلائي في محضرٍ ومغيبٍ من حبيب مني بعيد قريب

لم تَرِدْ ماء وجهه العين إلا
 شرقت قبل ريهـا برقيب
 وقوله:

قد دنت الشمس للمغيـب
 طوبى لمن عاش عـشـر يوم
 وحان شوقي إلى الحبيب
 له حبيبٌ بلا رقيب
 وما أظرف من يقول:

لسهم الحب جرحٌ في فؤادي
 يوكل ناظريه بنا ويحكي
 وذاك الجرح من عين الرقيب
 فلو سقط الرقيب من الثريا
 مكان الكاتين من الذنوب
 لصبّ على محب أو حبيب
 وانظر كيف ضرب المثل بغفلة الرقيب في قول أحد الظرفاء:

يسقيك من كفه مُداما
 كأنها إذ صفت ورقت
 ألدّ من غفلة الرقيب
 شكوى محبّ إلى حبيب
 وقد كلف سعيد الوراق بـغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم رقباء، وفيهم يقول:

بربك يا حمامة دير زكي
 قفي وتحملي مني سلاما
 وبالإنجيل عندك والصليب
 فقلبي ما يقرّ من الوجيب
 إلى قمر على غصن رطيب
 ولا والله ما أنا بالمريب
 حمّاه جماعة الرهبان عني
 وقولوا رابنا إمام سعد
 وقولي سعدك المسكين يشكو
 فصله بنظرة لك من بعيد
 وإن أنا مُتّ فاكتب حول قبري
 رقيبٌ واحدٌ تنغيص عيش
 لبيب جوى أحر من اللهب
 إذا ما كنت تمنع من قريب
 محب مات من هجر الحبيب
 فكيف بمن له ألفا رقيب؟

إنه لابد مقتول، كما قتل صاحب هذه الأبيات!!

رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه في ضميره، كلما اشتاق إليه، كما قال الحكم بن قنبرة:

إن كنت لست معي فالذكر منك معي
العين تبصر من تهوى وتفقدته
يرعاك قلبي وإن غُيِّبَ عن بصري
وناظر القلب لا يخلو من النظر
وقال آخر:

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى
تُرِينِكَ عين الوهم حتى كأني
لئن غبت عن عيني ما غبتَ عن قلبي
أناجيك من قربٍ وإن لم تكن قربي
وقال أبو عثمان الناجم:

لئن كان من عيني أحمدُ غائباً
له صورةٌ في القلب لم يقصها النوى
فما هو عن عين الضمير بغائب
ولم تتخطفها أكفُ النوائبِ
إذا ساءني يوماً شُحوط مزاره
عطفت على شخصٍ له غير نازح
محلتهُ بين الحشا والثرائب

ويقرب من هذا المعنى قول الآخر في الاستعانة باسم الحبيب:

وليل وصلنا بين قطريه بالسرى
أطلت علينا من دجاء حنادسٍ
وقد جدّ شوقٌ مُطمعٌ في وصالك
أعدن الطريق النهجَ وعر المسالك
وأسفر منها كل أسودَ حالك
وقد نشبت فينا أكفُ المهالك
وإن كنتِ لما تُحْطريني ببالك
منحتك إخلاصي وأصفيتك الهوى
فناديت يا أسماء باسمك فانجلت
بنا أنتِ من هاد نجونا يذكره
منحتك إخلاصي وأصفيتك الهوى

وفي مثل هذا المعنى يقول إسحاق الموصلي:

صب يَحْثُّ مطاياہ بذكرکم وليس ينساکم إن حلّ أو سارا
لو يستطيع طوى الأيام نحوکم حتى يبيع بعمر القرب أعمارا
يرجو النجاة من البلوى بقربکم والقرب يُلهب في أحشائه النارا

* * *

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب، في حديث الشعراء، وقد أثبت أخيراً أحد الأطباء
الألمان أن موطن الحب هو الكبد، ونريد أن نذكر هنا طرفاً من حديث العرب
عن الكبد، وقرار الحب فيهن مما يماثل هذا الرأي الجديد .. قال بعض
الأعراب:

فيا كبدًا يُحمى عليها وإنها مخافة هيضات النوى لخفوقُ
أقام فريق من أناسٍ يودّهم بذات الغضا قلبي وبان فريق
بحاجة محزنٍ يظلّ وقلبه رهينُ بيضات الحجال صديق

وجرى ذكر القلب والكبد في كلمة صدر حين قال:

لا الحمى بعدكم مناخٌ ولا ما ء اللوى إذ هجرتموه بورد
والفؤاد الذي عهدتم جموحاً راضه طول جوركم والتعدي
ما تريدون من دلائل شوقي غير هذا الذي أجنُّ وأبدي
كبدٌ كلما وضعت عليه راحتني قال أنت قاذح زندي
وجفون جرين مدا وماء الـ بحر يرتاح بين جزر ومدّ

وكذلك جمع بينهما البحري حين قال:

وما كبدي بالمستطاعة للأذى فأسلو ولا قلبي كثير التقلبِ

وابن الأحنف حين قال:

ما للكلوم التي بالقلب من آسي فاصبر على اليأس يا مستقبل اليأس
ما أسمع الناس في عيني وأقبحهم إذا نظرت فلم أبصركِ في الناس

حتى متى كبدي حرّى معطشةً ولا يلين لشيء قلبك القاسي
يا موري الزند قد أعيت قوادحُه اقبس إذا شئت من قلبي بمقباس

* * *

بكاء الملاح

نذكر للقارئ شذرات من الشعر في بكاء الملاح، وما أغزر الدمع في بكاء المليح، حين يظفر بحسنه التراب:

قال ابن عبد ربه: كان لمعلّى الطائي جارية يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة، فأخبر محمد بن وّصّاح قال: أدركت معلّى الطائي بمصر وأعطي بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها قالت له: بعثني يا معلّى؟! قال نعم، فقالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعثك بالدنيا وما فيها!! فرد الدنانير واستقال صاحبه ثم أصيب بها إلى ثمانية أيام. فقال يرثيها:

يا موتُ كيف سلّبتني وصفا	قدّمتها وتركتني خلفا
هلا ذهبت بنا معا فلقد	ظفرت يدك فسُمتني خسفا
وأخذت شق النفس من بدني	فقبرته وتركت لي النصفا
فعليك بالباقي بلا أجل	فالموت بعد وفاتها أعفى
يا موت ما أبقيت لي أحدا	لما رفعت إلى البلى وصفا
هلا رحمت شباب غانية	ريّا العظام وشعرها الوحفا ^(١)
ورحمت عيني ظبية جعلت	بين الرياض تناظر الخشفا
تقضي إذا انتصفت مرابضه	وتظل ترعاه إذا أغفى
فإذا مشى اختلفت قوائمه	وقت الرضاع فينطوي ضعفا
متحيرا في المشي مُرتعشا	يخطو فيضرب ظلّفه الظلفا

(١) الوحف: الأسود.

نحوي تحيرٌ محاجرًا وُطفا^(١)
إلفٍ يصون ببره الإلفا
ما كنت قبلك حاملا وكفا^(٢)
بيتا يصافح ثُربه السقفا
عصفت به أيدي البلى عصفا
حتى نقوم لربنا صفا
قد كنت ألبس دونها الحتفا
من الريحان قد جفا
فلقد حويت البر والظرفا

فكأنها (وصفٌ) إذا جعلت
يا موت أنت كذا لكل أخي
خلفتني فردا وبنيت بها
أسكنتها في قعر مظلمةٍ
بيتا إذا ما زاره أحدٌ
لا نلتقي أبدا معاينةً
لبست ثياب الحتف جاريةً
فكأنها والنفس زاهقة غصن
يا قبر أبقِ على محاسنها

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الأبيات:

سقى الله بردَ العفو صاحبة القبر
وشمس الضحى بين الصفائح والقفر
وقلبٍ عليها يرتجي راحة الصبر

أقول لقبر زرتَه متلثما
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى
عجبت لعين بعدها ملت البكا

وقال أبو تمام وقد ماتت جارية له:

وخطب الردى والموت أبرحت من
تبدلتُ منها غربة الدار بالقرب
من الكرب روح الموت شرّ من
لها منزل بين الجوانح والقلب

دخوف البلى أسرع في الغصن
لقد شرقت في الشرق بالموت غادة
أقول، وقد قالوا استراحت لموتها
لها منزل تحت الثرى وعهدتها

وما أجمل قوله من كلمة ثانية:

إذا ما أراد اعتاض عشا مكانها

يقولون هل يبكي الفتى لخريده

(١) وطف جمع أوطف ووظف وهو الماء الكثير أو الدمع: توصف به السحب والعيون.

(٢) الوكف: الظلم.

وهل يستعويض المرء من خمس كفه ولو صاغ من حرّ اللجين بنائها

وقال ابن الرومي في بستان وكانت من المجيدات في الغناء:

ما أولع الدهر في تصرّفه بكل زينٍ له ومفتخره
أطار قمريّة الغناء عن الأر ض فأَي القلوب لم تطير
بستان يا حسرتا على زهرٍ فيك من اللهب بل على ثمر
بستان أضحى الفؤاد في وله يا نزهة السمع منه والبصر
بستان ما منك لامرئ عوض من البساتين لا ولا البشر
إن لم أكن متّ فانقرضت فكم من موتةٍ للفؤاد في الذكر
وما أرق قوله في هذه القصيدة:

يا غضة السن يا صغيرته أمسيت إحدى المصائب الكُبر
أني اختصرت الطريق يا سكني إلى لقاء الأكفان والحُفر
أبعدا كنت باب مبتهَج للنفس أصبحت باب معتبر
كل ذنوب الزمان مغتفر وذنبيه فيك غير مغتفر
لله ما ضمنت حفيرتها من حسن مرأى وطيب مختبر
أضحت من الساكني حفائهم سُكنى الغوالي مداهن السرر
لو علم القبر من أتيح له لانحفر القبر غير مُحْتَفَر

وأحب لو تأمل القارئ ما في هذا الشعر من سمو الخيال.

وكان مرة بن عبد الله مغرماً بفتاة من قومه يقال لها ليلي بنت زهير،
وتزوجت من غيره بالرغم منه، ثم نقلت مع زوجها إلى راذان وماتت هناك،
فقال مرة فيها كثيراً من الشعر الموجه. كقوله:

أيانا عيي ليلي أما كان واحداً من الناس ينعاها إليّ سواكما
ويانا عيي ليلي لجلت مصيبة بنا فقد ليلي لا أمرت قواكما

ولا عشتما إلا حليفي بليّة
فأشمت والأيام فيها بوائق
ولا متّ حتى يُشترى كفناكما
بموتكما إني أحبُّ رداكما

وقوله:

كأنك لم تُفجع بشيءٍ تُعدّه
ولم تربؤسا بعد طول غضارة
سقى جانبي راذان والساحة التي
ولا زال خصبٌ حيث حلت عظامها
وإن لم تكلمنا عظاماً وهامةً
ولم تصطر للنائبات من الدهر
ولم ترمك الأيام من حيث لا تدري
بها دفنوا ليلي مُلثٌ من القطر
براذان يسقي الغيث من هطل غمر
هناك وأصداءٌ يقينٌ مع الصخر

وكان لإسحاق الموصلي غلام جميل يقال له زياد، وهو الذي يقول فيه:

إذا ما زيادٌ علّني ثم علّني
خرجت أجرّ الذيل زهوا كأنني
ثلاث زجاجات لهن هديرٌ
عليك أمير المؤمنين أمير

ثم مات زياد هذا، فقال إسحاق يبيكه:

فقدنا زيادا بعد طول صاحبة
ستبكك كأسٌ لم تجد من يديرها
فلا زال يسقي الغيث قبر زياد
وظمآن يستبطي الزجاجة صادي

وكان محمد بن منذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي، وكان عبد
المجيد هذا من أجمل الفتيان وأدهم وأظرفهم، وله مع ابن منذر حديث طويل
ذكره صاحب الأغاني، ثم مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو في سن
العشرين فقال فيه ابن منذر قصيدة طويلة نختار منها هذه القطعة الباكية:

كلّ حيٍّ لاقي الحمام فمودي
لا تهاب المنون شيئا ولا تبقي
ما لحي مؤمل من خلود
على والدي ولا مولود

م وهيا في الصخرة الصيخود^(١)
 لعلاءٍ أخلدن عبد المجيد
 ما على النعش من عفافٍ وجود
 دفتته ما غيّت في الصعيد!
 رُفمن بين قائمٍ وحصيد
 ن سراعا المنهلٍ مورود
 هدّ ركنما ما كان بالمهدود
 تْ بركنٍ أنوء منه شديد
 عثرت بي بعد انتعاش جدودي^(٢)
 نى وشلت به يمين الجود
 برداءٍ من الشباب جديد
 اهتزاز الغصن الندي الأملود^(٣)
 حين أدعوه من مكان بعيد
 ن سميعا هشا إذ هو نُودي
 لا أراه في المحفل المشهود
 سدك لي إن دعوت من مردود
 ملء عين الصديق رغم الحسود
 ن رجاءٍ لريب دهرٍ كنود
 سدك إني عليك حقّ جليد
 سسك نفسي بطارفي وتليدي

ولقد تترك الحوادث والأيا
 ولو أن الأيام أخلدن حيّا
 ما درى نعشه ولا حاملوه
 ويحّ أيدٍ جنت عليه وأيدٍ
 وأرانا كالزراع يحصده الده
 وكأنا للموت ركبٌ محبُّو
 إن عبد المجيد يوم تولى
 هدّ ركني عبد المجيد وقد كن
 وبعبد المجيد تامور نفسي
 وبعبد المجيد شلت يدي اليم
 حين تمت آدابه وتردّي
 فسقاه ماء الشبية فاهتزّ
 وكأني أدعوه وهو قريب
 فلئن صار لا يجب لقد كا
 يافتى كان للمقامات زينا
 لهف نفسي! أما أراك وما عن
 كان عبد المجيد سم الأعادي
 عاد عبد المجيد رزءا وقد كا
 خنتك الودّ لم أمّت كمدا بع
 لوفدي الحي ميتا لفدت نف

(١) الصيخود: الشديدة.

(٢) تامور النفس حياتها.

(٣) الأملود: الناعم الرقيق.

ن عليه لأبلغن مجهودي
ل زهرا يقطعن حرّ الخدود
ي عليه وللفؤاد العميد^(١)
ل لها الدهر لا تقري وجودي
ت لعبد المجيد سجلا فعودي
وفتى كان لامتداح القصيد
وبكرهي دليت في الملحود
بك تحيا أرضي ويخضر عودي

ولئن كنت لم أمت من جوى الحز
لأقيمن مأتما كنجوم اللي
موجعات يكين للكبد الحر
ولعين مطروفة أبدا قا
كلما عزك البكاء فأنفد
لفتى يحسن البكاء عليه
فبرغمي كنت المقدم قبلي
كنت لي عصمة وكنت سماء

وأغرم يعقوب بن الربيع بجارية تسمى (مُلك) ومكث في طلبها سبع
سنين، حتى رق ماله، وجاهه، ثم ملكها، فأقامت عنده ستة أشهر ومات فقال
يبكيها:

ما كان أبعدا من الدنس
يا قرب مأتها من العرس
فرمى فؤادا غير محترس
تحت الظلام تنوح في الغلس

لله أنسة فجعت بها
أتت البشارة والنعي معا
يا مُلك! نال الدهر فرصته
أبكيك ما ناحت مطوقة

وقال فيها:

كان هجري لقبرها واجتنابي
أم لعلمي بشغلها عن عتابي
حين وارىت وجهها في التراب
ت عنائي بها وطول طلابي
أتأتى لذاك من كل باب

ليت شعري بأي ذنب لملك
ألذنب حقدته كان منها
أم لأمني لسخطها ورضاها
إنما حسرتي فإذا ما تذكر
لم أزل في الطلاب سبع سنين

(١) العميد الذي صرعه الحزن.

فاجتمعنا على اتفاقٍ وقدرٍ
أشهرها ستة صحبتك فيها
وأتاني منك النعيّ مع البش
ورى فيا قرب أوبةٍ من ذهاب
وغنينا عن فرقةٍ باصطحاب
كن كالحلم أو كلمع السراب

وما أروع قوله في وصف احتضار هذه الجارية:

حتى إذا فترَ اللسانُ وأصبحت
وتسهّلت منها محاسنُ وجهها
رجعَ اليقينُ مطامعي يأسا كما
وللموت قد ذبلت ذبول النرجسِ
وعلا الأنين تحثُّهُ بتنقّسِ
رجع اليقين مطامع المتلمّس^(١)

وقد وصف غربته من بعدها فقال:

فُجعتُ بمُلكٍ وقد أُنعتُ
فأصّبحت مغتربا بعدها
أراني غريبا وإن أصّبحت
عطفّت على أختها بعدها
فأقبلتُ أبكي وتبكي معي
وقلّتُ لها مرحبا مرحبا
سأصفيك ودي حفاظا لها
أراك كملّك وإن لم تكن
وتمتّ فأعظم بها من مصيبةٍ
وأضحت بحلوان مُلك غريبه
منازل أهلي مني قريبه
فصادفتها ذات عقلٍ أديبه
بكاء كئيبٍ بحزن كئيبه
بوجه الحبيبة أخت الحبيبه
فذاك الوفاء بظهر المغيبه
لملك من الناس عندي ضريبه^(٢)

والشعر في بكاء الملاح كثير، ولكن حب الإيجاز يحملنا على الاكتفاء بهذا المقدار، وما هو بالقليل.

(١) المتلمس هو صاحب الصحيفة التي يضرب بها المثل في الخيبة.

(٢) ضريبة: شبيهة.

بكاء الحلائل

وأوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كن حلائل، والحليلة المعشوقة متاع عزيز!
فمن ذلك قول أحد الفتيان في بكاء امرأته، وكان بها من المغرمين:

أطأ التراب وأنتِ رهنِ حفيرةٍ هالت يدايَ على صدكِ تراها
أني لأغدرُ من مشى إن لم أطأ بجفونِ عيني ما حيثُ جنبها

قال ابن رشيقي: ومن جيد ما رُثِيَ به النساء وأشجاء، وأشدّه تأثيراً في القلب، وإثارة للحزن، قول محمد بن عبد الملك الزيات في أم ولده:

ألا من رأى الطفل المفارق أمّه بعيد الكرى عيناهُ تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمّه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحثّه بلا بل قلبٍ دائم الخفقان

يقول فيها بعد أبيات:

ألا إن سجلا واحدا قد أرقته من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني أن بكيّت فإنما أداوي بهذا الدمع ما ترياني
وإن مكانا في الثرى خط لحدهُ لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى فهل أنتما إن عُجْتُ منتظران

ومن أشجى الشعر رثاءً قوله في هذه القصيدة:

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمانٍ
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة ولا يأتسي بالناس في الحداث
ألا من أمنيّه المنى وأعدهُ لعشرة أيامي وصرف زماني

ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي وإن غبت عنه حاطني ورعاني
ولم أر كالأقدار كيف يصبنني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

ومن موجد الشعر قول امرأة شريفة ترثي زوجها ولم يكن دخل بها:

أبكىك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والرمح والفرس
أبكى على فارسٍ فجعتُ به أرملني قبل ليلة العُرسِ
يا فارسا بالعراء مطّرحا خائنه فُواده مع الحرسِ
مالليتامى إذا همّ سغبوا وكل عان وكل محتبس

وإني لأسف على قلة هذا النوع من الشعر في الآداب العربية، مع أنه من دلائل الوفاء، لو يعلم الشعراء!

* * *

لوعة الشوق

نمتع القارئ في هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن تغلغل الشوق في طيات الفؤاد. فمن ذلك قول أحد الشعراء وقد اشتاق إلى أرض جِلَق، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها:

وإن اصطباري عن معاهد جِلَقٍ غريبٌ فما أجفى الفراق وأجفاني
سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها كحلت بها من شدة الشوق أجفاني

وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق إلى قرطبة:

أقرطبة الغراء هل لي أوبةٌ إليك وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانب الغربي منك غمامةٌ وقعقع في ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليك أسحارٌ وأرضك روضةٌ وتربك في استنشاقه عنبرٌ ورد

وإني ليكنيني قول الشريف:

ذكرت الحمى ذكر الطريد محله يُذاذ ذبادَ العاطشات ويُرجعُ
وأين الحمى لا الدار بالدار بعدهم ولا مربعٌ بعد الأحبة مربعُ
سلامٌ على الأطلال لا عن جنابةٍ ولكنّ يأساً حين لم يبق مطمعُ
نشدتكم هل زال من بعد أهله زروءٌ وهل زالتُ طولٌ وأربعُ
نعم عادي عيد الغرام ونبهتُ عليّ الجوى دارٌ بميثاء بلقعُ
وطارت بقلبي نفحة غصوية تنفسها حالٌ من الروض ممرعُ
نظرت الكتيب الأيمن اليوم نظرة تردُّ إليّ الطرف يدمى ويدمعُ
وأيقظت للبرق اليمانيّ صاحباً بذات النقا يخفى مِرا را ويلمعُ
أأنت معيني للغيل بنظرةٍ فنبكي على تلك الليالي ونجزعُ

إذا لدعاك الشوق من حيث تسمع
وبرء الحشا، إني من البين موجع
ولا نوم لي إلا النعاس المروع
ألا موطن يدنو بشملٍ ويجمع

معاذ الهوى لو كنت مثلي في الهوى
هناك الكرى، إني من الوجد ساهر
فلا لب لي إلا تماسك ساعة
ألا ليت شعري كل دار مُشْتة

وانظر كيف يقول:

إلى الماء قد مُوطِنَ بالرشفان
معاجبا بأقرانٍ ولا بمشانٍ
غريمٌ إذا رمت الديون لواني
رأيت بليلي غير ما تريان
تُراك ببطن المأزمين تراني
بها عرضا ذاك الغزال رَماني

وما حائثٌ يلتفتن من الصدى
إذا قيل هذا الماء لم يملكوا لها
بأظما إلى الأحباب مني وفيهم
فيا صاحبي رحلي أقلأ فإنني
ويا مُزجي النضو الطليح عشية
وهل أنا غادٍ أنشد النبلة التي

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول:

ونجدا وكثبان اللوى والمطاليا
فقولوا لديغٌ يتغي اليوم راقيا
تراكم من استبدلتم بجواريا
لواظمه تلك الظباء الجوازيا
به ورعى الروض الذي كنت راعيا
تذوب عليها قطعة من فؤاديا
حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فإني سأكسوك الدموع الجواريا
نسيتم ما استودعتم الود ناسيا
وموقفنا نرمي الجمار لياليا
حديث النوى حتى رمى بي المراميا

خذوا نظرةً مني فلاقوا بها الحمى
ومروا على أبيات حي برامةٍ
وقولوا لجيران على الخيف من منى
ومن حل ذاك الشعب بعدي وأرشقت
ومن ورد الماء الذي كنت واردًا
فوالهفتي! كم لي على الخيف شهقةٌ
صفا العيش من بعدي لحى على النقا
فيا جبل الريان إن تعر منهم
ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا
أنكرتم تسليمنا ليلة النقا
عشيّة جاراني بعينه شادن

رمى مقتلي من بين سجنفي غبيطه
 فيا ليتني لم أعلّ نشزا إليكم
 حراما ولم أهبط من الأرض واديا
 ولم ألق في اللاقين حيا يمانيا
 ويا ويح نفسي كيف زaidت في مهّا
 بذى البان لا يُشرين إلا غواليا

ويقول الأبيوردي يصف شوقه إلى حبيبته:

وأقسمُ بالبيت الرحيب فناؤه
 لأنّ إلى نفسي أحب من الغنى
 وبالحجر المثلثوم والحجر والرُكن
 وذكرك أحلى في فؤادي من الأمن
 ويصور الحارث بن خالد شوقه إلى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق إلى
 النجاة، ويقول:

يا أم عمران ما زالت وما برحت
 القلب تاق إليكم كي يلاقكم
 بنا الصبابة حتى مسّنا الشفق
 كما يتوق إلى منجاته الغرق
 وإنك لتلمس حرارة الشوق في قول العذري:

لو جُزّ بالسيف رأسي في مودتكم
 ولوبلي تحت أطباق الثرى جسدي
 لمريهوي سريعا نحوكم رأسي
 لكنت أبلى وما قلبي لكم ناسي
 أويقبض الله روعي صار ذكركم
 لولا نسيمٌ لذكراكم يروحني
 لعدت محترقا من حرّ أنفاسي

والشوق يحمل ابن الدمينه على أن يحمّد لحبيبته ذكرها له بالمساءة ويقول:

أرى الناس يرجون الربيع وإنما
 أرى الناس يخشون السنين وإنما
 ربيعي الذي أرجو نوالاً وصالك
 سنّي التي أخشى صروف احتمالك
 لئن ساءني أن نلتني بمساءة
 ليهنك إمساكي بكفي على الحشا
 لقد سرنى أني خطرت ببالك
 ورقراق عيني رهبةً من زيك

وانظر لوعة الشوق في قول أحد المتيمين:

أقول لأصحابي وهم يعذلونني ودمع جفوني دائم العبرات
بذكر منى نفسي فبلوا إزادنا خروجي من الدنيا جفوف هاتي

* * *

راحة السلوان

ومن العشاق من يستريح إلى السلو، ولكن أين إلى السلو السبيل؟ فمن ذلك قول العديل بن الفرخ.

صحا عن طلاب البيض قبل مشيبه
كأنني لم أزع الصبا ويروقني
دعاني له يوما هوى فأجابه
لمستأنسات بالحديث كأنه
وراجع غص الطرف فهو خفيض
من الحي أحوى المقلتين غضيض
فؤاداً إذا يلقي المراض مريض
تهلل غر برقهن وميض

وقال الشريف:

هي سلوة ذهبت بكل غرام
ولقد نضحت من السلو وبرده
من بعد ما أظما الغليل جوانحي
لا يدع العذال نزع صبابتي
قد كانت الصبوات تعصف مقودي
هيهات يخفضني الزمان وإنما
والحب نهب تطاول الأيام
حرّ الجوى فبردت أيّ ضرام
وأطال من ملل الزلان أوامي
بيدي حسرت عن الغرام لثامي
فالآن سوف أطل من إجمامي
بيني وبين الذل حدّ حسامي

وظاهر هذا الشعر أن أصحابه نزعوا عن الحب طائعين. وفي مقابل هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

وعلمتني كيف الهوى وجهلته
وأعلم مالي عندكم فيردني
وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
هواي إلى جهلي فأرجع عن علمي

ويقول ابن الأحنف في اليأس من السلوان:

لهُ عنك في الأرض العريضة مذهباً
وعاد إلى ما تشتهين وأعتباً

تجنب يرتاد السلو فلم يجد
فعاد إلى أن راجع الوصل صاغراً

ويقول من كلمة ثانية:

إذا تجدد حُزنٌ هَوْنُ الماضي
حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضي

كم قد تجرّعت من غيظٍ ومن حرقٍ
وكم سخطت وما باليتُم سخطي

ويقول أيضاً إبراهيم بن العباس:

وصرت على قلبي رقيباً لقاتله
حنيناً إلى أوصابه وبلا بله

لمن لا أرى أعرضت عن كل من أرى
أدفعه عن سلوةٍ وأردّه

ويقول ابن أذينة:

خُلقت هواك كما خُلقت هوى لها
بلباقيةٍ فأدقها وأجلها
ما كان أكثرها لنا وأقلها
شفع الضمير إلى الفؤاد فسألها

إن التي زعمت فؤادك ملّها
بيضاءً باكرها النعيم فصاغها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي
وإذا وجدت لها وساوس سلوةٍ

ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع:

ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهداً
من الشوق نارٌ لا نطيق لها وفداً

ولما نسيتم ودنا وغرامنا
جعلنا نغصّ الطرف عنكم وعندنا

* * *

غدر الغواني

ولابد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب، التي طالما يغدر فيها النساء. وإنا لنجد من بينهم من يحسب الغواني جميعا غادرات، ويقول:

فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس، كل غانية هند

ويقول كثير في السخر من عهود النساء:

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا غمزوها بالأكف تلين
تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن عليك شجا في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك اليلان فإنها لآخر من خلانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدا فليس لمخضوب البنان يمين

وقال الشريف يشكو المطل والتسويق:

يا ظبية البان ترعى في خائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذولٌ لشاربه وليس يرويك إلا مدمع الباكي
وعدٌ لعينيك عندي ما وفيت به يا قرب ما كذبت عيني عيناك
أنتِ النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرُّك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتْها فاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى من علم العين أن القلب يهواك

وإني ليشجيني قوله من كلمة ثانية:

تهفؤ إلى البان من قلبي نوازه ما بي البان من داره البان
أسد سمعي إذا غنى الحمام به كيلا يبين سر الوجد إعلان
ورب دارٍ أولتيها مجانباً وبى إلى الدار أطراب وأشجان

إذا تلفت في أطولها ابتدرت
كلمٌ بقلبي أداويه ويقرفه
لا للوائم أقصار بلائمة
على مواعيدهم خلف إذا وعدوا
هم عرّضوا بوفاء العهد آونة
حتى إذا عذبوني بالمنى خانوا

وابن الرومي يجعل الغدر من طبائع الحسان، إذ يشبههن بالحديقة، تحمل
الثمر حيناً وتعري من الورق حيناً، وإليك قوله من قصيدة طويلة:

يُولين ما فيه أغرام وآونة
ولا يدمن على عهدٍ لمعتقِدٍ
يميل طورا بحملٍ ثم يعدمه
تغدو الفتاة لها خل فإن غدرت
ما للحسان مسيئات بنا ولنا
وإن تُبعن بعهد قلن معذرة
يكفي مطالبنا بالذكر ناهية
لا نلزم الذكر أنا لم نسمّ به
فضل الرجال علينا أن شيمتهم
وأن فيهم وفاء لا تقوم به
صدقن ما شئن لكنّا تقنصنا
أنكى وأزكى حريقا في جوانحنّا
إذا ترقرقن حريقا في جوانحنّا
إذا ترقرقن والإشراق مضطرم

يُولين ما فيه للمعشوق سلوان
أني؟ وهن كما شبّهت بستان
ويكتسي ثم يلفى وهو عريان
راحت ينافس فيها الخل خلان
إلى المسيئات طول الدهر تحنان
إنّا نسينا وفي النسوان نسيان
أن اسمنا الغالب المشهور نسوان
ولا مُنِحناه بل للذكر ذكران
جود وبأس وأحلام وأذهان
ولن يكون مع النقصان رجحان
منهنّ عين تلاقينا وأدمان^(٢)
خلق من الماء والألوان نيران
خلق من الماء والألوان نيران
فيهن لم يملك الأسرار كتمان

(١) الكلمك الجرح. وقرف الجرح إصابته من جديد.

(٢) عين جمع عيناء وهي جميلة العين، والأمدان الأطباء.

ماء ونار فقد غادرن كل فتى لا بسن وهو غزير الدمع حران
تخضل منهن عين فهي باكية ويستحر فؤاد وهو هيمان

وقال فتى في ابنة عمه، وقد تجنت عليه وغدرت به:

أحبابنا لو تعلمون بحالنا لما كانت اللذات تشغلكم عنا
تشاغلتمُ عنا بصحبة غيرنا وأبديتُم المهجران ما هكذا كنا
وآليتُم أن لا تخونوا عهدنا فقد وحياء الحب خنتم وما خنا
غدرتم ولم نغدر وخنتم ولم نخن وحُلتم عن العهد القديم وما حلنا
وقلتم ولم توفوا بصدق حديثكم ونحن على صدق الحديث الذي قلنا

وكان صخر بن عمرو أخو الخنساء، يحب سلمى بنت عوف ثم تزوجها؟
وتعاهدا على أن لا يتزوج واحد منهما بعد صاحبه، ثم طعن في أحد الأيام.
فمرض سنة كاملة. فقصرت زوجه في السهر عليه والرفق به. ولا كذلك أمه
الرءوم. قالوا: وسمع يوما امرأة تقول لأمه: كيف حال صخر؟ فقالت: نحن
بخير ما دمنا نرى وجهه. وسمع أخرى تقول لامراته كيف حال صخر؟
فقالت: لا حي فيرجى. ولا ميت فينعى!! وحكي أنه جلس يوما ليستريح
وقد رُفع له سجف البيت، فرأى سلمى واقفة تحدث رجلا من بني عمها وقد
وضع يده على عجزتها، فسمعه يقول لها: أبيع هذا الكفل؟ فقالت عن قريب
! فقال صخر لأمه: علي بسيفي، لأنظر هل صدئ أم لا. فأتته به فجرده، وهم
بقتل سلمى. فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله. فبكى وقال:

أرى أم صخر لا تمَلَّ عيادتي وملت سُلمي مضجعي ومكاني
فأي امرئ ساوى بأم حليلة فلا عاش إلا في شقا وهوان
أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
وما كنت أخشى أن أكون جنازة لديك ومن يغتر بالحدثان

ويذكرون أن غسان بن جهضم كان مفتونا بابنة عمه، ثم تزوجها، فلما حضره الموت حلفت لا تتزوج من بعده، ثم حثت في يمينها، فأنشدها في نومها ليلة الزفاف:

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمةً ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهداً
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب حلفت له يوماً ولم تنجزي وعداً
غدرت به لما ثوى في ضريحه كذلك يُنسى كل من سكن اللحد!

ويذكرني هذا الشعر بقول أبي العتاهية:

إذا ما انقضت عني من العيش مدتي فإن غناء الباقيات قليل
سيعرض عن ذكري وتُنسى مودتي ويحدث من بعد الخليل خليل

وهذه طبيعة العالم يا صاح، فاقض من أوطارك ما أنت قاض، واترك
الوهم للمجانين!!

* * *

ميزان الحب^(١)

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهب المحب لمحبوبه دمه وماله، وانظر كيف يقول:

لحا الله من لا ينفع الود عنده
ومن هو ذو لونين ليس بدائم
فلو أرسلت يوما بثينة تبتغي
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها
سأليني مالي يا بئين فإنها
فما لك لما خبر الناس أنني
فأبلى عذرا أو أجيء بشاهد
فليت رجالا فيك قد نذروا دمي
إذا ما رأوني طالعا من ثنية
ومن حبله إن مُدَّ غير متين
على ثقة خوان كل أمين
يمني ولو عزت عليّ يميني
وقلت لها بعد اليمين سأليني
يبيّن عند المال كل ضنين
أسأت بظهر الغيب لم تسأليني
من الناس عدل إنهم ظلموني
وهموا بقتلي يا بئين لقوني
يقولون من هذا؟ وقد عرفوني!

* * *

(١) في كتاب «الأخلاق عند الغزالي» بحث مفصل عن الحب من الوجهة الفلسفية، فليرجع إليه القارئ إن شاء.

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء إلى الأيام السوالف، والليالي الخوالي!!
ويذكرون أن المتوكل أحب أن ينادمه الحسين بن الضحاك، ليرى ما بقي
من ظرفه، وشهوته لما كان عليه. فأحضره وقد كبر وضعف، فسقاه حتى سكر
وقال لخادمه شفيع: اسقه! فسقاه وحياء بوردة وكانت على شفيع أثواب موروثة
فمد الحسين يده إلى درع شفيع. فقال المتوكل: أتجسّ غلامي بحضرتي؟ فكيف
لو خلوت به! ما أحوجك يا حسين إلى أدب! وكان المتوكل غمز شفيعا على
العبث به، فقال الحسين: يا سيدي! أريد دواة وقرطاسا. فأمر له بهما فكتب:

وكالوردة البيضاء حيا بأحرٍ من الورد يسقى في قراطق كالورد
له عَثَاتٌ عند كل تحيةٍ بكفيه يستدعي الخلي إلى الوجدِ
تمنيت أن أسقى بكفيه شربة تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله عيشا لم أبت فيه ليلة من الدهر إلا من حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر، وهم بتقديم الغلام إليه، لو كان مما تسمح
بمثله النفس!!

وانظر ما يقول ابن هانئ في ذكرى أيامه السوالف:

قمن في مآتم على العشاقِ ولبسن السواد في الأحداقِ
وبكين الفراق بالضم الرطـ ب المَقْنَا وبالخدود الرِّقَاقِ
ومنحن الفراق رقة شكوا هنّ حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمـ مع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى أذنوا بالفراق قبل التلاقي

بياد فوق الأجيادِ كالأطواق
فتقدمتُ في عنان السِّباق
مع جمر الغضى عن الإحراق
وحسنا جوال عقد النطاق
مسك درع الجيوب درع التراقي

ودنوا للوداع حتى ترى الأجـ
يوم راهنتُ في البكاء عيونا
أمنع القلب أن يذوب ومن يمنـ
ربّ يوم لنا رقيق حواشي اللهـ
قد لبسناه وهو من نفحات الـ

وما أوجع قول ابن الرومي في البكاء على ليلالي الخوالي:

وهل لشبابٍ ضلّ بالأمس مُنشدُّ
وهنّ الرزايا بادئاتٌ وعود
بياضهما المحمود إذ أنا أمرد
بياضا ذميا لا يزال يُسود
أنيق ومنشوءٌ إلى العين أنكد
فقد جعلت تقذي بشيبي وترمد
مواقعها في القلب والرأس أسود
وقد جعلت مرمى سواك تعمّد
وتأسى إذا نكبن عنك وتكمد
ومن صرفت عنه من القوم مُقصد
كموقعها في القلب بل هو أجهد
ويذكوله ياقوتها والزبرجد
وأكوابها، كادت من اللين تعقد
ومالي إلا كفها متوسد
ظِلالي وأغصان الشبية مُيّد

أيام لهوي هل مواضيك عُودُ
رُزئتُ شبابي عودةً بعد بدأةٍ
سلبتُ سواد العارضين وقبله
وبُدتُ من ذاك البياض وحسنه
لشتان ما بين البياضين: معجبٌ
وكنت جلاء للعيون من القذى
هي الأعين النّجل التي كنت تشكي
فمالك تأسى الآن لما رأيتها
تشكي إذا ما أقصدتك سهامها
كذلك تلك النبل من وقعت به
إذا عدلت عنا وجدنا عدولها
وبيضاء يخبو دُرّها من بياضها
إذا ما التقى السكران: سكر شباهها
لهوت بها ليلا قصيرا طويله
وكم مثلها من ظبيةٍ قد تفيأت

ليالي سنتريس^(١)

وقد أكثر صاحب البدائع من الحنين إلى سنتريس، وهي مهوى قلبه، مُنيةً روحه، إذ كانت ملعب صباه، وميدان لهوه، في أيامه السوالف، ولياليه الخوالي! وانظر كيف يقول:

ليالي النيل واللذات ذاهبةً وجدي عليكن أشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لي منكن واحدةً في سنتريس ويُدني بعض خلان
إذا تبين دهري كيف يرحمني من ظلم همي من عدوان أحزاني
كم ليلة لي بذاك النهر سالفه قضيتها بين غاداتٍ وولدانٍ

* * *

وذي دلال هو الدنيا وزينتها يُردي الأسود بطرف منه نعسانٍ
كأنما فعل عينيه بعاشقه فعل المدامة في أعطاف نشوان
شربت من ريقه راحاً مشعشةً بخالص الود لم تمزج بسُلوان
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرني وكم جميلٍ بورد الخد حيّاني

* * *

يا مُوقد النار في قلبي مؤججةً وقاطنا بين أنهار وريحانٍ
عرج عليّ فما نفسي بصابرةً على نواك وما طرفي بوسنان

وإليك قوله من كلمة ثانية:

(١) في مقدمة كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل.

من مَشوقٍ متيم القلبِ عانٍ
حائثاً على صباكِ حواني
بغرامٍ مؤججٍ غير فانٍ
يرقب الصفو من خلال الأمانِ

إيه يا فتنة الوجود سلامٌ
لو يشاء الهوى حوتكِ ضلوعٌ
فارحمي فانيا من الوجد يشقى
رنقت وردّه الليالي فأمسى

* * *

من طوى قريحهم عناد الزمانِ
ما قضينا من الليالي الحسان
في نجاة من النوى وأمان
وقطوف المنى رطابٌ دواني
أسعفاني ببعض ما تملك ان
من توالي الوجيب والخفقان
وشجاه من الجوى ما شجاني
ويواسي الزميل في الأحزان

آه لو يسمح الزمان ونلقى
وترى سنتريس والدهر غافٍ
حين كنا من السرور نشاوى
نتساقى الحديث عذبا شهيا
يا خليلي والرفيق معينٌ
أبتغي آسيا فقد عيل صبري
أبتغي صاحبا توله قبلي
فلقد يسعف الجريح أخاه

* * *

وقد لحّن هذه القصيدة البلبل الغريد الشيخ عبد السميع عيسى الباجوري
وما أروع شعر الوجدان إذا غني بمثل صوته العذب الجميل!!

* * *

صبا نجد

وما أشوق القلب إلى شميم صبا نجد! فقد حبه إلينا الشعراء حتى لنجد
(صردُر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى، حين يقول:

النجاء النجاء من أرض نجد
إن ذاك الثرى لينبت شوقا
كم خلي غدا إليه وأمسى
وظباء فيه تلاقى الموالى
بشتيت من المباسم يغري
وبنان لولا اللطافة ظنت
وحديث إذا سمعناه لم ند
أنفقت من براقع الخرز والقز
ويقول الطغرائي:

يا حبذا نجد وإعراق الثرى
فهواؤه خصر النسيم وتربه
وبساكنيه إن استقر بنا النوى
ويقول ابن الخياط:

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه
وإياكما ذاك النسيم فإنه

فقد كان رياهما يطير بلبه
إذا هب كان الوجد أيسر خطبه

(١) المراد بالمبسم الشيت الثغر المفلج.

مكان الهوى من مغرم القلب صبه
يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
وشوق على بعد المزار وقربه

خليلي لو أحببتما لعلمتما
تذكروا الذكرى تشوق وذو الهوى
غرامٌ على يأس الهوى ورجائه

وقال ابن التعاويذي:

مِ تَقَضَّتْ حَمِيدَةً مِنْ مَرْدٍ
حَيٍّ إِنْ جَزَمْتَ بِأَعْلَامِ نَجْدٍ
مَنْ سَقَاهَا مَاءَ الْمَدَامِ عَيْدٍ
تَبْدَأُ الْغَرَامَ فَالشُّوقُ عَيْدٍ
بَيْنَ أَثْوَاهِهَا بَرَاثِنُ أَسَدٍ

يارفقي هل لذهاب أيا
أنجداني بوقفه في مغاني الـ
وابكياه بمقلتي واسألاها
جنباً عندها مصارع من ما
فبأكنافها جاذرٌ رملٍ

* * *

جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى أن عينه سبب بلائه، كقول خالد الكاتب:

أعان طرفي على جسمي وأحشائي بنظرةٍ وقفت جسمي على دائي
وكنت غرًّا بما يجني على بدني لا علم لي أن بعضي بعض أدوائي
ومثله قول الأرجاني:

تمتع يا مقلتي بنظرة وأوردت ما قلبي أشر الموارد
أعيني كُفًا عن فؤادي فإنه من البغي سعي اثنين بي قتل واحد
ويرى الشريف الرضي أن قلبه سبب شجاءه، ويقول:

قلب كيف علقت في إشراكهم ولقد عهدتك تفلت الأشركا
أكثبت حتى أقصدتك سهامهم قد كنت عن أمثالها أنهاكا
إن ذبت من كمد فقد جر الهوى هذا السقام عليّ من جرّكا
لا تشكون إليّ وجدا بعدها هذا الذي جرت علي يداكا
لأعاقبك بالغليل فلإني لولاك لم أذق الهوى لولاكا

ويأسي صرذر على أن كانت أجفانه حجاب قلبه، ويقول:

لوا حظنا تجني ولا علم عندها وأنفسنا مأخوذةً بالجرائر
ولم أر أغبى من نفوس عفافٍ تصدق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حجاب قلبه أذن على أحشائه للفواقر

وقال ابن الأحنف يشكو ظلم قلبه وحببه:

يهيم بجيران الجزيرة قلبه وفيها غزال فاتر الطرف ساحره
يؤازره قلبي عليّ وليس لي يدان بمن قلبي عليّ يؤازره

قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع:

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة
إن الذي خلق الملاحمة لم يشأ
لم تغن فيها حكمة الحكماء
إلا شقائي في الهوى وبلائي
ولله الأمر من قبل ومن بعد!

فهرس

٣	الإهداء
٥	مقدمة الطبعة الأولى
١٥	مذاهب النسيب
١٦	موجبات الدموع
٢٣	عذر أرباب الدموع
٢٥	الاكتفاء بالدموع
٢٧	الفرع إلى الدموع
٣٠	الدمع عند الوداع
٣٤	الدمع بعد الفراق
٣٨	شكوى الصبابة
٤٦	عند منازل الأحباب
٦٣	وشاية الدموع
٦٦	سلطان الحب
٧٢	غرام النساء بالنساء

- ٧٦ طيف الخيال
- ٧٩ خيال البحري
- ٨٧ طرف أدبية
- ٨٩ اليأس والرجاء
- ٩٢ العتاب
- ١٠٩ نوح الحمام
- ١١٦ التقرب بالدموع
- ١٢٠ ثورة الوجد
- ١٢٧ الأرق والسهاد
- ١٣٦ الطبيعة في أنفاس الشعراء
- ١٤١ مداراة الرقباء
- ١٤٤ بخل الحسان
- ١٤٨ الأمر للحب
- ١٥٠ حمل السلام
- ١٥٤ دموع الغانيات
- ١٥٩ ندم المفارق
- ١٦٥ غربة المحب
- ١٦٧ الأمل الضائع

- الكتمان ١٧١
- طرفة أدبية ١٧٧
- قسوة التجني ١٧٨
- ظلم الحبيب ١٨١
- قساة القلوب ١٨٤
- سيف الفراق ١٨٧
- الهرب من الفراق ١٩٠
- غراب البين ١٩١
- فقد العزاء ١٩٢
- بكاء الشباب ١٩٥
- بلايا الغيرة ١٩٨
- الاستعطاف ٢٠٢
- الحنين ٢٠٩
- الرفق بالحبيب المريض ٢١٥
- الذبول والنحول ٢١٧
- أمانى المحبين ٢٢٠
- الهيبة والخضوع ٢٢٤
- الرضى بالقليل ٢٢٦

- ٢٢٨.....شفاء المحب
- ٢٣٠.....القلب الخافق
- ٢٣٢.....مثال الحبيب
- ٢٣٤.....أهوال الصدود
- ٢٣٦.....التلفت إلى معالم الوجد
- ٢٣٨.....الصد والنوى
- ٢٣٩.....القريب والبعيد
- ٢٤١.....حلاوة الملام
- ٢٤٣.....رؤية الضمير
- ٢٤٥.....القلب والكبد
- ٢٤٧.....بكاء الملاح
- ٢٥٤.....بكاء الحلائل
- ٢٥٦.....لوعة الشوق
- ٢٦٠.....راحة السلوان
- ٢٦٢.....غدر الغواني
- ٢٦٦.....ميزان الحب
- ٢٦٧.....الليالي الخوالي
- ٢٦٩.....ليالي سنتريس

٢٧١ صبا نجد

٢٧٣ جناية العين والقلب

٢٧٤ قضاء الله